

1
1
رواية
منى سلامة
احكي يا دُنيازَاد
رَايَاتُ الشَّوْق
عصير الكُتب


احكي
يا دنيازاد
أسرارًا تُخفيها النجمات



الكتـــــاب: احكي يا دنيازاد ج 1
المـــؤلـــف: منى سلامة
تنسيق داخلـي: سمر محمد
تدقيق لغـــوي: نهال جمال
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
الطبعة الأولـى: يناير 2021
رقم الإيــداع: 2020/20087
I . S . B . N: 978-977-992-129-7

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428
لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

منى سلامة



رَايَاتُ الشَّوْق



شكر وإهداء

إلى «كلام روايات»
المِحضنَ الذي ولُدَتْ فيه هذه الحكاية
صاحبتموني عشرين ليلة شهد عليها قمر ونجمات
لكم من قلبي أجمل التحايا وأصدق الدعوات.

كان يا ما كان، في زمنٍ من الأزمانِ، نبتَ للأحلام لسان، وباحتْ بسرِّها الدفين، لنجمة من النجماتِ..
أنبأتها كيف يخجل الناس مما تهفو إليه قلوبهم من لذَّات
وما يشتهون عيشه من حيوات، وأساطير وحكايات
فأشفقتْ النجمة على بني الإنسان، وقررتْ مع أخواتها النجمات، أن يَكُنَّ مستودع أسرار؛ لِما يعجز الناس عن المُجاهَرة به مِن أخبار
كل نجمة تخفي في ثناياها حكاية
وقصة ورواية
لا تبوح بها إلا لسيدة الحكاية
وأميرة الغواية

الحكَّاءة دُنيازاد.

أثمَّة مَن يجهل سيرة أختي شهرزاد؟
أتعجبُ إن سمعتُ من يقول إنه لا يعرفها، فشهرتها قد بلغتْ أعالي البلاد وسافلها
شرقها وغربها.. شمالها وجنوبها
جبالها ووِديانها.. براكينها ونبوعها
أما أنا!
لم يسمع باسمي لا قاصٍ ولا دانٍ
كأنني ريح مرَّتْ والناس نيام
لم تمسس وتدًا ولا شجرًا
لم تنفع زرعًا ولا طيرًا
لكن لأقول لكم من البداية
إن كنتم تريدون مني أن أحكي الحكاية
أنا أفضل من شهرزاد في زمانها
وأحنَك من مثيلاتها وأقرانها.

هل تعرفون كيف استطاعتْ أختي المصون منع شهريار مِن قتلها؟!
كلا..
ليس بما قصَّته عليه من أساطير وحكايات
ولا بما نسجته كل ليلة من مغامرات ومؤامرات
السحر لم يكن في ثنايا شخوصها
ولا في غرابة حديثها
ولا في تباين أحداثها

السحر عرفته وحدي
بحنكتي وبراعتي!
كنتُ أستمع إليها كل ليلة وهي تقص حكاياتها على شهريار في مَخدعه
رأيته.. ورأيتها
وعندئذٍ عرفتُ سرها الذي امتلكت به قلب رجُلها
السحر لا تملكه شهرزاد وحدها
بل كل البنات من بني جنسها!
لن أخبركم عن السحر وفنونه

بل سأقصه عليكم قصًّا
ولكم عليَّ عهد لا أخلفه
إن استمعتم إلى حكايتي الأولى بشغف شهريار ولهفته
سأتبعها بالثانية والثالثة...
لن أتوقف عن الحكي حتى أتم من الليالي ألفًا
وفي كل حكاية سأبوح لكم بأسرارٍ عجيبة
ودسائس غريبة
أخفاها نساء ورجال
شيوخ وصبيان
كهول وبنات
في قلوب النجمات!

كان يا ما كان
في زمنٍ من الأزمان
رأيتُ إنسانًا قلبه مشطور
نصفٌ فوق السحاب محمول
ونصفٌ بين الطين مغمور!

الليلة الأولى

لماذا لا نرى وحل الذنب
إلا عندما يزَل به الآخرون؟

(١)

تاهت نظراتها بينٍ السحاب، تتخيَّله كما في صغرها «غزل بنات»، هش الملمس، حلو المذاق، أبيض بغير ألوان تُعكِّره.

طبعَ التخيُّل الطفولي بسمة حلوة فوق ثغرها، عزلها السحاب عمَّا حولها وخبأها في بطنه، حتى إنها لم تشعر بيد مضيفة الطائرة تُقدم إليها المشروب العجيب الذي طلبته، فاضطرتْ المضيفة إلى أن تقول بأدبها المعهود:

- شاي على قهوة.

التفتتْ الفتاة صوبها، تناولت منها الفنجان ذاهلة كأنها خرجتْ للتو من حلمٍ قصير، ثم شكرتها بخفوت.

لم تخفِ المضيفة تعجبها من هيئة الفتاة وملابسها، فيما عدا وجهها خمري اللون ذا الملامح الدقيقة، وكفَّيها النحيلتين بارزتا العروق، فكل شيء فيها أسود! عيناها سوداوان، حذاؤها أسود، رداؤها الشتوي بخامة الجوخ أسود، الكوفية الصوف المصنوعة يدويًّا التي تطوق عنقها لونها أسود، حجابها أسود، حتى حقيبتها الأنيقة لونها أسود!

خمَّنتْ المضيفة أن الفتاة لا بد وأنها ذاهبة إلى حِداد أو قادمة منه.

لم تنتبه الفتاة إلى نظرات المضيفة المتفحصة، شغلها غياب رفيقها عن المقعد المجاور لها، رفعت نظراتها المتوجسة تبحث عنه فاصطدمت بنظرات المسافر الذي يجلس موازيًا لها، في الجانب الآخر من الطائرة، يبدو أن نظراته كانت تستقر فوقها منذ زمن، بينما هي منفصلة عن العالم تتطلع من الشباك إلى خبايا السماء.

أزعجتها نظراته المركزة عليها، وبخاصة أنه أشاحها سريعًا وعلى وجهه نظرة من أُمسِكَ بالجُرم! اضطربت حتى كادت أن تريق السائل الساخن فوق ملابسها.

كيف لنظرة أن تُشعرها كما لو كانت مُذنبة؟ بتلقائية رفعت يدها تتأكد من أن أزرار معطفها مُغلَّقة، وشعيراتها مُخبأة تمامًا خلف حجابها، وأنها تجلس في هيئة وقور.

لماذا إذن ما تزال نظراته الوقحة تُلاحقها كلما تظاهرتْ بأنها مندمجة في احتساء مشروبها؟ التفتتْ تبحث بعينيها مرة أخرى عن رفيقها، فبجلوسه ستُغلَّق أبواب الرؤية بينها وهذا الرجل السمج.

رأت «أكمَل» يُنهي حديثه مع المضيفة في آخر الرواق، تمنحه على إثر كلماته بسمة كبيرة، ثم يعود إلى مقعده بجوارها ويقول بحماسه المعهود:

- «شفق».. ظننتكِ نائمة.

استرقتْ النظر من فوق كتفها إلى المضيفة قبل أن تسأله بجدية:

- ماذا قلتَ لها؟

اتسعتْ ابتسامته وقال بخبثٍ:

- أتغارين؟

ارتبكت أكثر، وهذه المرة أراقتْ بالفعل قطرات من السائل الساخن فوق ردائها، من حُسن حظها

انه اسود لا تظهر فيه البقع بسهولة. امسك بالقدح عنها قائلا بتفهمٍ وهو يَخرج منديلا ورقيّا من جيبه ويمنحه لها:

- أنتِ متوترة، أعرف السبب، لا تقلقي، ستوافق في النهاية مجبرة على ذلك.

تنهدتْ بقوة وهي تُحاول أن تُهدِّئ من وتيرة تنفسها المتسارعة، لكنها لم تستطع أن تُغالب مرارة كلماتها وهي تسأله:

- أمي أم أمكَ؟

قال مؤكدًا:

- أمي وأمكِ.

عادتْ بذاكرتها إلى أسبوع فحسب، اليوم الذي غادرت فيه «القاهرة» ووصلت إلى مطار «الصين»، عندما هاتفتْ أمها من المطار لتنزع فتيل القنبلة:

- أنا وافقتُ على «أكمَل».

لم تمهلها الدكتورة «ثريا» وقتًا لتُتمم ابنتها حديثها، أغلقت الخط على الفور بعد أن سبَّتها:

- وقحة!

أعادتْ «شفق» الاتصال، لم ترد أمها إلا بعد أربع عشرة محاولة، فقط لتُبادرها بحدة وبنبرة آمرة:

- أنهي هذه المهزلة فورًا.

ازدردتْ «شفق» ريقها بصعوبة وقالت:

- ليست مهزلة، لبستُ خاتمه وانتهى الأمر.

فسبَّتها أمها ثانية، ثم قالت:

- ليس لي ابنة مثلكِ بعد الآن.

ثم أنهت المكالمة على الفور.

على «شفق» الآن أن تستعد للمواجهة مع أمها، والتي حاولت التجهُّز لها طوال الأسبوع، دون جدوى! ها هي أنفاسها تتسارع، تُعبِّئ رئتيها بالهواء وتحشده في صدرها حشدًا.. الهواء يقل، ورئتاها تحتاجان إلى المزيد والمزيد من أكسجين يبخل به الهواء عليها.. هل ابتلعتْ هواء الطائرة كله؟!

نهضتْ باضطراب كبير، تضم حقيبتها إلى صدرها وكأنها كنز ثمين، وقف «أكمَل» يقول بقلق:

- «شفق»، ما بكِ؟

أجابته ببسمة عصبية مغتصَبة:

- بخير. سأذهب إلى دورة المياه لأنظف ملابسي.

ثم أسرعت تعدو في الممر إلى دورة مياه الطائرة، أغلقت بابه من الداخل جيدًا، فتحت حقيبتها وطفقت تبحث فيها يُمنة ويُسرة بيد مرتعشة وأعين تغشاها سحابة بيضاء، رئتاها تجاهدان لحرث

الهواء بحثا عن المزيد من الاكسجين، صوت انفاسها يتعالى، يتحشرج صوت تنفسها وكأنها غريق يبحث بين الماء عن فسحة يتنفس منها.

ألقت ما بداخل الحقيبة في المغسلة، تبحث وتبحث، صوت تنفسها يزداد حشرجة، قلبها يضخ الدم بمعجزة.

وأخيرًا عثرت على الزجاجة السحرية، سر نجاتها.

وضعت مقدمة علبة رذاذ الفم في فمها وبخَّت منه مرتين. مُغلقة العينين شقَّتْ دمعة طريقها بين جفنها وتساقطتْ ساخنة فوق وجنتها اليابسة، ألقت على نفسها نظرة في المرآة، أبصرَتْ فتاةً بائسة تتخبط مثل عصفور هدَّه المرض.. وبكت.

عندما عدَّلت من هيئتها وعادت إلى مقعدها في الطائرة كان ينتظرها آخر شيء ترغب في حدوثه، الجميع ينظرون إليها ببهجة، على شفاه البعض ابتسامة، وفي أعين البعض غيرة وحسرة، كاميرات هواتف تُصوِّرها مُقتحمة خصوصيتها، ومضيفة تُمسك بكعكة وردية اللون بمنتصفها ثلاث شمعات، بينما «أكمَل» يستقبلها وهو يصفق مُنشدًا:

- سنة حلوة يا جميل.. سنة حلوة يا «شفق».

تجمَّدت قسماتها، وتمنَّت أن تنشق فتحة في بطن الطائرة وتسقط منها في الحال.

أنهتْ الإجراءات وخرجت من المطار بذهن شارد، لم تتبادل خلال هذه الفترة حديثًا طويلًا مع «أكمَل»، تعكَّر مزاجه بردة فعلها، قالت في توتر ملحوظ وقد أدركتْ انزعاجه:

- لا أحب المفاجآت.

هز رأسه دون أن يعي كثيرًا، كيف تكره امرأة المفاجآت؟

انتوَى الحديث معها مُطوَّلًا في السيارة يبثها خيبته، لكن ما إن خرجا من بوابة المطار حتى هجم عليهما عدد من الصحفيين والمهتمين بأخبار الحادث الذي وقع منذ قرابة الأسبوعين، وبدأت كاميرات الهواتف النقالة في التقاط الصور بغير حاجة لتصريح أو إذن.

أصابها الذعر، وتقهقرت إلى الخلف، اختبأتْ خلف بوابة المطار، بينما تقدم «أكمَل» بثبات ووقف في منتصف حلقة شكلها الفضوليون، بادره أحدهم:

- باشمهندس «أكمَل»، سمعنا أنك هربتَ خارج مصر.

علتْ شفتيه بسمة ساخرة وهو يُجيب بثقة، وهو يُعيد تصفيف مقدمة شعره:

- هل هذه مزحة يا رجل؟ ومن الذي يقف أمامك الآن؟ عفريت أم قريني من الجن؟

بادره سائل آخر:

- سمعنا أنك تركت موقعك في مجلس إدارة شركة «النمر للمقاولات» بعد الكارثة التي وقعت.

وأضافت فتاة يبدو أنها حديثة العهد بالعمل الصحفي:

- هل ترى ان المسؤولية الجنائية في تلك الحادثة تقع على شركة «النمر» وحدها ام للوزارة أيضًا حصتها من المسؤولية؟ وكيف ينوي المسؤولون التعامل مع أسر ضحايا تلك الكارثة؟

انتفش صدر «أكمَل» وهو يجيب بنبرة لم تخفَ حدتها عن أحد:

- كارثة؟! ألا تظنون أن استخدام هذه المصطلحات أمر مبالغ فيه؟! هل أخبركم ما هي الكارثة؟ موت أكثر من ألفي شخص عندما غرقت «تيتانيك» يُسمَّى كارثة.. موت المئات في حريق قطار الصعيد يُسمَّى كارثة، حتى إن قتل هتلر لليهود داخل محرقة ضخمة يسمى كارثة، لكن ما نتحدث عنه هو حادث عمل بسيط.

اندفعتْ الفتاة تصيح بحماس البدايات:

- هل تُسمي فقد خمسة عمَّال لأرواحهم تحت الأنقاض خطأ عمل؟ ترْكهم لعائلات ونساء وأطفال بغير عائل مجرد حادثة عمل؟ كم يلزم من الأرواح أن تُفقَد حتى يرى المسؤولون في شركة «النمر» أن كارثة ما قد حلَّتْ؟ عشرون.. ثلاثون.. مائة.. ألف؟!

أيقنتْ «شفق» أنها لم يعد بوسعها الاختباء أكثر، صحيح أن «أكمَل» مهندس بارع في عمله، لكنه مُتحدِّث سيئ للغاية، وبخاصة في مثل هذه المواقف المشحونة بالغضب، والتي تحتاج إلى التعامل معها بحكمة وحِنكة. اندفعتْ من فورِها تقتحم الدائرة وتحتل مكانًا بارزًا بجواره، تعرَّف صحفي مُحنك هويتها في الحال، فبادرها هاتفًا:

- هل توافق الأستاذة «شفق» المسؤولة القانونية بالشركة على ما قاله الباشمهندس «أكمَل»؟ وهل هذا موقف الشركة ككل وتقييمهم للحادثة؟

تجاهلتْ «شفق» سؤاله تمامًا، التقطتْ نفسًا عميقًا تنظم به ضربات قلبها، ثم قالت:

- لم يغمض لي جفن بهناء طوال الأسبوعين الماضيين منذ أن وقعت تلك الحادثة. لم تتوقف جهود الشرطة ولا جهودنا للحظة لتحديد المُخطئ لنيل جزائه. القصاص لهذه الأرواح التي فُقِدتْ أثناء عملها هو واجب نسعى جميعنا من أجله الآن، أما أسَر الضحايا فستُعوَّض عائلاتهم بمبلغ مالي نعرف أنه لن يُعوِّض من فقدوه من أب وأخ وزوج.. لو كان بإمكاننا إعادة أرواحهم لما تأخرنا لحظة واحدة في فعل ذلك، لكننا للأسف لا نملك سوى معاقبة المخطئ مهما كان.

لمحت إحدى الفتيات الحلقة الذهبية التي تطوق خنصر «شفق» من يدها اليُمنى، ومثلها فضية تطوق خنصر «أكمَل»، فالتقطت صورة من هاتفها. لم يفت «شفق» ملاحظة كيف تتطلع بعض الفتيات بانبهار إلى «أكمَل» وكأنه ممثل عالمي وقعن أسيرات لسحره ثم ها هن يرينه عن قرب.

اعتادتْ أن ترى نظرات إعجاب وتودد تُلاحقه بين حين وآخر، تطلَّعت إليه فبدا غير مُبالٍ بهن.

قالت الفتاة بعدما التقطتْ ما شاءت من صور:

- هل تمت خطبتكما؟!

عقدت الدهشة لسان «شفق»، إذ أمسك «أكمَل» بكفها ورفعها عاليًا، يقول بنبرة مرحة قبل أن يسمح لها بالاعتراض أو بنزع كفها من قبضة يده:

- نعم، نحن خطيبان الآن.

احتلَّ الغضب قسمات وجهها جنبًا إلى جنب مع الدهشة والارتباك، نزعت يدها وتقدمت صوب

سيارة الشركة التي تنتظرهما، يتبعها «اكمَل» وهو يوقف اسئلة المتجمهرين برفع كفه عاليًا، إلا أن سؤالًا ملتويًا لم تستطع الصحفية الثائرة أن تمنعه من أن يصل إلى أسماع «شفق» بحدة:

- أستاذة «شفق»، تقولين إنكِ ستسعين لمعاقبة المخطئ، لكن أختكِ أيضًا مهندسة تعمل على هذا المشروع، ماذا إن كانت أحد المتورطين المتسببين في تلك الحادثة؟ ماذا ستفعلين عندئذ؟

وقع السؤال على قلبها بدوي شتت أفكارها للحظة، أي عقل خبيث يُفرز مثل هذا السؤال! تلاحقت أنفاسها، وتسارعت ضربات قلبها، حاول «أكمَل» أن يُبعدها عن الفتاة وسؤالها، إلا أن «شفق» استدارت لها بكامل جسدها، تطلعت في وجه الصحفية، ثم طافت في الأعين المترقبة لجوابها، الشَرِهَة إلى خبر جدلي أو فضيحة يقتاتون عليها لأيام وليالٍ في الصحف وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، ثم عادت أنظارها تستقر بقوة في عيني الصحفية السائلة، وتقول بأنفاس متحشرجة، ونبرة حازمة:

- لو اكتشفتُ أن أختي مذنبة، سأقدمها بنفسي لتنال عقابها!

- «أكمَل»، لماذا أعلنتَ أمر خطبتنا؟ لم أتحدث إلى أمي كما ينبغي! وكذلك أنت لم تتحدث إلى أمك بعدُ!

حاولت قدر استطاعتها ضبط نبرة صوتها كي لا يُشاركهما سائق الشركة في الحديث، فاتَّبع «أكمَل» النهج نفسه وهو يميل عليها في المقعد الخلفي، قائلًا بمزاج رائق:

- ليس لدي ما أتحدث بشأنه، أنا في السابعة والعشرين، أي أنني فُطِمتُ من أمي منذ زمن طويل؛ لن أسألها من أتزوج ومن لا أتزوج.

أدهشتها قدرته على الابتسام بعد ما مرًّا به من لحظات صعبة في المطار، وفيما هما مُقدمان على مواجهة طوفان الغضب كلٌ في بيته، رفع حاجبًا وقال بنظرة متحدية:

- وأنتِ يا «شفق»؟ هل فُطمتِ أم ما زلتِ تحتاجين إلى رأي أمك في قراراتك المصيرية؟ أحتاج إلى معرفة جوابك لأن ما جذبني إليكِ في الأساس هو نضجكِ، وكونكِ لم تُفطمي بعدُ أمر سيزعجني بالتأكيد.

كان سؤالًا مفخخًا، لو أجابت بـ«نعم» فستكون نصف كاذبة، ولو أجابت بـ«لا» فهي في قاموسه طفلة صغيرة لا تستطيع الوقوف خلف قراراتها، و«شفق» أبعد ما تكون عن ذلك. رانَتْ إلى رعشة بسيطة أصابت كفيها، عليها أن تهدأ وإلا تفاقم قلقها إلى نوبة ذعر كما حدث في الطائرة.

صارحتْ «أكمَل» بشأن مرضها التنفسي، واحتياجها إلى رذاذ الفم في حالات قليلة، وبخاصة عندما تُصاب بنوبة ذُعر؛ تختنق أنفاسها وتضيق عليها الأرض بما رحُبت، لكنها لم ولن تسمح له أن يراها في هذا الحال، المعرفة نقرة، وتعرية ضعفها أمامه نقرة أخرى، شيء لم تعتده قط.

قالت بجدية لم تخلُ من الحزم:

- أعرف جيدًا ماذا اخترتُ ولماذا اخترتُ.

اتسعت ابتسامته يقول بمرح:

- عظيم.

قالها ثم اخرج هاتفه الحديث بغتة، مال قليلا نحوها وهو يرفع الهاتف عاليًا، فانتفضت تبتعد وهي تُحذره:

- لا تلتقط صورتي؛ لا أحب التصوير.

قال ببساطة:

- فكري في الأمر؛ بصورة واحدة لن نضطر إلى إخبار فرد فرد بأمر خطبتنا، صورة واحدة ستتكفل بنشر الخبر بين الجميع قبل أن نصل إلى الشركة.

لم يكن فيما قاله أدنى مُبالغة، فـ «أكمَل» النشط اجتماعيًّا ما إن يُدرج على صفحته الشخصية صورة تجمعهما حتى يراها كل من يعرفهما وسلالتهم جميعًا.. رفع يده التي تحوي خاتم الخطبة في شكل قبضة، وبهزة من رأسه حثها على أن تحذو حذوه.

ترددتْ للحظة ثم رفعت قبضتها تُجاور قبضة يده، فقال مُتفكِّهًا:

- ابتسمي قليلًا يا «شفق»، سيظن الناس أنني خطبتكِ غصبًا.

بصعوبة اغتصبت ابتسامة صغيرة التقطها بهاتفه في الحال قبل أن تتلاشى سريعًا.

أدرج الصورة على صفحته ثم قال مُبتهجًا:

- هكذا نكون قد وضعنا الجميع تحت الأمر الواقع، وأولهم أمي وأمكِ. انتهى الأمر.

فتساءلت في نفسها هل انتهى بالفعل؟

مواجهة الدكتورة «ثريا رأفت» حال غضبها ليس سهلًا على الإطلاق، لا لطلابها في جامعة عين شمس كلية الآداب، ولا حتى لابنتيها «شفق» و«دهب». بلغت «شفق» من العمر خمسة وعشرين عامًا وما زالت ترتجف وهي مُقبلة على مواجهة أمها.. وأي مواجهة! هذه المرة ليست كسابقاتها؛ لم تخرج عن أوامر أمها في أي فترة من فترات حياتها كما تفعل الآن.

«ليس لي ابنة مثلكِ بعد الآن».

تردَّد صدى كلمات أمها في رأسها ليُجزم لها أن مهمتها تكاد تكون المستحيل الرابع بعد الغول، وطائر الرخ، والخِل الوفي.

جال كل ذلك في خاطرها في اللحظة التي فتحت فيها باب البيت، اشرأب عنقها؛ تلقي بنظرة فاحصة على الداخل أولًا، قبل أن تلج البيت وتغلق الباب. البيت شديد البرودة، كعهده دائمًا. استقبلها هدوء الظهيرة المعتاد يوم الجمعة، لا بد أن أمها تجلس الآن في الشرفة البحرية، تشرب الشاي الأخضر مع ثلاث قطع من بسكويت الشوفان. لا تُغير الدكتورة «ثريا رأفت» من عاداتها أبدًا.

قبل أن تلج الشرفة خلعت خاتم الخطبة ووضعته في جيب معطفها الأسود، ثم همست لنفسها بسخرية «وكأن عدم رؤيتها للخاتم سيقلل من غضبها!».

التقتْ أنظارهما عبر الشرفة، آثرتْ أن تُبادرها بالحديث لتُخفف من حدة اللقاء:

- أمي، أعلم جيدًا كم أنتِ غاضبة مني؛ لم تردي على اتصالاتي ولا رسائلي طوال الأسبوع.

ساتحدث معكِ الان بتعقل، سنتناقش في كل شيء. اسفة جدا لاضطراري إلى إخبارك بامر الخطبة بهذه الطريقة، ولكن يا أمي...

في هذه الأثناء كانت الدكتورة «ثريا» تنهض من مقعدها وتتوجه صوب «شفق» بهدوء خدعها، حتى إنها قطعت حديثها وابتسمت بود، بأعين دامعة تقول:

- أمي، أوحشتِني جدًّا.. أنا...

لم تُكمل عبارتها إذ وقع كف الدكتورة «ثريا» فوق وجنتها ليقطع على شوقها الطريق، ويخنق كلماتها في صدرها، ارتج جسدها الهزيل على أثرها حتى كادت تصطدم بباب الشرفة.

صفعة بقوة غضبها، وغضب الدكتورة «ثريا» ليس كأي غضب، صفعة تعرفها «شفق»، وتحفظها خلايا وجهها عن ظهر ألم!

دخلت أمها غرفتها وأغلقت الباب بعنف اهتزَّتْ له جدران البيت.

لا فارق بين إحساسها في سن الخامسة أو الخامسة عشرة أو الخامسة والعشرين، ككل مرة تقف أمام بابِ الغرفة المُقفل في وجهها كأنه أحد أبواب الجنة الثمانية، تطرقه حينًا وترجوها كي تفتح أحايين أُخَر.

تهمس، تتوسل، تهتف، وتبكي، تذبح الشوق على عتبتها وتتوسَّل الحب، تُقدم كرامتها وآلامها وعذابها قُربانًا ليتبدد الخصام.

لكن هذه المرة أثارت الصفعة في نفسها عاصفة من الغضب.

شعرتْ بمهانة شديدة لهول الضربة المفاجئة، ولولا أنها تعرف أجر بِر الأم وعقاب عقوقها لغادرتْ البيت في الحال دون أن تنظر خلفها.

الدكتورة «ثريا» امرأة قوية الشكيمة، جامدة المشاعر مثل إنسان آلي، لا تتأثر بضعفها البشري ولا بحاجاتها التي تصرخ بها على عتبها في استجداء:

- أمي، افتحي الباب؛ سنتحدث معًا.

ولمَّا كلَّت نداءاتها وبُحَتْ أصوات توسلاتها، هتفت بغضب وهي تركل الأرض بقدمها:

- كنتِ تقولين إن «أكمَل» شاب كامل تتمناه أي فتاة.. كنتِ تقولين إنه يُشرِّف أي عائلة يختارها.. كنتِ تقولين إنه كنز لا يتركه إلا غبي.. كنتِ تحسدين عليه بنات الناس.. لماذا إذن رفضتِه بشدة عندما اختارني؟ لماذا لا تتشرفين به خاطبًا لابنتكِ؟ لماذا تتركين الكنز من يديك؟ لماذا يا أمي لماذا؟

انفتح الباب بغتة، استبشرتْ «شفق» خيرًا. بادرتها الدكتورة «ثريا» بغضب وهي ترفع سبابتها في وجهها:

- أنتِ المسؤولة أمامي عما فعلته «دهب»، وعما سيحل فوق رأسها.. الخطأ خطؤكِ أنتِ. والآن اخرجي من البيت؛ لا أريد أن أراكِ ولا أن أسمع صوتكِ.

ثم صفعت الباب مرة أخرى. وقفتْ «شفق» في حيرة من أمرها، طرقتْ الباب ثانية، وثالثة، ورابعة، تتساءل بقلق بالغ:

- ماذا فعلَت «دهب»؟ هل أختي بخير؟

ولمّا لم تجد جوابًا تلفتت حولها بتخبّط طير جريح، اخرجت هاتفها من حقيبتها واتصلت باختها، عشر مرات كاد قلبها أن يتوقف خلالهم، وفي كل مرة تسمع رسالة مُسجلة تُفيد بأن هاتفها مغلق.

وقعت أنظارها على «أم ياسين»، المرأة الطيبة التي تنظف البيت وتتولى شؤون مطبخه، كانت تقف عند عمود رخامي بمنتصف حجرة الصالون وتنظر نحوها في أسى.

جرت عليها «شفق» وهي تسألها بلهفة:

- «أم ياسين»، أين «دهب»؟ هل حدث لها شيء؟

وضعتْ المرأة كفها فوق فمها وكأنها بذلك تُخفف من وطأة حديثها الثقيل:

- الباشمهندسة «دهب» بخير، لكنها عملت عملة سوداء.. قامت لها القيامة هنا في البيت.

هوى قلب «شفق» من عَلٍ، تسألها بأنفاس متقطعة:

- ماذا فعلت «دهب»؟

ألقتْ «أم ياسين» نظرة على الباب المغلق لغرفة الدكتورة «ثريا»، تخشاها حتى من خلف الأبواب المغلقة، ثم قالت بصوت أكثر خفوتًا دلالة على هول الحَدَث:

- فعلت كما فعلتِ بالضبط؛ جاءت بخاتم في يدها، ورجل في يدها الأخرى وقالت بفم ملآن هذا الرجل خطيبي!

- ماذا تقولين؟ متى حدث ذلك؟

- منذ أسبوع.. في نفس اليوم الذي سافرتِ فيه إلى «الصين»!

لم تكن المشكلة في الخبر ذاته فحسب، بل في فهم أسبابه، تثق «شفق» أن أحدًا لم يكن في حياة أختها في اللحظة التي ودَّعتها فيها بمطار «القاهرة» منذ أسبوع بالضبط، لم تُلمِّح لها قط أن رجلًا ما سيتقدم لخطبتها، أو أنها راغبة في الزواج بأحد، أو حتى إنها على علاقة بأحدهم، والأعجَب أن «دهب» ليست من الفتيات اللاتي يؤمِنَّ بمؤسسة الزواج!

«مؤسسة الزواج»، هكذا تدعوها دومًا وكأنها عمل تجاري بحت، كم خاضتا معًا نقاشات طويلة تنتهي دومًا بجدال عقيم.

والآن الفتاة التي أقسمتْ ألا تتزوج أبدًا، وضعت خاتم رجل في إصبعها بعد ساعات قليلة من توديعها إياها في المطار! صحيح أن «شفق» فعلتْ الشيء نفسه، لكنها تنظر إلى الحَدَث من زاويتها الخاصة.

خاطبت نفسها «مستحيل، شيء غريب يحدث، لا يمكن أن يكون هذا القرار نابعًا من قلب «دهب»، شيء ما حدث ودفعها لهذا الجنون!».

ثم تساءلت بقلق أكبر «هل غضبت مني لأنني لم أخبرها بموافقتي على «أكمَل»؟ هل فعلت الشيء ذاته لترد لي الألم بمثله؟ لا، مستحيل، لا أظنها بهذا الجنون!».

- انتبهي يا هانم!

صاح بها رجل في السيارة المجاورة لسيارتها، لم تنتبه لمفترق طُرقٍ وكادت أن تصطدم بحافة

سيارته، رفعت كفها في اعتدار مضطرب، إلا ان الرجل انهال عليها بالسب والصياح، اختتمه بقوله:

- الله يخرب بيت من سمح لكُنَّ بالقيادة.

تمالكت نفسها كي لا ترد عليه، وقادت سيارتها سوداء اللون بسرعة أكبر، لتبتعد عنه، وتقترب أكثر من وجهتها الثانية في هذا اليوم العصيب.

الاضطراب في شركة «النمر» للمقاولات على اشده، يستطيع المرء ان يشم رائحة التوتر في الأجواء، حتى إن له لونًا أيضًا، إذ خيَّم على الشركة ضباب غريب وكأنه دخَّان!

هل يمكن لكثافة المشاعر أن تؤثر في حواس الرؤية والشم؟

تفشَّت عدوى التوتر في المكاتب القريبة من مكتب «منصور النمر» صاحب الشركة ورئيس مجلس إدارتها، يستطيعون بكل سهولة سماع الصياح القادم من غرفة الرجل والملحقة بغرفة اجتماعات يجري فيها الآن لقاء بالغ الأهمية مع أعضاء مجلس إدارة الشركة، وعلى رأسهم شريكه «سميع الهلباوي» وابنه «أكمَل».

وفي الطابق ذاته، بمكتب «مرام» المعمارية المتألقة، أحد أمهر تلاميذ المهندس «منصور النمر»، تجمَّعت اثنتان من الموظفات بالشركة، تعملان بجهد ونشاط خدَّامات خلية النحل، فتأتيان لملكتهما بالغذاء الذي تشتهيه روحها؛ جديد الأخبار، خبيث الإشاعات، همسات الأروقة، والأسرار التي يتبادلها أصحابها من أسفل الطاولات، ما يُقال في حقها وما لا يُقال، ما تحيكه الموظفات في الشركة دون علمها، تخبرانها عن الطعنة قبل أن تمس ظهرها، والصفعة قبل أن تقرَب وجهها.

وهي بدورها تُراعيهما في العلاوات، وتزيل ما في ملفاتهما من مخالفات، خلية مُتكاملة يعرف كل فرد دوره فيها. وكان الحديث الدائر في تلك اللحظة عما يدور خلف غرفة الاجتماعات مغلقة الأبواب.

قالت «مروة» سكرتيرة «سميع الهلباوي»:

- يبدو أن غضب المهندس «منصور» لن يهدأ اليوم.

بادرتها «سهر» الموظفة في الحسابات، والتي ترقَّت الشهر الماضي بفضل «مرام»:

- بالطبع لن يهدأ، ألا تدركين حجم الكارثة التي وقعت فيها شركته؟ بعد أن نام موضوع حادثة العمال وكان على وشك أن يتم تقييده كخطأ عمل غير مقصود، ثار الناس الآن بسبب الكلمات البلهاء التي قالها «أكمَل» في المطار اليوم.

عنَّفتها «مرام» وهي تنظر في مرآتها الصغيرة المُذهَّبة؛ تُجدد مظهر شفتيها المنتفختين بطبقة جديدة من الحُمرة:

- لم يخطئ «أكمَل»، وكأن لا أحد يموت في هذا العالم ليقيموا الدنيا من أجل خمسة عُمال! كل يوم يموت الآلاف حول العالم، تقوم حروب وتنتشر الأوبئة، فلماذا التركيز على هذه الحادثة؟! ما حدث قد حدث وانتهى الأمر.. أكره هذا التهويل!

سمعت «مروة» باب المصعد ينفتح فخرجت سريعًا تلقي نظرة على القادم، ثم دخلت وأغلقت الباب بسرعة وهي تقول ساخرة:

- جاءت «الأرملة السوداء»، تتوجه إلى غرفة الاجتماعات مثل عسكري المرور، وكأنها قادرة على حل كل مشكلات الكون!

أضافت «سهر» بوجه ممتعض:

- والله تُصيبني رؤيتها بالاكتئاب، كل شيء فيها أسود! يا حفيظ.

- تتدخل في كل شيء، تظن نفسها حامي الفضيلة، لو نبتَ لها جناحان وطارت مثل الملائكة لن

اتعجب.

- بل مثل الغراب.

وتعالت ضحكات ثلاثتهم.«سهر» و«مروة» لديهما من الخبرة بخبايا المصالح لتعلما أنهما بكل كلمة تذم «شفق» ففي مقابلها تنالان حظوة عند «مرام». لكي تكسَب امرأةً، ذِم غريمتها! أعد من لحمها حفل شواء، وانهشه ميتًا!

فما الغيبة إلا جيفة تتوسَّط أطباقًا مِن الخزَف!

نهضت «مرام» بسرعة وهي تعدل شعرها وتندفع خارج مكتبها قائلة بتلذذ خبيث:

- سأذهب لأعكِّر مزاجها قليلًا.

لحقتْ بها قبل أن تدخل غرفة الاجتماعات ونادتها، التفتت «شفق» صوبها بوجه ممتقع، بها ما بها ولا تتحمل كلمة من أحد. بادرتها «مرام» في تودد مفضوح كذبه:

- شكلكِ متعب كثيرًا، يبدو أن السَفرة لم تكن جيدة لكِ.

قاطعتها «شفق» بإرهاق نفسي وجسدي كبير:

- «مرام»، ليس لدي طاقة للحديث الآن.

- طبعًا، أعرف. المهندس «منصور» غاضب جدًّا، لدينا مشكلة كبيرة بالفعل.

ثم بثَّتْ سمَّها مضيفة:

- وبخاصة بعدما فعلته أختكِ، يا حرام كاد الرجل أن يقع ميتًا لهول الخبر.

امتقع وجه «شفق»، واستدارت لتدخل الغرفة وتقطع عليها تلذذها بإيلامها، لكن «مرام» أضافت بسرعة:

- بصراحة لم أتوقع هذا قط من «دهب»، مؤسف جدًّا.

التفتت لها «شفق» بكامل تركيزها، كان من الممكن أن تدخل الغرفة وينتهي الحوار بانقطاع خيطه، لكنها آثرت أن تقطع الطريق على اللسان الذي يخوض في أختها يُمنة ويُسرة كيفما شاء، صحيح أن «دهب» أخطأتْ، لكنها أختها.. سترها.. ودعامتها.. وأمنها.. وحصنها.. وملاذها.. وحارس سيرتها في حضورها وغيابها.

- أثق في أختي واختياراتها. من فضلكِ يا «مرام»، لا تتدخلي في المسائل العائلية التي لا تخصك.

لو كان للكلمات صوت لسَمع كلتاهما صوت الصفعة وهي تنزل فوق كرامة «مرام» وتُخرِسها!

ولأن «مرام» سيدة رد الصفعة بمثلها، قالت بغيظ:

- لو رأيتِ الرجل الذي اختارته أختكِ لما قلتِ ذلك.

وفجأة وقعتْ أنظارها على الحلقة الذهبية التي تطوق إصبع «شفق»، فرفعت حاجبًا في دهشة وهي تقول ببطء مستفز:

- يبدو أن الخِطبة المفاجئة تقليد عجيب يخص عائلتكم. صدقتِ؛ لا شأن لي بأموركم الـ.. العائلية تلك!

وقبل ان تمنح «شفق» فرصة للرد استدارت عائدة إلى مكتبها. لم تكد «مرام» تغلق الباب وتلتفت إلى «مروة» و«سهر» لتحكي لهما عن خاتم «الأرملة السوداء» حتى رأت كل واحدة منهما تدفن وجهها الذاهِل في شاشة هاتفها، ثم تبادلتا نظرات لها مَغزى أقلقها. تساءلت باندفاع، وقد سقط قلبها خوفًا من فقد وظيفتها التي وصلت إليها بعد عناء:

- ماذا حدث؟ هل سيغلقون الشركة بسبب الحادثة؟!

ولما لم تتلقَّ ردًّا من أي منهما، خطفت هاتف «مروة» من بين أصابعها.. أتى دورها لترنو بذهول إلى الشاشة، بينما صورة ما تأكلها بالكامل، يظهر فيها «أكمَل» بجوار «الأرملة السوداء»، وخاتماهما رسالة قوية لا تحتاج إلى ترجمة أو تعليق!

لم تشعر بنفسها إلا وهي تُلقي بالهاتف في صدر الجدار المقابل بمنتهى العنف، والقهر، والغضب.

الأجواء مشحونة، والأعصاب مُلتهبة، والغضب يتنقَّل مُختالًا بين الكلمات، والنظرات، ولغة الجسد. بعد ساعة من دخول «شفق» غرفة الاجتماعات، خلَت إلا منها وأبيها و«أكمَل» وأبيه، يجلس الشريكان كل منهما على رأس الطاولة البيضاوية، يُحاولان الوصول إلى مخرج من تلك الأزمة.

هتف «منصور النمر» بنبرة غاضبة موجهًا حديثه إلى «شفق»:

- ما زلتُ لا أفهم لماذا سمحتِ له بالكلام مع الناس وفي وجود كاميرات وهواتف؟!

انزعج «أكمَل» بشدة، لم يعتَد معاملته ككَم مُهمَل، أو طفل يحتاج إلى توجيه، لكن نظرة حازمة من أبيه جعلته يلزم الصمت مُجبرًا، أو ربما لإدراكه كم أخطأ بالفعل. أجابت «شفق»:

- حدث ما حدث.. لم نكن مُتأهِّبين للكلام من الأساس.

وكأن ما فعله «أكمَل» اليوم وتناقلته مواقع التواصل الاجتماعي بسرعة البرق لم يكن كافيًا، انفجرت ينابيع الغضب في دماء «منصور النمر» وشريكه «سميع الهلباوي»، إذ ظهر على شاشة التلفاز تقرير أجرَته إحدى القنوات عن الحادثة، كان من الممكن أن يمر بلا زوبعة لولا تسجيلهم لحديث أحد العُمَّال في الموقع وهو يقول بحُرقة:

- ... لم يهتموا بنا، مات زملاؤنا أمام أعيننا بسبب أخطاء البهوات الكبار، يجلسون الآن في مكاتبهم الفخمة في «القاهرة» ويتركون هنا خمس عائلات بدون رجل يأتي لهم باللقمة آخر اليوم.

سأل المُذيع كمن يحمل في يده منفاخ نار ينفخ فيه لتستعر أكثر:

- هل تُحمِّل شركة «النمر للمقاولات» مسؤولية قتل وإصابة زملائك أثناء العمل؟

- نعم يا باشا، هم السبب، الله لا يكسِّبهم لا دنيا ولا آخرة.

ألقى «منصور النمر» جهاز التحكم فوق الطاولة الزجاجية فأصدرتْ دويًا مُفزعًا، قبل أن يشير إلى الصورة التي أوقفها لوجه العامل صائحًا حتى برزت عروق رقبته:

- من هدا الرجل؟ وكيف سمحنا له بالتحدث بهدا الشكل؟

شارَكه «سميع الهلباوي» غضبته:

- قلت لك يا «منصور» يجب أن نضربهم بيد من حديد، قلت لي ننتظر التحقيقات الداخلية، لو انتظرنا أكثر سيحاكمنا الناس دون دليل، سيحاكموننا وسيصدر الكبار الحكم ويتخذون منا كبش فداء، أنا لن أكون كبش فداء لأحد.

سأله «منصور» والألم تتصاعد وتيرته في رأسه:

- وماذا تقترح إذن؟

حسم «سميع» الأمر قائلًا:

- يجب إسكاتهم حتى انتهاء التحقيق وغلق ملف القضية.

- بالمال؟

- المال هو آخر الحلول، هؤلاء يمكن إسكاتهم بطرق أقل تكلفة.

سأل «منصور» وهو العارف بجواب شريكه:

- مثل ماذا؟

أجاب «سميع» بحزم وهو يخرج سلاحه المُرخَّص من حقيبته ويضعه فوق الطاولة بدوي ماثَلَ دوي جهاز التحكم:

- مثل هذه.

احتل الذعر مكانه بقلب «شفق» وهي ترقب السلاح الناري قائلة:

- ما هذا؟! أتمزحون؟ لن تصل الأمور إلى هذه الدرجة بالتأكيد. القتل؟! من نحنُ لنستخدم هذه الطرق البغيضة؟ مافيا؟!

قال «سميع» ببرود:

- هل قلتُ قتلًا؟ قصدتُ أن نخيفهم قليلًا.. هذا العامل الأرعَن الذي تحدث أمام الجميع على التلفاز يزن صفرًا في عُرف الأوزان والقياسات، ليس له ظهر يحميه، ويبدو أنه نسي ذلك، نحن سنُذكره بذلك ليس أكثر.

التفتتْ «شفق» صوب «أكمَل» تحثه على الحديث:

- «أكمَل»، هل توافق على كلام أبيك؟

تنهد قائلًا بضيق:

- لا بالطبع، بدلًا من مشكلة واحدة سنُدخِل أنفسنا في ألف مشكلة.. رأيي أن نحاول إسكاتهم بالحُسنى. كلهم يعملون عندنا، أي سهل أن نهددهم بقطع لقمة عيشهم.

قالت «شفق» بحدة:

- هؤلاء فقدوا زملاءهم وأصدقاءهم أمام أعينهم، لماذا نزعجهم بهذه الطرق؟ لماذا لا نحاول امتصاص غضبهم بدلًا من إخافتهم؟

سالها ابوها:

- كيف؟

قالت بحماس:

- بصرف تعويضات لهم.

احتج «سميع» بإصرار:

- كلا، على جثتي، صرف التعويضات معناه تبني التهمة، وأنا لم أضع اسمي جنبًا إلى جنب مع اسم «النمر» ليتلطخ بهذه الوصمة.

«منصور» الذي اعتاد في دنيا الأعمال أن يسمع حديث الجميع ونقاشاتهم قبل أن يقول رأيه الأخير، قد أصدر قراره بالفعل:

- «شفق»، ستذهبين إلى هناك، أنتِ مسؤولة عن إسكات هؤلاء العمال حتى تنتهي التحقيقات ويتم غلق ملف القضية. لو تحدث عامل منهم إلى الصحافة أو الإعلام بأي شكل كان، فأنتِ المسؤولة أمامي.

احتجَّتْ بشدة:

- وما شأني بذلك يا أبي؟ لا أريد الذهاب إلى هذا المكان، ولا التحدث إلى هؤلاء الناس، ليست لدي الطاقة لتحمل أوجاعهم.

ضرب «منصور» كفَّيه فوق الطاولة هاتفًا:

- أنا لا أطلب منكِ، بل آمركِ. إن لم تنجحي في إسكات هؤلاء العمال من سينجح إذن؟ أنتِ محامية الشركة والمسؤولة عن القضية التي بيننا وبينهم.

أجابت بحزم:

- ولهذا تحديدًا لا أصلح لهذا الدور، نحن نقاضيهم بتهمة الإهمال والسرقة ونلقي بمسؤولية الحادثة كلها على عاتقهم. كيف أكون في طرف الخصم وفي الوقت ذاته أكون في طرفهم لأستطيع تهدئتهم؟!

- لا شأن لي كيف ستفعلين ذلك، هذا قرار نهائي.

تعلم جيدًا معنى «قرار نهائي» عندما تصدر من فم أبيها!

لذلك لم تحاول الاعتراض ثانية. تناول «أكمَل» منها خيط الاعتراض وأخذ يغزل منه حججًا مطولة عندما قال «سميع» لابنه:

- وأنتَ أيضًا يا «أكمَل»، ستذهب إلى هناك.

- أبي، ماذا تقول؟ أنا مهندس معماري مسؤول عن تخطيط المشروع لا تنفيذه، لستُ مهندس تنفيذ لتطلب مني السفر إلى الموقع! أرسِل غيري.

- وما دمتَ لستَ مهندس تنفيذ، لماذا حشرتَ أنفك أمام الكاميرات وتحدثت ببلاهة عن تايتانيك وضحاياها؟! بعد أن كاد الموضوع أن يمر بدون خسائر حرَّكت كلماتك الغبية المياه الراكدة من جديد.

- ابي، لا اريد ان ادهب. هل ترسلني بعد ان كادت السفينة ان تغرق؟! مادا إن اتهموني بشيء؟!

- ومن يجرؤ على اتهامك بشيء؟ أنت ستذهب إلى الموقع بعد الحادثة لا قبلها، أوقِف حججك هذه.

وكي يثبت سيطرته على ابنه كما فعل «منصور» منذ لحظات، قال بحزم:

- ستسافر مع «شفق» اليوم، لا رجعة في هذا القرار.

ساد صمتٌ طويل لا يقطعه سوى صوت الساعة الجدارية، قطع سيف الوقت دابر انتظارهم، لن يُغير أي من الشريكين ما أصدراه من قرارات.

بثقلٍ نهض «سميع» وابنه، وتوجها صوب الباب، لكنه في اللحظة الأخيرة بات وكأنه تذكّر شيئًا فعاد دانيًا من مقعد «شفق» وقال لها:

- نسيتُ تهنئتك على الخطبة، مُبارك يا بنتي الجميلة.

وقفتْ «شفق» تستقبل تهنئة الرجل، مد لها يده مصافحًا، فتجمدتْ في وقفتها، انتظر ثانيتين ثم قال بانزعاج لم يخفِه:

- أصبحتُ الآن في مقام أبيكِ.

قالت بجدية لكن بحذر:

- صحيح ستكون في مقام أبي، لكن بعد زواجي بـ«أكمَل»، الآن هو خطيبي فحسب.

أنزل الرجل يده، هز رأسه في تفهم كاذب، ثم غادر برفقة ابنه.

ما إن أغلق الباب وسارا في الممر حتى أفصح عما واراه من ضيق:

- لـ «منصور» بنت معقدة وأخرى مثل الورد، لا أفهم لماذا اخترتَ المعقدة؟!

أجابه «أكمَل» بضيق مماثل، لكن لسبب مختلف، إذ عكَّرتْ هذه السَفرة مزاجه:

- لن أسألكَ يا أبي من أتزوج ومن لا أتزوج، سأذهب الآن لأعد حقيبة السفر.

وفي غرفة الاجتماعات خفف «منصور» من ربطة عنقه، وحلَّ أول أزرار قميصه، بادر «شفق» دون أن ينهضا من حول الطاولة:

- هل مررتِ على البيت.

كفتهُ قسمات وجهها ليدرك أنها خاضت مواجهة عاصفة مع الدكتورة «ثريا». قال:

- هذه المرأة ستصيبني بالجنون يومًا ما، هل يُرفَض شاب مثل «أكمَل»؟!

- هل ستعود إلى البيت الآن؟

- أي بيت؟! أنا أقيم في فندق منذ أسبوع؛ لا أتحمل مواجهتها وتكرار نفس الشجار كل يوم.

أدركَتْ الآن لماذا استقبلتها البرودة عندما دخلت البيت، لا شيء في هذا البيت يحمل حرارة أنفاس العائلة، ولا جلساتهم الحميمية ليلًا، لا حديث، ولا قلوب تبثُّ نجواها إلى أخرى، هذا البيت لا تدخله الشمس أبدًا!

قالت برجاء محاولة إثناء أبيها عن قرار تعلم ألا رجعة فيه، لكنه الأمل:

- لا اريد ان ادهب إلى هناك.

زفر بضيق وهو يهتف:

- انتهى هذا الأمر.

- بابا أرجوك.

- قلت انتهى.

حلَّ صمت ثقيل للحظات، ثم هدأت نبرته بعض الشيء وهو يقول:

- هذا ليس السبب الوحيد لرغبتي في سفرك، هناك سبب آخر؛ أختكِ، أظن أنها أخبرتكِ بالمصيبة التي فتحتها فوق رؤوسنا.

- لم تخبرني بشيء، لم أتحدث معها طوال الأسبوع، لكن عرفتُ من «أم ياسين».

- أختك تتصرف بطيش. إن لم تذهبي وتعيديها إلى رشدها سأذهب بنفسي، ولن أكون صبورًا معها أبدًا.

ألا تعرف «شفق» ذلك؟! يستطيع «منصور النمر» أن يصبر على شركاته الصغيرة حتى تكبر، ومهندسيه حتى يكتسبوا مهارات السوق، ومشاريعه حتى تنجح، وأرصدته حتى تتضاعف، لكنه لا يصبر على بيته حتى يهنأ.

يستطيع أن يتبنَّى مُهندسين حديثي التخرج، ويكون لهم أبًا روحيًّا حتى يصل بهم إلى الاحترافية، لكنه لم يتحمل طفلته الصغيرة حين بكت ألمًا، أو جوعًا، أو همًّا! ولا الأخرى حين تعثَّرت في خطواتها الأولى.

أمسك بزمام شركة ضخمة، لكنه أفلت يد ابنتيه أثناء عبور الطريق، وأفلت قلبيهما في المراهقة، وأفلت ثقتهما في البلوغ..

فصارتْ «دهب» أنثى متمردة، وأضحت «شفق» رجلًا في قالب أنثوي.

قالت تطمئنه، وما يزال الخوف يساورها:

- أظن أن «دهب» ما دامت اختارته إذن فهي تعرفه جيدًا و...

عادت شياطين الغضب تتراقص في أوردته، هتف:

- هل رأيتِ هذا الرجل؟ أقول لكِ مصيبة، كارثة حلَّت فوق رؤوسنا.

ازدادت خوفًا على خوف، هل الرجل سيئ لهذه الدرجة؟! كيف اختارته «دهب» إذن.. هل فقدت عقلها؟!

مال «منصور» نحوها وهو يقول بطريقته النافذة:

- ستذهبين إلى هناك في مهمتين؛ الأولى: ستمنعين العمال من التحدث إلى الإعلام وتخمدين ثورتهم بأي ثمن.

ثم أردف بنبرات قوية:

- والثانية: ستفرقين بين أختكِ وهذا الرجل.

نظرت إليه بعدم فهم، فاردف بحدة:

- هل سمعتِ؟ ستفرقين بينهما، ستعيدينها إلى «القاهرة» وأصابعها العشرة خالية تمامًا، وإلا سأذهب بنفسي وأهدم الدنيا فوق رأسيهما.

لم يبقَ سوى شعرة بسيطة تربط أفراد هذه الأسرة ببعضهم، لو ذهب أبوها لقطعها، وقتها لن تعود «دهب» إلى البيت مرة أخرى، لن تتحمل تدخل أبيها في أمورها الخاصة بعدما نزع عن نفسه هذه الأحقية طوال حياتها.

- عديني أنكِ ستفعلين.

أوقفتْ للحظات سيل أفكارها التي لا تهدأ، ومخاوفها التي لا تسكن، وقالت بجدية بالغة:

- لو كان الأمر كارثة كما تقول...

قاطعها:

- كارثة بالفعل.

ازدردتْ ريقها، ثم قالت بتصميم، تستمد عزمها من القلب الذي يرتجف خوفًا إن مسَّ أختها أدنى أذى:

- إذن سأفرِّق بينهما، سأعود بـ«دهب» وقد تركت هذا الرجل خلفها.

- تعدينني بذلك؟

- أعدك يا أبي.

عندما عادت إلى البيت لتُجهِّز حقيبة السفر كان خاليًا من أمها، فكَّرت بمرارة أنها في هذا الوقت لا بد وأنها في نادي النقابة؛ تلقي إحدى مُحاضراتها الثرية، عن دور المرأة في المجتمع، وكيف بإمكانها أن تبني مهنتها خارج البيت، وفي الوقت ذاته تُحافظ على دورها المقدس كأم وزوجة داخله!

حمَّلتْ حقيبتها بكل ما هو أسود! لكن «أم ياسين» دخلت غرفتها وقالت بإشفاق:

- اذهبي أنتِ للاستحمام واتركي لي إعداد حقيبتك.

هل يمكن تعبئة الحب في حقيبة؟

كانت «أم ياسين» تفعل ذلك، تمسح فوق ملابسها قبل وبعد أن تطويهم بعناية وتضعهم بحبٍّ. تُرى كم من الدفء تمنحه بلمساتها وأنفاسها لأولادها وأحفادها إذن؟

أوقفت «شفق» سيل أفكارها، أخذت الحقيبة وتوجهت صوب الباب، لكنها في اللحظة الأخيرة عادت إلى غرفتها مرة أخرى، أخرجت مفاتيحها وفتحت درجًا صغيرًا في دولابها، ومنه أخرجت علبة مُذهَّبة صغيرة مُعدَّة لحفظ المجوهرات، فتحتها برقم سري. احتضن طبقتها المخملية الحمراء شيء آخر غير الذهب والماس والفضة.. احتضن شعرة ذهبية طويلة!

ألقت عليها «شفق» نظرة ذات شجون، ثم أغلقت العلبة ودسَّتها في حقيبة السفر!

آثرتْ أن تسافر بسيارتها، وحينما طلب منها «أكمَل» مرافقته في سيارته قالت:

- أنا أحتاج إلى سيارتي بالفعل، فلماذا أتركها هنا؟!

- يحضرها أحد سائقي الشركة.

- لا داعي، سأسافر بها بنفسي.

في الواقع كانت بحاجة ماسة إلى الانفراد بأفكارها، وتفنيد ما عاشته من أحداث متلاحقة في يومها العصيب هذا.

وكذلك «أكمَل»، كان يمر بلحظات عكَّرت مزاجه، وستمنعه من أن يكون رفيقًا جيدًا على الطريق.

قادت سيارتها بذهن شارد لتنفيذ مهمتين بالغتي الصعوبة.

إلى العريش، أول ما وطأه المسلمون بقيادة «عمرو بن العاص»، حيث تلتقي الصخور بالشعب المرجانية، وقطع الجرانيت بالشطآن الذهبية.

إلى شبه جزيرة سيناء التي تقع في أحضان البحر الأحمر ويمتد تاريخها إلى سبع آلاف سنة ويزيد، حيث بحثتْ «إيزيس» عن حبيبها «أوزوريس»!

فتنتها مناظر الجبال، وكثبان الرمال، والواحات، والطيور المُحلِّقة على مقربة، تستشعر سحر الأرض التي تُسرع بسيارتها فوقها، سيناء الجسر الذي عبرت عليه الحضارات بين آسيا وإفريقيا، بآثارها الفرعونية ثم الفارسية ثم اليونانية والرومانية ثم الإسلامية.

استرجعتْ «شفق» بذاكرتها دروس التاريخ في المدرسة عندما أخبرتها المعلمة «آمال» عن أهم معارك التاريخ التي وقعت على أرض سيناء وبقُربها؛ مجدو وقادش وحطين وعين جالوت ومرج دابق وعبور خط بارليف.

أخبرتها أيضًا أن «سيناء» في اللغة تعني «الحجَر»، وأنها سُميتْ بذلك لكثرة جبالها، وقيل أيضًا إن اسمها مأخوذ من «سين» بمعنى «القمر» في اللغة العبرانية، لأن أهلها كانوا يعبدون القمر قبل الإسلام.

وأنها في اللغة المصرية القديمة عُرفتْ باسم «تو شويب»، أي أرض الجدب والعراء. لها نقش خاص بعضه يشبه العلامات الهيروغليفية، أطلق الباحثون عليها اسم الأبجدية السينائية.

فوق هذه الأرض دارت حروب وانتصارات، فهل سيكون الحظ حليفها وتخرج من سيناء مُنتصرة، وقد نجحت في تحقيق المهمتين الملقاتين على عاتقها؟

استرعى انتباهها أُفُول الشمس وراء الأفق، تاركة خلفها لونًا أحمر وسمتْ به السماءَ قبل رحيلها، آثار حمراء من الشَفَق!

أصابتها الرهبة، ككل مرة ترى فيها اسمها مُتجسِّدًا ومُعلَّقًا بين أحضان السماء!

لكن هذه المرة تضاعفت رهبتها، إذ كان الشفق شديد الاحمرار كأنه خط من الدماء تركته

الشمس النازفة! ترى هل تنزف الشمس؟!

عادت بأفكارها إلى أرض الواقع، فبعد قليل سيهجم الليل بوحشته وظلامه.. كم تكره الظلام!

حاولت الإسراع بسيارتها أكثر، إلا أن الطريق حدد من سرعتها.

أوقفتْ سيارتها على جانب الطريق، وأدَّتْ صلاة المغرب جالسة في مقعدها داخل السيارة، مُستعينة ببرنامج على هاتفها يُحدد لها اتجاه القِبلة.

لو رآها مَن يعرفها الآن لتعجب كيف يَخرج من صلبِ أبوين لا يَقرَبان الصلاة، فتاةٌ تحرص على أداء فروضها في قلب الصحراء؟ حتى إنها لشدة تعلُقها بالصلاة وأدائها على وقتها، نسيتْ أن لها رخصة جمع المغرب مع العشاء وقت السفر.

بعد قليل ساد الظلام ربوع السماء، حلَّ ما كانت تخشاه، عندئذ ندمت لرفضها عرض «أكمَل» في أن تشاركه سيارته في السفر.

بغتة رأت سيارة مُسرعة قادمة من الاتجاه المقابل، عند منحنى خطر، يبدو أن سائقها فقد التحكم في مقودها لوهلة، كانت كافية لأن يرتطم بمقدمة سيارتها بعنف أفقدها اتزانها.

دارت سيارتها حول نفسها مرة ونصف قبل أن تنغرس في الرمال على جانب الطريق، وتدور ثم تصطدم بحجرٍ كبير أوقف موتورها تمامًا عن الحركة.

احتاجتْ إلى بضع ثوانٍ لالتقاط أنفاسها، ودون وعي امتدتْ يدها إلى حقيبتها، أخرجت علبة رذاذ الفم وبخَّت منه مرة واحدة، ذكَّرت نفسها «شهيق زفير.. شهيق زفير».

ثم حذَّرت نفسها «هذا ليس وقت الإصابة بنوبة ذعر يا «شفق»، أرجوكِ ليس الآن، تمالكي نفسكِ، هيا هيا».

ترجَّلَتْ من السيارة بحذر، ولم تكد تصل إلى مقدمتها المفتوحة حتى أقبل عليها الرجل الذي تسبب في هذا الحادث، لو رأى الرجل الذي سبها ظهر اليوم هذا الحادث لما جرؤ على التحدث مرة أخرى عن قيادة النساء، لم تتمالك نفسها، اندفعت مغاضبة:

- ألم ترني وأنا قادمة على طريق ذي اتجاهين؟ لماذا لم تلتزم بجانبك من الطريق؟ طبعًا كنتَ تتحدث إلى الهاتف أو تسمع أغاني هابطة أو لعلك تتعاطى شيئًا أفقدكَ التركيز!

ما إن نطقت بكلماتها حتى ندمت عليها في الحال، إذ اقترب الرجل أكثر وباتت تستطيع معاينته بوضوح على أضواء سيارتها الأمامية، الرجل باختصار قاطع طريق!

لا يمكن أن يكون غير قاطع طريق، مجرم عصابات، عضو في شبكة تهريب، أي شيء غير أن يكون إنسانًا تستطيع التفاهم معه بلغة مشتركة.. لم تحكم بذلك من خلال ملابسه البسيطة فحسب، فكم من ملابس بسيطة تواري خلفها دُررًا من القلوب الصافية، والأنفس السخية، لكن هذا الرجل به غِلظة وفظاظة لا تُخطئها الأعين الخبيرة بلغة الجسد، وتملك «شفق» إحدى تلك الأعين البارعة في التقاط الشاردة والواردة.

أما ملامحه فبها دمامة ملحوظة، مع آثار جُرح بشع بطول وجنته اليُمنى مُنتهيًا عند شفته العُليا، التأم الجرح وترك خلفه دليلًا أبديًّا يُشير إليه؛ هذا الرجل يملك كل المقومات التي تجعل فتيل نوبة ذعر أخرى يشتعل الآن بشراسة.

وعندما تحدث خرج صوته بغلظة قسماته:

- رأيتكِ!

قالت في نفسها «هل هذا فحسب؟! «رأيتكِ!»، ما دمت رأيتني لماذا صدمتني إذن؟! يا لك من أهوَج!».

خشيتْ أن تُصرِّح له بأفكارها فيكون حدسها صائبًا بشأن تعاطيه ما أفقده الإدراك، وبذلك تكون كمن ضايق ضبعًا بوضع إصبعه في عينه!

وتعلم جيدًا أنه لا يجب مضايقة الضباع بفقء أعينها بأصابع الحقيقة!

ميَّزتْ من هيئته ولهجته في نطق الكلمة أنه ربما يكون أحد البدو الذين يعيشون في صحراء سيناء.

تزايد خوفها عندما دنا من مقدمة سيارتها ورفع غطاءها دون استئذانها، دقيقة.. اثنتان.. ثم طلب منها أن تُحاول تشغيل المحرك، وافق طلبه رغبتها في أن تلتجئ بالسيارة وتحتمي بهيكلها المعدني.

أطلقتْ تذمرًا بصوت خافت، ثم قالت ما بدا واضحًا للعيان:

- الموتور لا يعمل.

لم ترَ الرجل، إذ توارى تمامًا خلف الغطاء، ودون تفكير تأكَّدت من إحكام غلق النوافذ الزجاجية، والأبواب الأربعة.

هل هي غريزة البقاء التي جعلتها تغلق بإحكام الأبواب قبل عدة ثوانٍ فحسب من ظهور ثلاثة كلاب شرسة تعدو اتجاه السيارة بإصرار من عثر أخيرًا على وجبة عشاء؟ ثلاثة كلاب مسعورة تطلق نباحًا رددتْ الجبال أصداءه، فاجتمع الظلام مع الكلاب ليشكل أسوأ لوحة في كوابيسها.

ارتعدت أطرافها وهي ترى الرجل البدوي الذي لن يسعفه الوقت للوصول إلى سيارته يعدو اتجاه الباب المجاور لها، يحاول فتحه، ثم تصدمه حقيقة أن الباب مغلق تمامًا، ينظر إليها عبر الزجاج الذي يفصل بينهما، تتلاقى أعينهما لثوانٍ..

الكلاب تعدو، وتخرج لسانها لهثًا، والرجل يتمسَّك ببابها كي تفتح له الطريق الوحيد للنجاة..

لكن المشكلة أنها ليست واثقة إن كان بالخارج ثلاثة كلاب مسعورة.. أم أربعة!

---

(٢)

ولَكَم كانت سماء سيناء تُظلل تحتها مِن أناسٍ شتى، كلٌّ في هَم إشباع احتياجاته، أوَلَيست جوارحنا في هذه الدنيا خُدَّامًا أوفياء، يسعون لإشباع رغبات العقل والقلب والجسد؟ ويا ويلنا حين تتعارض مصالح ثلاثتهم!

تحت السماء ذاتها وعلى بعد أميال إلى الجنوب، في منطقة «جبل الطور»، ذلك الجبل الذي ذكره الله -عز وجل- في القرآن اثنتي عشرة مرة، عشر مرات باسمه ومرتان باسم «الجبل»، أقسم الله به، وسُمِّيتْ باسمه سورة في القرآن، وفوقه تجلَّى قبس من نور الله -عز وجل- فجعله دَكًا.

في تلك المنطقة وفي وقت يدنو من العشاء، كان أفراد قبيلة «السوارفة» يقيمون احتفالًا عظيمًا لطهور ثلاثة من صبيانهم على السُنَّة، وقد فاق الحفل ما يقيمونه من احتفالات بميلاد أو زواج. في حلقات منتصفها تتقد نارًا للتدفئة من جهة، ولإنضاج القهوة من جهة أخرى، التفَّ كُبراء العشائر وصغارها، وُجهاؤها وبُسطاؤها، من يقيمون في بيوت من طوب أو خيام من الشَعر، كُل في أزهى ملابسه.

نحَرَتْ كل أسرة من أسر الصبيان الثلاثة بقرة، واجتهد رجال قبيلة «السوارفة» في سلخها وتقطيعها، وعمل نساؤهم على طهيها، يصنعن «الفراشيح» التي يحبها الصغير والكبير؛ نوع من الخبز يفرشونه في قاع الإناء وفوقه الرز الأبيض ثم قطع اللحم.

الأجواء العامرة بالضحك وأطايب الحديث بدا وكأن الطبيعة من حولهم تُشاركهم فيها، حتى النجوم في عليائها باتت شديدة اللمعان، بعضها يضيء ويخبت وكأنها تؤدي رقصة خاصة بها.

وعند حدود القبيلة الغربية كان ثمة شيء غير عادي يجري تحت جنح الظلام، رجل ما يتوارَى خلف إحدى النخلات، يراقب آخر يسحب اثنين من الإبل خلفه بينما يعتلي هو ثالثًا، ويقودهم جميعًا خارج حدود القبيلة، يتلفَّت حوله بين فينة وأخرى.

وما إن تجاوز حدود القبيلة خارجًا منها، حتى هبَّ الرجل المتخفي من وراء النخلة، وطفق يعدو بأقصى سرعته نحو الأصوات القادمة من الحفل، قابل أحد الرجال فسأله بلهفة:

- أين «بحر»؟

لفَّ الآخر برأسه يُمنة ويسرة؛ يبحث عن «بحر» ابن شيخ قبيلة «السوارفة»، لكن الرجل اللاهث لم يطق الانتظار، جرى ليبحث عنه بنفسه، يصدم هذا، ويطيح بذاك، حتى رآه أخيرًا بثوبٍ رمادي داكن، و«سدرية» من اللون ذاته بلا أزرار ولا أكمام، يدنو من جبين الثلاثة صبية ويقبلهم واحدًا تلو الآخر، ثم يخرج ثلاث قطع نقدية من الذهب الخالص ويضع واحدة في طيَّات ملابس كل طفل، شيَّعهم ببسمات رائقة، ثم التفت إلى شباب قبيلته يشاركهم المزاح وشرب القهوة. أقبل عليه الرجل بلهفة وبادره:

- «بحر»، أريدك.

هز الشاب المليح رأسه بتفهم، وأشار إليه صوب خيمة من الشَعر، دلفا إليها وتبعه الرجل اللاهث وهو يتلهَّف للإفصاح عما شاهدَهُ:

- لقد رأيته يا «بحر»، هذه المرة أنا متأكد.

وضع «بحر» كفه فوق كتفه قائلًا:

- اهدا يا «عبدون»، التقط انفاسك اولا.

ازدرد «عبدون» ريقه وهو يقول:

- لا وقت، سيهرب، لا بد أن نلحق به.

عقد «بحر» حاجبيه قائلًا:

- ومن يكون؟

- كما قلت لك سابقًا يا «بحر»؛ إنه «جبار» ابن شيخ قبيلة «السخاوية».

«بحر» الذي يدرك جيدًا معنى اتهام أحد أشراف قبيلة «السخاوية» بالسرقة أراد التأكد بشكل لا يدع مجالًا للظنون:

- رأيته بنفسك يا «عبدون»؟ «جبار» بشحمه ولحمه؟ لم تُخطئ فيما رأيت، أليس كذلك؟

بحث «عبدون» حوله على الأرض كالملهوف، لم يجد ما يبحث عنه فخرج من الخيمة للحظات، ثم عاد إليها وهو يُطبِق بأصابعه على عود يابس، ويقسم بقسم البدو:

- وحياة هذا العود، والرب المعبود، ومَن أخضَره، ومَن أيبَسه رأيتُ «جبارًا» بن «السخاوية» يسرق ناقتين من أرضنا ويسوقهم خارج حدود القبيلة.

تجعَّدت قسمات «بحر»، غرق في دوّامات التفكير وهو يحك ذقنه النابت بأظافره المُقلَّمة، بادره «عبدون» بحماس:

- هيا، فلنُمسك به قبل أن يهرب.

ثم أضاف وهو يضرب قبضته بباطن كفه:

- وعندها سأعدمه العافية من الضرب.

لكن «بحرًا» لم يرد أن يكون ممن يطيش بهم الفكر تحت حمأة الغضب، فكَّر قليلًا ثم قال بدهاء:

- لن نُمسك به هنا.

ارتفع حاجبا «عبدون» دهشة، ثم قال غير مصدق:

- تلك المرة الثالثة التي يسرق فيها من أرضنا، هل سنسمح له أن يفلتَ دون عقاب؟

أراح «بحر» كفه فوق كتف «عبدون»، تباسط معه مُقدرًا حميته وغيرته على ممتلكات القبيلة، وفي الوقت نفسه لا يغفل أن الحكمة من سيماء المؤمن:

- بالطبع سينال عقابه، لكن ليس الآن.

لم يقنع «عبدون»، وقد كان يُمنِّي نفسه بلكمة يكيلها إلى وجه هذا الـ «جبار». فقال متبرمًا:

- متى إذن؟

أجابه «بحر» وهو يُعدِّل من «غترة» رأسه ويستعد لمغادرة الخيمة ليعود إلى الحفل وكأن أكتافه خالية من الهموم:

- غدًا سأتوجه إلى قبيلة «السخاوية» في عقر دارهم، لن يفلت هذا السارق دون فضيحة وسط أهله وعشيرته، سينال عقابًا رادعًا على كل ناقة سرقها من «السوارفة» حتى يكون عبرة لغيره.

جهِّز نفسك يا «عبدون»، سترافقني صباح الغد.

يعلم «عبدون» أن رفيق صباه قوي في الحق، عنيد في نصرته، لكنه لم يظن أنه سيختار الطريق الأصعب.

يذهب إلى «السخاوية» فوق أرضهم، وفي عقر دارهم ويتهم ابن شيخهم بالسرقة! غدًا سيكون يومًا عصيبًا على الجميع!

---

(٣)

ليلة «شفق» يبدو أنها ستكون عصيبة أيضًا!

تأرجح عقلها بين خوفها من الرجل الذي يشبه قطَّاع الطرق ورغبتها في مساعدته، وحين يتعارك الواجب والمفروض مع أبالسة الخوف، تنتصر الأبالسة وتتولّى مقاليد العقل، تُسيِّره كيفما شاءت، مهما بعُدتْ وجهتها عن الواجب والمفروض.

يظن المرء أنه سيحذو حذو الشجعان، ويتخلَّق بأخلاق الفرسان إذا ما حدث هذا أو ذاك، لكن عندما يُعاين الخطر عن قُربٍ يطيش العقل، وتتشتتْ مزاعِم الفؤاد!

لم تفتح الباب، بل لم تتحرك أصابعها قيد أنملة لتفتحه، وبعد لحظات قفزت الكلاب الثلاثة فوق الرجل البدوي وأطاحوا به أرضًا.

أطلقتْ «شفق» صيحة فزع عالية، شاركها فيها نباح الكلاب التي تحاول الفتك بالرجل، من رحمة الله بها أنها لم ترَ الصراع رأي العين وإلا لانتفض قلبها المتهالك انتفاضة مُودِّع.

السيارة ترتَج على إثر صراع الكلاب على جسد الرجل، صراخها لم يتوقف، وبكاؤها تعالى وتضخَّم، وعقلها جُنَّ وتأخَّر، عن محاولة التقاط هاتفها لطلب النجدة!

وبغتة رأت كفًّا دامية مبسوطة تضرب النافذة، ثم شيئًا فشيئًا يتبدَّى رأس الرجل، ثم كتفاه، ثم جذعه العريض.. الرجل على قيد الحياة، لم يمت!

طاح الرجل في الكلاب ضربًا بحجر يقبض عليه، وركلًا بقدميه، حتى فرَّ كلبان وجلين. تتذكر «شفق» جيدًا أنها رأت ثلاثة كلاب تهاجم الرجل، فأين ثالثهما؟!

رأت الجواب بأم عينيها المتسعتين فزعًا، الرجل يجر كلبًا يحتضر، وفي رقبته جرحٍ دامٍ، يبعده عن سيارتها، ثم يقف مستقيم القامة يتفقَّد ملابسه التي تمزَّقتْ في أكثر من موضع، وتلطَّختْ بدماء يده النازفة.

في تلك اللحظة رفع رأسه لتصطدم عيناها الفزعتان بعينيه الغاضبتين!

ثم توجه بخطى حثيثة نحو سيارته المتوقفة على الطريق الأسفلتي.

التقطتْ «شفق» أنفاسها بصعوبة، رفعتْ كفها تتحسَّس جبينها، الحرارة التي تجاهلتها منذ أن كانت في مطار «الصين» تغزوها الآن بضراوة!

وفيما كانت تُحاول البحث عن هاتفها داخل حقيبتها لطلب المساعدة من «أكمَل» الذي لا بد وأنه يبعد عنها بفارق زمني قليل؛ حدث ما لم يكن في حُسبانها.

عاد الرجل البدوي!

يقود سيارته المتهالكة ويوقفها أمام سيارتها، يُخرج حبلًا سميكًا بخطاف حديدي، ثم يتوجه نحو مقدمة سيارتها، ترمقه بفزع وتصيح:

- توقف عندك. ماذا تفعل؟ توقف.

لم يتوقف الرجل وكأنه لم يسمع صراخها وتوسلاتها، تأكَّد من إحكام الحبل الذي يربط السيارتين ببعضهما، ثم قاد سيارته ببطء، يسحب سيارتها خلفه حتى أخرجها من الرمال، ويُكمل الرحلة عبر الطريق الأسفلتي تحت جنح الظلام!

ضاق صدرها، وتحشرجت انفاسها، واستطار عقلها. امتدت يدها إلى حقيبتها لتخرج علبة رداد الفم، وضعتها في فمها وانتظرت، لم يخرج شيء عبر فتحاتها، فرغتْ تمامًا!

صدرها يضيق ويسحق أنفاسها، قلبها يُجاهد للعمل بكفاءة تُبقيها على قيد الحياة. فتحت نافذة السيارة، حلّت عُقدة حجابها، وأخرجت رأسها تُعبئ الهواء في صدرها.

غشَتْ عبرات ساخنة مُقلتيها، وسالت فوق وجنتيها، وعندما رانَتْ بأنظارها إلى السماء، رأت النجمات متشابكة، كتلة واحدة، تفتح أمامها بوابة مضيئة تجتذبها نحوها.

ذهبت لتواجه مهمتين، فأضحتْ بين خطرين؛ الموت بهبوط حاد في دورتها الدموية، وقاطع طريق غاضب يسوقها بإصرارٍ نحو المجهول.

شقَّتْ الصحراء لتكون المُنقِذ.. فأمسَتْ الضحية!

هل أحببتم ليلتي الأولى؟
يا لطرب قلبي
وهناء وجداني
لو أمكَن لشهرزاد أن تراني!
لربما.. أقول لربما..
ندمَت على وضعي في ظلها.. كحاشية ركابها!
ها هي ليلة أخرى تتلألأ فيها النجمات
تُلملم حولها فستان السماء الأسود
ينحسر عند وجوهها بالكاد
أمسكتُ بالنجمة ثانية
وحيدة مثلي
تُشاركني حِسِّي
ومشتاقة للبوح
وما أصعب الشوق للبوح!
تضيق مستودعات الأسرار بأحمالها

عند مطلع كل ليلة
ويخبتْ الشوق بانتهائها
فما إن حلَّ المساء حتى استزدتُ النجمة من الحكاية
والبقايا والخفايا
فأسرَّت لي بالمزيد من العجائب
والنوائب والرغائب

فاعيروني اسماعكم
وكفوا عني استعجالكم!

لماذا تُبشِّرنا وجوه المرايا بنسخٍ تُشبهنا،
إن كانت ظهورها تُصارحنا بأنًنا عدَم؟

(١)

بوابة الضوء التي شكَّلتها النجمات بتجمعها في صدر السماء، أمسَى لها صوت! سمعته «شفق» التي تُجاهد كي لا يسقط عقلها في غياهب اللاوعي.

الصوت يدنو.. ويدنو.. تسأل نفسها: هل للنجوم صوت؟

انتبهت إلى ضوء يغشى عينيها، ليس قادمًا من السماء هذه المرة، بل من الأرض، يمشي بمحاذاة سيارتها! مسحتْ عبراتها بأطراف أكمامها، فأضحت الرؤية أكثر وضوحًا.

صاحت -وإن عجز صوتها عن بلوغ مرادها-:

- ساعدني يا «أكمَل»!

سيارته تسير بجوارها، ويُطلق زمُّورها بشكل متقطِّع، شعرتْ بدبيب الأمل يتواتر بداخلها، تُرى هل أحضر «أكمَل» حقيبتها التي نسيتها في سيارة الشركة عندما كانت عائدة من المطار صباح اليوم؟ بداخلها علبة احتياطية من دوائها!

رأته يتجاوزها مبتعدًا، فكادت أن تبكي، ألم يرَها، أعجزَ عن معرفة سيارتها، والانتباه إلى رأسها المتدلي من النافذة؟!

- «أكمَل»، انتظر!

ألم يبلغ أسماعه صوتها؟ استجداؤها؟! قطعت تساؤلاتها عندما شق سكون الليل صوت عجلات تحتك بالأرض الأسفلتية بشدة، تبعها صوت مماثل، ثم ارتطام مقدمة سيارتها بسيارة قاطع الطريق التي تسحبها!

ارتجَّ رأسها، اصطدم بجسد السيارة؛ تشقق منه جُرح بجانبه الأيمن، هربت منه الدماء في الحال، تعدو لتنجو من هذا الجسد الذي بخل عليها بالراحة والغذاء.

خرجت من السيارة مترنحة، تُمسك بجُرح رأسها بيد، وبالأخرى تُعيد إحكام حجابها الذي تشرَّب الدماء دون أمارة تشير إليه، فالأسود لون حنون؛ يحتضن بداخله كل الألوان.

رنَتْ إلى «أكمَل» الذي ترجَّل من سيارته بدوره، بعدما قطَع الطريق على قاطِع الطريق! ارتعدتْ فرائصها، ترقب الرجلان مُقبلين بغضب في مواجهة بعضهما بعضًا.

صاح قاطع الطريق بـ «أكمَل»:

- يا غبي!

أجابه «أكمل» باللكمات والركلات. احتمَتْ بسيارتها متظاهرة أنها مكان يصلح للالتجاء. دار عراك شوارع فوق الأرض الأسفلتية، خضَّبتْ الدماء ملابس الرجلين دون أن تعرف «شفق» أيهما جرحَ الآخر.

بخطوات مرتعدة، وقدمين تحملانها بالكاد توجهت صوب سيارة «أكمَل»، همست بلهفة:

- الحمد لله.

إذ رأتْ حقيبتها في المقعد الخلفي، فتحت الباب وانقضَّت عليها، تُخرج الدواء، وتمنح رئتيها أخيرًا ما تبغيان، لكن أنفاسها لم تهدأ، ودقَّات قلبها طفقتْ تعزف مقطوعة للجنون. بدا أن لا غالب

في العراك، إذ تفرّق الرجلان فجاة كما تلاحما فجاة.

دنا «أكمَل» منها يقول لاهثًا:

- هيا بسرعة، لنرحل من هنا قبل أن يستدعي أحد شركائه.

ارتعاشة فمها، وإحكام كفها فوق رأسها، دفعاه لسؤالها:

- هل أنتِ بخير؟

أجابته بهزة من رأسها فحسب، لو تحدَّثتْ لفضح صوتها المُرتجف كذبتها.

سألته باضطراب وهي تتفحَّص ملابسه بنظراتها، مُفتِّشة عن شق أو قطع:

- وأنتَ؟ هل جُرحتَ؟ هل آذاكَ؟

أشار إلى الدماء فوق ملابسه قائلًا:

- أنا بخير، إنها دماء هذا الحيوان.

اتسعت عيناها فزعًا وهي تشير إلى قاطع الطريق، إذ رأته منحنيًا صوب صندوق سيارته، فهم «أكمَل» على الفور أنه يحضر آلة ما تُعينه على استكمال العراك، وأخذ مُبتغاه من مال أو سرقة أعضاء.

فانقضَّ عليه، أمسك برأسه من الخلف وضربه بصندوق السيارة بقوة.

صاحت «شفق» مرتعبة:

- توقف يا «أكمَل»؛ ستقتله!

سقط الرجل أرضًا فاقدًا للوعي، رفع «أكمَل» غطاء صندوق سيارة الرجل، نظر بداخلها ثم أشار لـ«شفق» كي تقترب، خرج صوته محمولًا على أجنحة الغيظ:

- الحقير! كان سيقتلنا.

اقتربتْ بينما لا تُحيد عينيها عن الرجل الملقى أرضًا، أطلَّتْ برأسها واسترقتْ النظر داخل الصندوق فرأت سلاحًا ناريًّا! انتفضتْ وابتعدتْ للخلف خطوات، وكأن السلاح سيتحرك من تلقاء نفسه لينفِّذ رغبة صاحبه فاقد الوعي!

- هيا لنرحل بسرعة، لعل له رفاقًا سيلحقون به بعد قليل.

هؤلاء لا يعملون بشكل منفرد، بل في تشكيلات كالعصابات.

أشارتْ إلى سيارتها دون حاجة لكلام، فأجاب وهو يُخرج هاتفه ويلتقط صورة للوحة المعدنية لسيارة الرجل، ثم يتجه بسرعة صوب سيارته:

- ما إن نصل إلى «العريش» حتى نُقدِّم بلاغًا بسرقة سيارتكِ. هيا يا «شفق»، هيا.

تجمَّدت في مكانها، ترنو بأنظارها إلى الرجل، صراع ضارٍ ينشب مخالبه في وجدانها، مِن جهةٍ الرجل قاطع طريق، كان سيلحق الأذى بها وبـ «أكمَل»، ومِن جهةٍ أخرى هو روح تلفظ أنفاسها الآن فوق طريق موحش. أليس له أم، أب، زوجة، ابن، عائلة تفتقده؟

هل ترقب طفلته الطريق في انتظار عودته بلعبة أو وجبة عشاء؟ أفزعها زمُّور سيارة «أكمِل»

الذي انطلق في شكل عواء مَتصل؛ يحثها على اللحاق به.
انحنتْ صوب الرجل، مدَّت يديها، وببطء شديد أدارته لتتمكن من رؤية وجهه الخالي من مظاهر الحياة.

قالت معلمتها «آمال» يومًا: «نحن نِتاج اختياراتنا الأخلاقية في المواقف التي تمر علينا في الحياة».

اختيارها الآن سيُحدد من تكون، وسيرسم لها صورة الشخص الذي ستراه في مرآتها كل صباح.

لم تأبه لزمُّور السيارة الذي صرخ ثانية، توجَّهتْ صوب سيارتها وأخرجت هاتفها من حقيبتها، ثم اتصلت بالإسعاف.

قطعت السيارة عدة كيلومترات، لا تحمل بداخلها سوى «شفق» و«أكمَل» وصمت الصدمة، ارتكب الصمت خطيئة التَململُ، فتفتتْ أشلاءً، وتبدَّد في الحال.

- ليتكِ استمعتِ إليَّ وصحبتني في السفر.

دفنتْ رأسها في كفَّيها، مسحت بهما وجهًا غابتْ عنه الراحة والسكينة.

قالت تهز رأسها أسفًا:

- ليتني فعلتُ.. ليتني فعلتُ.

فاستطرد «أكمل»:

- كيف تُسافرين وحدك في طريق كهذا؟!

أحيانًا يصيبني عنادك بالغيظ يا «شفق».

دفنت رأسها مرة أخرى، وتمنَّتْ أن تنتهي هذه الليلة العصيبة بالسرعة ذاتها التي بدأت بها:

- معك حق، ماذا أقول غير ذلك؟ معك حق.

زفر قائلًا:

- حصل خير.. سنتوجه إلى نقطة «العريش» الآن، ونخبرهم عما فعله هذا الحقير بكِ.

التفتتْ تنظر من فوق كتفها إلى سيارة الإسعاف التي تسير خلفهما، وبوقها يعمل بشكل يُلهب أعصابها، فلا تكاد تهدأ حتى يستفزها الصوت من جديد. حاولتْ الإمساك بتلابيب عبراتها وهي تسأل في وجل:

- هل سيموت؟

- لا تبالغي يا «شفق»، إنه مثل الثور لن يحدث له شيء، أظنه فقد وعيه ليس أكثر.

- الدماء.. ملابسه مغطاة بها!

- لم أجرحه، ركلته ولكمته فحسب، كان هناك جرح نازف في يده.. قلتِ إن الكلاب هاجمته.

لماذا لا يعمل عقلها في الأزمات؟ لماذا يتوقف عن التفكير كما لو أنه آلة صمَّاء.

رنا إلى حالها المضطرب، فاردف قائلا:

- اطمئني؛ لن يحدث له شيء بسببي، لو مات سيكون من عضة الكلب.

ما تلفَّظ به لتهدئتها كان أدعى لإصابتها بعذاب شقَّ وجدانها نصفين، لو فتحت له باب السيارة حين التجأ إليها لما عضه الكلب، لو مات لن يحمل ذنبه كلب مسعور، بل ضمير مفطور! أمسك بكفها مواسيًا، فانتفضتْ في الحال تنزعها منه، أعصابها التي فاض حملها مِن التوتر عثرتْ أخيرًا على المَخرج المناسب لتفريغ شحنتها:

- تلك المرة الثانية التي تفعلها اليوم. ماذا تحدثنا بشأن ذلك؟ قلتَ إنكَ تحترم اختياراتي وما أراه صحيحًا وغير صحيح. قلتُ لكَ لا تمد يدك نحوي ما دمنا خطيبين، هذا قانون غير قابل للتبديل. ما الصعب في هذا القانون كي تخترقه كلما شئت؟

- أحقًّا يا «شفق»؟! في هذا الوقت؟ وهذا المكان؟ وتحت هذه الظروف هل سنناقش شيئًا تافهًا مثل هذا؟

فلمَّا لم يجدِ الشجار نفعًا.. بكت!

كان لا بد لهذا الحِمل أن يخرج بأي وسيلة كانت، عبر شجارها.. صرخاتها.. أو حتى عبراتها! أوقف «أكمَل» السيارة على جانب الطريق، فتجاوزتهما سيارة الإسعاف، رمقها وهي تبتعد، ثم رنا إلى «شفق» قائلًا بنبرة أهدأ:

- أنا آسف، أعلم أنكِ عشتِ لحظات صعبة، و.. أنا حقًّا آسف.

ولأن الخوف حين يأخذ بتلابيب العقل يشتته، ويحيد به عن المنطق، لم تستكمل الحوار الدائر بينهما، بل ضفَّرتْ ما بُترَ من حديث بحديث آخر:

- رآني قبل أن يصدمني، صدمني عمدًا.

«أكمَل» الذي احتاج إلى عدة ثوانٍ قبل أن يستوعب أنها أدارتْ دفة الحديث إلى موضوع آخر، عقد جبينه، وضاقت حدقتاه ثم سألها:

- ماذا؟ من؟ أتقصدين هذا الحيوان؟ لماذا؟

هزَّتْ رأسها الخالي من الأجوبة:

- لا أعرف، لكنه اعترف بذلك، قال بمنتهى الوضوح: «رأيتكِ»!

وهنا استجمع الصمت أشلاءه مرة أخرى، ركبها ذرة فوق ذرة، ثم عاد ليحتلَّ مقعده في السيارة طوال الطريق.

دخولها المستشفى كان العذاب ذاته؛ تكره المستشفيات وألوان جدرانها ورائحتها، تكره معاطف الأطباء وأدواتهم ونظراتهم، تكره التمريض ولمساتهم وهمساتهم.. بالقدر ذاته الذي تكره به المرض.

اختفى «أكمَل» من جانبها، ربما أخبرها إلى أين سيتوجه، لا تتذكر، عقلها مُستطار، وقلبها على وشك الانفطار. توضَّأتْ وانتقَتْ رُكنًا قصيًّا أدَّتْ فيه صلاتها، ثم ابتهلت إلى الله تدعو لقاطع

الطريق بالنجاة!

دعَت ربها: رب أنقذ هذا المجرم من الموت.

لربما ظن الرائي أنها مجنونة فاقدة للأهلية، ولربما ظنَّ آخر أنها تملك قلبًا كالماس في قيمته، لكنها ترى في مرآة ذاتها أنانية مفرطة؛ تدعو لقاطع الطريق نعم، لكن لتنقذ ضميرها هي.

عاد «أكمَل» وعلى وجهه أمارات القلق، استقبلته هاتفة:

- هل مات يا «أكمَل»؟

دعاها للجلوس بجواره، فلبَّتْ. أعطاها كوبًا من القهوة ثم قال:

- مثل القط بسبعة أرواح.

حطَّتْ يدها فوق صدرها وتنهدت بارتياح للمرة الأولى منذ الحادثة:

- الحمد لله.

ارتشفت من السائل الساخن، تُعيد الحرارة إلى أطرافها المتجمدة. بادرها قائلًا بجدية بالغة:

- اسمعي، تحدثتُ إلى المحامي الخاص بي، يقول لي إن أسلَم حل أن نقول للشرطة إنكِ من ضربتِ الرجل.

توقفتْ «شفق» عن ارتشاف القهوة، كادت تغص بها:

- ماذا تقول؟

- اسمعي، كنتِ في حالة دفاع عن النفس؛ الرجل صدمكِ عمدًا وعطَّل سيارتك، وسحبكِ بسيارته بغير إرادة منكِ، ودافعتِ عن نفسكِ بضرب رأسه بصندوق السيارة.

- ولماذا لا نقول الحقيقة؟!

- لأنني طرف ثالث، وقد يدَّعي الرجل أنني تعرَّضت له بالضرب دون أن يرتكب جُرمًا في حقي، أما في حالتكِ فالأمر مختلف؛ كنتِ تدافعين عن نفسكِ، الأمر بسيط جدًّا.

وفي الوقت الذي قفزت إلى عقلها فكرة أنه يفكِّر بأنانية، فاجأها قائلًا بذات الجدية:

- أنا لا أفكر في نفسي، بل أفكر في وضعنا معًا، وفي أسلم الطرق للخروج من هذه الورطة. كيف أنهي المشكلة بأقل خسائر ممكنة.. هل تفهمينني؟

هزَّتْ رأسها باقتناع:

- أفهمكَ، لكن كيف بإمكاني أن أضرب رجلًا؟ هل سيصدقونني؟ وماذا إن قال الحقيقة؟

سارع بقول:

- ستقولين أن الكدمات في جسده سببتها له الكلاب، والعضة في يده هي خير دليل على ذلك، أنتِ ضربتِ رأسه في صندوق السيارة فحسب ثم اتصلتِ بالإسعاف، ثم إنه مجرم حاول خطفكِ، فليقل ما شاء، من سيصدقون برأيكِ؟ بلطجي قاطع طريق أم «شفق» بنت «منصور النمر»؟

لم ترتح «شفق» لفكرة الكذب على الشرطة، لكن في الوقت ذاته المُبرر للإقدام عليه قوي، لو قالت الحقيقة للشرطة فلربما تورِّط «أكمَل» بقضية، وهو في الأساس كان يُدافع عنها ويُحاول

إنقادها بشهامة.

هل يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! لكن الكذب، هل يُعدُّ الكذب إحسانًا إلى الغير؟ لا يوجد في قاموسها كذبة بيضاء وأخرى سوداء، الكذب كذب، هكذا بدون مستحضرات تجميل.

طاف بخاطرها ثلاث حالات لا يُعد فيهم الكذب ذنبًا؛ كذب الإصلاح بين متخاصمين، وكذب التودد بين الزوجين، ومع الأعداء في الحرب. نعم هي في حرب الآن، وقاطع الطريق هو عدوها البغيض!

ثم لا فارق من الذي ضربه، هي لا تنكر الضربة، بل تتبناها عن «أكمَل» كي لا يتعرض للأذى، ما الخطأ في ذلك؟!

منذ اللحظة التي أتت فيها الشرطة واصطحبتها، حتى اللحظة التي خرجت فيها من القسم، لم يُفارقها «أكمَل»، شهد على كل ما تفوَّهتْ به، من كونها ضربتْ رأس الرجل في غطاء صندوق سيارته لتنجو منه. وكونها محامية سهَّل عليها معرفة حقوقها والوقوف على ثغرات التحقيق، مما عجَّل بإنهاء الأمر سريعًا، إذ قال الضابط وهو يُملي كلماته على كاتِب المحضر:

- قررنا في ساعته وتاريخه التحفُّظ على المتهم، بتعيين حراسة على غرفته في المستشفى لحين استعادة وعيه. أستاذة «شفق»، يمكنكِ المغادرة الآن، لكن سنطلبكِ مرة أخرى بعد سماع أقواله.

حين وصلت إلى الفندق، نزعت عنها حجابها لتأخذ دشًا؛ تزيل عنها وعثاء السفر وكآبة الحادثة. وعندما تلطَّخَتْ أناملها بالدماء انتبهت إلى جُرح رأسها النازف، ولكَم أفزعها ألا تتذكر أن برأسها جرحًا إلا بالصدفة!

تسابقتْ أناملها إلى هاتفها، تتابعت فوق شاشته الأرقام لتُشكِّل رقم أبيها الذي تحفظه جيدًا، وما إن سمعت صوته حتى بادرته:

- أبي أنا وصلت الفندق الآن، تأخرتُ لأنني على الطريق تعرَّضتُ إلى....

- «شفق»، أغلقي الآن؛ لدي مكالمة مهمة على الخط الآخر.

طاشَتْ مشاعرها تتأرجح بين معاودة الاتصال مرة أخرى، أو التزام المنطق، ففي النهاية وقعتْ الحادثة وانتهت، لا فائدة من اجترار ما حدث، بالتأكيد لدى أبيها أمور أهم ينشغل بها. ودون تفكير -مخافة أن يُثنيها عن عزمها- اتصلت بأمها، لكنها لم تتلق أي جواب.

لم يبق سوى شخص واحد بإمكانها الاتصال به، على الرغم من كل شيء شعرت أنها بحاجة إلى البوح، سماع جملة عادية مثل «حمدًا لله على سلامتكِ» بدا لها جميلًا للغاية.

وفي اللحظة التي أوشكت فيها على الاتصال بـ«دهب»، ترددتْ، هل تُقلِق أختها في هذا الوقت من الليل وتتسبب في إفزاعها من أجل حاجتها إلى سماع جملة عادية؟! زَجَرَتْ نفسها: كُفِّي عن أنانيتكِ يا «شفق»، أطفلة أنتِ؟

على الرغم من التعب الذي تسرَّب إلى مسامها، وتربَّع داخل كل خلية من خلاياها، عكفَتْ بنشاط

على إفراغ حقيبتها، وترتيب اغراضها كل في موضعه؛ الاعمال لا يجب ان تتاخر إلى الغد، الأعمال المؤجلة هي مُنجَزات الفاشلين، هكذا تقول دكتورة «ثريا» دومًا.

---

(٢)

«عين»، اسمها «عين».

أحبَّ والدها حروف الهجاء العربية لأنها لغة القرآن، وبخاصة وأن اسمه «برهوم»، كان من أصل غير عربي، فعوَّض ذلك بتسمية كل ابن من أبنائه حرفًا عربيًّا؛ «سين»، و«نون»، و«جيم»، و«ضاد»، والبنت أسماها «عينًا».

علَّموها منذ نعومة أظفارها أنها عروس تستعد لإقامة عرسٍ تتحدث عنه القبيلة أيامًا وليالي، أخبروها أنها زوجة لابن عمها منذ اللحظة التي شهقت فيها شهقة الحياة الأولى، رسموا لها حلمًا، وجعلوها تتلحَّف به في ليالي الشتاء الباردة، وتتنسَّمه تحت قيظ الشمس الحارقة.

ولأن أحلام البنات النضرة تُزرَع في أرض خصبة سريعة الإنبات؛ نما الحلم وازدهر بين ثنايا فؤادها، وغاصت فيه حتى نُخاعها، انتظرت أن يخرج من رحم أرض الأحلام، ويتجسد واقعًا وبيتًا وعيالًا.

- «عين»، ودِّي أفطر.

تلبية لنداء أمها؛ دخلت المطبخ الذي تحفظ أركانه كحفظ بنات الشمال للدروس والكتب، وتألفه أُلفَتهن للعبهن وأغراضهن.

وسط الصحراء القاسية جاهدتْ لثمانية عشر عامًا كي تخلق عالمًا تحبه، الرمال والجبال والخيول والجمال كانوا دومًا مُفردات الكون، لم تعرف يومًا رفاهية المدينة، ولا رائحة الريف.

- تفضلي.

أعدَّت لأمها فطورًا سريعًا، ثم عادت إلى المطبخ لتطبخ الشوق!

محترفة هي في طبخ الشوق، تحفظ مقاديره عن ظهر حب، لا تُقلِّبه بملعقة خشبية، بل بأنامل خمرية، تهفو لتسكن بيتًا دافئًا، ظاهره أسمر خشن، وباطنه رحيم مُعطَّر بدِهن العود!

لفَّت «عين» ما أعدته مِن شوقٍ حارٍّ بثوب لها، قديم أحمر، ثم ارتدت برقعًا من قماش سميك يغطي كل وجهها عدا عينيها، لبستْ خاتمًا كبيرًا من الفضة، وثلاث أساور من زجاج بألوانٍ مائية، ثم خرجت من بيتها ذي الطابق الواحد، تسير في طريقٍ تحفظ رملاته ومواضع عثراته.

ألقَتْ السلام على حجرٍ كاد أن يتشقق من رائحة الشوق الذي تحمله، وحيَّتْ حصاة أرضٍ كادت تذوب عندما انسكبتْ فوقَها قطرة شوق!

ثم ارتقَتْ سُلَّم بيتٍ، واختفت داخله.

جلست الأم الكبيرة «أم ذيل» تُقسِّم الأعمال على ما لأولادها مِن زوجات، وتوزِّع الحلوى على أحفادها من البنين والبنات. كبيرة البيت هي، امرأة بدوية أصيلة، مسموعة الكلمة، حكيمة الرأي، حسنة البيان، لم تتلقَ تعليمًا في مدارس الدولة، لكنها في قبيلتها دولة داخل دولة.

تجيد سياسة فض النزاعات بين أبنائها، وسياسة تجريف الغيرة بين زوجات أبنائها، لها طرق بارعة في ري بيتها بالود والسكينة، وزرع شتلات الأخلاق الأصيلة. وزيرة كما يقول الكِتاب؛

تعقد مجالس سمر لابنائها واحفادها، تقدم فيها التربية على التعليم.

في هذا الصباح تجمَّع الأحفاد حولها، في انتظار طعام الفطور الذي تُعدُّه أمهاتهم، فقالت الأم الكبيرة «أم ذيل» التي كانت ترتدي ثوبها الأسود وحول وسطها حزام أسود من الشَّعر:

- هل أخبركم يا أولاد لماذا سماني أبي بـ «أم ذيل»؟

وعلى الرغم من أنها تحكي لهم الحكاية كل صباح، صاح الأحفاد بشوق طفولي:

- أخبرينا.. أخبرينا.

تربَّعتْ وسطهم، فوق وسادة الأرض المفضلة لديها، أهداها إليها أبوها يوم أن تزوَّجتْ. قالت:

- في يوم من الأيام منحتْ القبيلة لأبي مهمة تجارية ثقيلة، فجدُّكم الكبير كان قويًّا شجاعًا لا يخاف الصعاب.. نجح في مهمته وعاد في الطريق بجمال كثيرة مُحمَّلة على ظهورها بالخيرات، وفي لحظة واحدة انقلبت سعادته همًا عندما غارَ عليه بعض اللصوص وقطاع الطرق، سرقوا كل ما معه وجرَّدوه من السلاح، ثم ألقوا به ورجاله المقيَّدين في بطن جبل. أصرَّ أبي، الذي لا ينحني رأسه للكلاب، أن يسترد أموال أهل عشيرته، فتتبَّع هو ورجاله آثار اللصوص، وما إن عثر عليهم حتى تخفَّى وراء كثبان الرمال، وانتظر حتى ناموا من التعب، ثم غار عليهم هو ورجاله واستعاد كل غرضٍ وكل ناقة.

يومها ولكي يعود سالمًا إلى القبيلة بعدما ضلَّ الطريق في وسط الصحراء، لم يجد سوى النجوم مرشدًا له، وكان يتفنن في معرفة أسرار النجوم وأسمائها. وما اعتقد فيها القدماء من خير وشر. ليلتها أنقذته النجوم، ودلَّته على الطريق إلى أهله وعشيرته، وعندما وصل القبيلة تلقَّى بُشرى ولادتي، فأسماني باِسم «النجمة أم ذيل»، التي يتشاءم الناس من رؤيتها، وتُنذِر بالموت والخراب. كنت وِش خير عليه لكنه أراد أن يصون هذا الخير عن الأعين، فأسماني بما يكره الناس رؤيته.

تلذذ الأحفاد بسماع حكاية يحفظونها، فقط لأن جدَّتهم «أم ذيل» تحكيها على أسماعهم، ثم تركوها وخرجوا للعب في الهواء الطلق.

انقلبتْ الجلسة اللطيفة غمًا حين دخلت عليها واحدة من زوجات أبنائها.. «عِيدة»، طويلة القامة، مليحة الوجه، لكن نظراتها عكرة، تمامًا كنظرات «أم ذيل» حين أقبلَتْ عليها.

- الله يصبِّحِك بالخير.

قالتها «عِيدة» بفتور كل صباح، وأجابتها «أم ذيل» بخفوت:

- يصبِّحِك بالخير يا بنتي.

دفعها الصمت لتضيف:

- كيف أحوالكِ

بالخفوت نفسه أجابت «أم ذيل»:

- بخير يا بنتي، وأنتِ؟

- بخير.

حوار قصير محفوظ تجريانه كل صباح، كماء اسن لا تحرَكه حصاة ولا عصا، ثم تطرقان بأنظارهما كل شيء حولهما، إلا وجه بعضهما بعضًا. تُظلل مُقلتي «أم ذيل» سحابة من الغمام، تشرد أفكارها بعيدًا، إلى ذكرى يبغضها الفؤاد، وتُمزِّق السويداء.

مسحتْ «عِيدة» فوق بطنها المُنتفخ، فتتبعتها نظرات «أم ذيل»، بألمٍ وحسرة. أدركَتْ «عِيدة» أن دقيقة واحدة هي أكثر من كافية للجمع بينها وأم زوجها؛ لن تتحَمل كلتاهما ثانية أخرى، فاستأذنت ثم توجَّهتْ إلى المطبخ تُساعد سلفاتها.

لم يُخرِج «أم ذيل» من وجومها إلا إقبال أوسط أبنائها السبعة عليها، كإقبال الشمس على السماء بعد زوالَ الغَمام.

اتسعت ابتسامتها تقول:

- صبَّحكَ الله بالخير يا «بحر».

«بحر» الذي ارتدى أفضل ما لديه من أثواب، وعطَّر كفَّيه وشعره بدِهن العود، قبَّل رأسها مُجيبًا تحيَّتها، ثم خرج سريعًا قبل عودة زوجات إخوته إلى المجلس.

وما إن وصل إلى الباب حتى وجدها قِبالته، كعادتها. ترتبك حين تراه، وتُدفن عينيها أرضًا، لا تُدفنهما فحسب، بل تزرعهما، فتطرحان ثمرتين حمراوين فوق وجنتيها، يحجبهما البرقع، لكن أمه كشفت له سترهما في ساعة سمر.

دفن نظراته أرضًا هو الآخر، لكن أرضه كانت بورًا، وزرعته لا تطرح ورقًا ولا ثمرًا؛ الحلم الذي رسموه له وهو صغير غُرِسَ في أرض ضعيفة الإنبات، ليست كمثيلاتها من أحلام البنات، فلم تزد «عين» على أن تكون لَه أختًا وابنة عم، يضعها فوق الرأس قبل العين.

أما الطريق إلى فؤاده أكثر وعورَه، يلزمه فتحٌ مُبين، لا تقوى عليه «عين» بزادها القليل وعتادها الهزيل.

رجع خطوتين كبيرتين إلى الخلف ليسمح لها بالمرور، لكن «عينًا» التي أمضت صباحها في طبخ الشوق مدَّت له باللفافة بخجلٍ، ولم تزد على أن تقول:

- صنعتُ «الجريشة».

ولم تكن بحاجة إلى قول المزيد، امرأة تصنع لرجلٍ طعامه المفضل هي رِسالة حب مُضمرة، فكَّ «بحر» شفراتها في الحال، فتراجع خطوة أخرى، وما تزال نظراته مُعلَّقة بالأرض، شعر بأنها تمُد له قلبها لا طعامها، وقبول عطيتها يحمل في الوجدان ألف معنى ومعنى، فآثر السلامة لقلبها:

- تسلم يدكِ، لكنني لا أريد.

أرجعتْ العَطيَّة بخيبة إلى حضنها، وتسابقت الأعين لتطرح أثمارها، دخلت المجلس وانحنت على يد «أم ذيل» تُقبِّلها وتسأل أحوالها، أسقطتْ على كفها ثمرة ناضجة من الموالح، ثم ولَّت هاربة. نظرت «أم ذيل» إلى كفها بأسى، ثم نادتْ بقلبٍ رؤوم:

- «بحر»!

التفتَ إليها واجمًا، فأضافت بحزم:

- الخاطر الذي لا تعرف كيف تجبره، لا تكسره يا «بحر».

---

(٣)

في الصباح حاولت أن تتذكر؛ هل دعسَ قاطع الطريق جسدها بسيارته ثلاث مرات، أم أن هذا نتاج كوابيسها؟ لماذا يهدُّها الألم إذن؟

الجُرح الذي طهَّرته بالأمس أصبح مصدرًا غير محتمل للألم، كأنه بؤرة مركزية يشع منها الألم إلى سائر جسدها. اتصلت بخدمة الغرف وطلبت فطورها، بعد أن تذكرت أنها لم تتناول شيئًا منذ أن كانت في مطار «الصين».

حرارتها تزداد ارتفاعًا، وأشواك حادة تنبت في حنجرتها، فتُعيق مجرى النفس والبلع. وجدت اتصالين من «أكمَل»، ولا أحد سواه، ألم تعلم «دهب» بقدومها؟!

عاودت الاتصال به، فبادرها:

- أردتُ الاطمئنان عليكِ، أحسن الآن؟

في قرارة نفسها تشعر أن المرض مصدر للخجل؛ استدعتْ قوة لا تملكها، ثم أجابت بوهنٍ:

- بخير جدًّا، لا تقلق.

- عظيم، سأذهب الآن إلى الموقع لأعرف كيف يسير العمل. وأنتِ؟

- إلى مقر الشركة؛ لدي عمل هناك ثم سألحق بكَ عند الموقع.

- عظيم، إلى اللقاء إذن.

ما زال هاتف «دهب» مغلقًا، أين هذه الفتاة؟ هل تتجنَّب لقاءها مخافة أن تغضب عليها لفعلتها الطائشة؟!

تصاعد بداخلها دبيب القلق، حين تذكَّرت حادثة الأمس؛ هاتفَتْ الممرضة التي أخذت منها رقمها بالأمس، وعندما سمعت صوتها قادمًا من الجهة الأخرى بادرت بالسؤال عن قاطع الطريق، أجابتها ببشاشة:

- اطمئني يا أستاذة «شفق»، تلقَّى حقنة لقاح ضد داء السعار، واستعاد وعيه، ثم أخذه الضابط إلى الحجز قبل قليل.

أعادتْ هذه المكالمة بعض الراحة لصدرها المُعبَّأ بالقلق؛ على الأقل الرجل لم يمت. عليها أن تنهي فطورها سريعًا وتتوجه إلى فرع الشركة هنا في «العريش»، تحتاج إلى أن ترى صديقتها «نرجس» الآن، لا بد أنها غاضبة منها بشدة.

مرَّتْ في طريقها على الميكانيكي الذي أودعتْ سيارتها عنده، فبشَّرها بعودة سيارتها إلى الحياة مرة أخرى، لكنها لن تعود إلى سابق عهدها؛ تشوهات بالغة أصابت جسدها وطلاءها، ستظل محفورة فيه إلى الأبد.

أهذا ما يحدث لأرواحنا حين ننكسِر؟ تتشوَّه دواخلنا ويتساقط عنها الطلاء؟ لكن مَن يُبالي باعوجاج الروح إن كان الجسد ظاهره سليم؟

لن ينتبه الناس إلا لخراب يَمكن للعين المَجردة ان ترصده، كما هو الحال مع سيارتها.

في طريقها إلى المكتب مرَّتْ سيارتها بالبحر، كان ثائرًا كعادته، مُتخبِّط الأركان، عنوانًا للفوضى، كم تكرهه حين يثور! لم تُطل النظر إليه، لكن الهواء كان منعشًا، وشوارع «العريش» نظيفة، رائقة، تبعث فيها الهدوء.

دامتْ قيادتها دقائق أخرى حتى وصلت إلى الشركة، صغيرة الحجم، ليست بعظمة الفرع الرئيسي بالقاهرة. على الرغم من أن دوام العمل ما يزال في ذروته، فإنها لم تجد إلا القليل من الموظَّفين في الشركة. فوجئت برجل يستوقفها قائلًا ببشاشة:

- يا مرحبًا يا مرحبًا، نورتِ «العريش» وسيناء كلها يا أستاذتنا.

وكانت المرة الأولى التي تراه، سألته عمن يكون، فمسح صدره قائلًا:

- أنا الريِّس «مستور»، عيَّنتني الباشمهندسة «دهب» مسؤولًا عن العمال في الموقع.

حيَّتْ الريِّس «مستور» العرايشي الذي يربو على الخمسين، ثم تساءلتْ باهتمام:

- ما أخبار العمال؟

- كله تحت السيطرة يا سِت الكل.

احتدَّتْ:

- كيف تحت السيطرة؟ والعامل الذي تحدَّث إلى الإعلام.. كيف حدث ذلك؟

تراجعت نبرة صوته الواثقة، قال:

- والله يا سِت الكل...

- اسمي أستاذة «شفق».

- والله يا أستاذة «شفق» بمجرد أن علمتُ ذلك طردتُ هذا العامل في الحال؛ شكله مدسوس علينا يا أستاذة.

لم تكن «شفق» في مزاج رائق للدخول في قضية العمال. قالت وهي تستكمل طريقها:

- سأمر عليكَ اليوم في الموقع، وهناك نستكمل حديثنا يا ريِّس «مستور».

بدا أنه سيهم بقول شيء، لكنه عدل عنه في آخر لحظة قائلًا:

- طبعًا طبعًا، تشرفي يا سِت.. آه.. يا أستاذة «شفق».

سألت عن مكتب «نرجس» فأرشدها أحد الموظفين، طرقت بابه مرتين ثم دخلت، فوجئت بشاب يقف عند النافذة، وفي أذنيه سماعات تُرسل أصواتًا صاخبة ومزعجة:

- من أنتَ؟ وماذا تفعل في مكتب «نرجس»؟

لم تند عنه أي حركة، يوليها ظهره، رأسه يتلوَّى على إيقاع الصخب الذي يسمعه. وقبل أن تناديه ثانية التفت بحركة حادة، رآها فارتد صائحًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إنس أم جن؟

أغلق شلالات الإزعاج وهو يقول:

- هل يدخل الإنسان بهذه الطريقة على اخيه الإنسان؟

أشارت إلى الباب قائلة:

- طرقتُ الباب، وناديتكَ.

عدَّل من وضع نظارته فوق قصبة أنفه، قال وقد عرفها في الحال:

- ومن يطرق الباب وينادي الآخرين في هذا الزمان يا أستاذة «شفق»؟!

ثم أشار لسماعات الأذن المتدلية على صدره قائلًا:

- بعد اختراع هذا الشيء بات الناس يقذفون وجوه بعضهم بعضًا بالأغراض كي ينتبهوا.. في مرة قذفني صديقي بالمكواة كي أنظر إليه، انظري، ما زال الجرح ظاهرًا.

دنا منها يُريها جرحًا تحت منابت شعره، فأوقفته بكفها قائلة:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

ظهرت الصدمة على وجهه:

- ألا تعرفينني يا أستاذة «شفق»؟ ثم ألستُ معروفًا في المقر الرئيسي في القاهرة؟ حزنتُ الآن.

راجعت «شفق» في رأسها وجوه موظفي هذا الفرع ومهندسيه، لم تجد في أرشيف ذاكرتها هذا الوجه على الإطلاق. عادت لتسأله:

- اعذرني نسيتكَ غالبًا. من تكون؟ مهندس بالمكتب؟ أم عميل لدينا؟

تنحنح ثم وقف عدَّل وقفته، يقول واضعًا كفَّيه في جيب بنطاله:

- أنا عامل البوفيه.

- نعم!

- اسمي «عبقرينو».

- ....

- «عبقرينو» يعني عبقري يا أستاذة «شفق»، ليس اسمي الذي ولدتُ به بالطبع، لكنه اسمي الحركي.

- وما شأني أنا بكل ذلك؟ ماذا تفعل في مكتب «نرجس»؟ وأين هي؟

- كنتُ أنظفه. الأستاذة «نرجس» ذهبت لتأكل عميل.. أأ.. أقصد تتناقش مع عميل أزعجها. عنيفة جدًّا أستاذة «نرجس».

تساءَلتْ في نفسها، هل تتهرب «نرجس» من لقائها؟ ألهذا الحد هي غاضبة منها؟

نظرت إلى الملفات الموضوعة فوق مكتب «نرجس»، جلست في مقعدها، أخرجت هاتفها ثم... قاطعها الشاب:

- لو سمحتِ يا أستاذة «شفق»، أريد أن أسأل حضرتك شيئًا.

هزَّتْ رأسها تستعجله كي تجري اتصالها، فأردف بحماس:

- ماذا كان رأي الأستاذ «منصور النمر» في اقتراحي الذي أرسلته إليه؟ اتصلت بأستاذة

«مرام» عشرات المرات لاسالها ولم تفِدني بشيء.

قالت بعدم تركيز:

- أي اقتراح؟

أجابها بحماس وهو يجلس أمامها على المكتب دون دعوة:

- اقتراح الميزانية.

- أي ميزانية؟

- ميزانية الشركة.

أشار صوب هاتفها قائلًا:

- انظري يا أستاذة «شفق» إلى ما تفعلينه الآن، تتصلين بالأستاذة «نرجس» لتعرفي مكانها، أليس كذلك؟

مررتْ نظراتها فوق هاتفها، ثم قالت بحيرة:

- نعم، لكن ما علاقة ذلك بـ..

قاطعها وهو يطرق بكفيه فوق المكتب:

- هذا تحديدًا هو سبب تقدُّمي باقتراح للحفاظ على ميزانية الشركة.. نستهلك كثيرًا من الدقائق والرصيد في البحث عن المهندس فلان والموظفة علانة، لكن لو أمكننا زراعة أجهزة استدعاء لها خاصية GPS في قدم كل موظف بالشركة، فبهذه الطريقة سنعرف مكان كل موظف ونستدعيه بالتواصل مع قدم، أقصد مع الجهاز المزروع في قدمه.

ثم هز رأسه مضيفًا:

- كنت سأقول أن نزرعها في أحذيتهم ولكننا نغير أحذيتنا باستمرار، ما عدا الباشمهندس «منعم»، لا يغير حذاءه، وغالبًا ولا جوربه حتى.

احتاجتْ «شفق» إلى بضع ثوانٍ لتستوعب عاصفة الكلمات التي اجتاحتها، وتستخرج منها معنى، ثم قالت بحيرة وهي تُحرِّك كفَّيها في دهشة:

- ولكن سعر دقيقة المحمول عدة قروش، وهذا الجهاز الذي تتحدث عنه.. ما سعره في السوق؟

حكَّ شعره بأظفاره قائلًا:

- لا في الواقع لا يوجد منه في السوق، يعني لم يتم اختراعه بعد.

ثم أشار إلى رأسه بتواضع مستطردًا:

- لكنني أعمل على اختراعه.

أغمضتْ عينيها، ثم عدَّت من صفر إلى عشرة، هكذا تعلَّمتْ في محاضرة «فن التحكم في الغضب»، ثم أشارت بعينيها صوب الباب قائلة بصوت خافت:

- اخرج!

انتفض واقفًا، ثم قال:

- بالطبع، تحتاجين إلى البقاء وحدكِ والتركيز في العمل، بالطبع يا استاذة «شفق»، افهم ذلك.
ثم أشار إلى رأسه قائلًا بضحكة متقطعة:
- «عبقرينو»، لهذا السبب.. ها.. «عبقرينو».
مُتيبِّسة الرأس تابعته بأنظارها حتى تأكدت من خروجه، ثم زفرت بقوة.

---

(٤)

كلما عبر «بحر» الصحراء سائرًا أو راكبًا، شعر بعظمة الرملات التي يخُط فوقها، رملات احتضننتْ أقدام «عمرو بن العاص» وخيول جيشه القادم لفتح مصر، ولكَم استمع «بحر» إلى هذه الحكاية كثيرًا من أمه «أم ذيل»، في جلسات السمر حول وسادتها الأثيرة..

على عتبات «سيناء» أرسل «عمر بن الخطاب» مكتوبًا لـ«عمرو بن العاص» كي يعود بجيشه وألا يدخل «مصر»، إذ كان متوجسًا من تبعات تلك الخطوة إن فشلوا في مسعاهم، لكن لطبيعة «عمرو بن العاص» الجانحة، المُحبة لأرض «مصر»، ولنشر الإسلام فيها، ورغبته في تخليص المصريين من حُكامهم «البيزنطيين» المضطهِدين لهم بسبب عقيدتهم المختلفة عنهم؛ لم يفتح الرسالة، إذ أدرك بفطنته ما فيها.

انتظر حتى عبرَ من رفح إلى سيناء ثم فتحها، فلاقى ما توقع، إذ أمره «عمر بن الخطاب» بالعودة إن كان لم يدخل «مصر» بعد، وبالسير على بركة الله إن كان فوق أرض «مصر» أثناء قراءته للرسالة، فالتفت لمن حوله يسأل:

أنحن في مصر أم في الشام، فقيل له: نحن بـ«مصر». فسار على بركة الله.

لطالما تعجَّب «بحر» من فطنة «عمرو بن العاص»، كان يعلم أنه إن قرأ رسالة الخليفة فهو مُلزَم بما فيها، وفي الوقت نفسه في داخله رغبة عظيمة لأن تبلغ عطية الله قلوب المصريين، فجمع بين الواجب وهدفه النبيل، بأن أخَّر قراءة الرسالة.

ما إن بلغ «بحر» أرض قبيلة «السخاوية» حتى مرَّ بخاطره أنه في هذه المهمة ليس بحاجة إلى فطنة «عمرو بن العاص» فحسب، بل إلى حلم «أبي بكر» كذلك. استرق النظر إلى «عبدون» الذي يتبعه بحصانه، وأخيه «حَمَد» الأكبر الذي أصرَّ على اصطحابه قائلًا:

- لن أتركَكَ تذهب إلى «السخاوية» وحدك يا «بحر».

- لستُ خائفًا منهم يا «حَمَد».

- أعرف، لكنني لن أتركك تذهب وحدك، هيا لنذهب بسيارتي.

- لا، الطريق المُمهد للسيارة سيستغرق وقتًا أطول؛ لنذهب بالخيل ونختصر المسافات.

عدَّل «بحر» من جلسته فوق صهوة جواده العربي الأصيل الأشهب، أبيض رائق مُزدان بنقاط سوداء.

لَكزهُ لَكزةً قويةً، فَطار كالسهم صوب مجلس شيخ «السخاوية».

ولأنه كان يعلم أن الأعين الراصدة لا بد وأنها قد أخبرَتْ عن قدومه؛ لم يندهش «بحر» عندما وجد كُبراء القبيلة في انتظاره.

ترجَّل و«حَمَد» و«عبدون» من فوق صهوة جيادهم، وساروا جنبًا إلى جنب إلى حلقة شكَّلها أبناء «السخاوية» حول شيخهم، تتناثر الوسائد فوق الرمال يُمنة ويُسرة، أمام خيمة كبيرة. حيَّاهم «بحر» رافعًا كفَّه:

- سلام الله عليكم.

ردَّ الجميع السلام، دون أن يتخلَّف أحد، وأشاروا إليهم بالجلوس. قدَّم لهم أحدهم أكوابًا من شاي أنضجته نار في منتصف الحلقة، لم يرُد «بحر» ضيافة الرجال.

«السخاوية» ليسوا تُجَّارًا مهرة كـ«السوارفة»، ولأن أرضهم في منطقة جبلية وعرة، لم تمنحهم طبيعة أرضهم القاسية زرعًا طيبًا، ولا ثمرًا وفيرًا، ولا ماءً غزيرًا كما منحت أرض «السوارفة» أبناءها.

ولأن الأرض تمنح السائرين فوقها بعضًا من صفاتها، اختار «بحر» أن يتحدث معهم بغلظة طباعهم. انحنى صوب شيخهم، وقال:

- يا شيخنا، جئتُكَ في حق لي عندكم، وكنتُ قادرًا على أن آخذ هذا الحق بيدي، لكنني فضَّلتُ أن أبدأ الطريق من حيث انتهينا سابقًا؛ أي بالحُسنى.

واصلت نظرات «بحر» الحازمة اكتساح ما حوله من الأعين المتباينة، ما بين الترقب والقلق والاندفاع، وألجمتْ لسان الجميع إلا الكبير الذي بسط يديه قائلًا بقوة:

- هات ما عندكَ يا «بحر».

عدَّل «بحر» من جلسته، وشبَّك كفيه قائلًا:

- «جبار» تعدَّى على أرضي ثلاث مرات.

التفت الجميع إلى بعضهم بعضًا، وأضحت جلساتهم أكثر تحفُّزًا، مسحت نظرات «بحر» وجوههم قبل أن يردف بالكلمات التي ستُخرج الفأر من جحره:

- وسرق من جمالي الأصيلة.

انتفض المجلس كله، يصيح ويُنكر، يهمس ويلمز، يطيح بالتروي والعقل والمنطق، هتف شيخ «السخاوية» مُغاضبًا:

- كيف تجرؤ على اتهام أحد أبنائي بهذا العار؟!

يعلم «بحر» خطر اتهام شيخ قبيلة بالسرقة، حتى وإن لم يكن «جبار» ابنًا حقيقيًّا من صلبه، فشيخ «السخاوية» يُعِدُّ كل مَن مات أبوه ابنًا له، كل يتامى القبيلة الذين فقدوا آباءهم، أبوهم هو شيخ القبيلة، الجميع يعرف ذلك ويتصرف على أساسه.

عندئذ اندفع «جبار» صوب المجلس، يُقبل عليه حاشدًا جيوش الغضب، هتف بصوته الجَهْوَرِي المُزلزل:

- أنت كاذب يا «بحر»!

إن كان اتهام أحد أبناء «السخاوية» بالسرقة عارًا يستوجب الغضب، فإن اتهام «بحر» ابن «السوارفة» بالكذب جريمة لا تُغتفر! اشتعلت عينا «بحر» بجمرات حارقة، بينما أرختْ الشمس قيدها، وهوَتْ من كبد السماء لتُخفف حرارتها، وكأن أرض «السخاوية» لا تحتمل الاكتواء بنارين!

---

(٥)

ما يزال هاتف «دهب» مغلقًا! بينما يؤكد «عبقرينو» أنها أتت إلى الشركة صباحًا، وقالت إنها ستعود إليها ثانية!

غرقتْ «شفق» في دوامة من الأوراق والملفات وأقوال العمال في الحادثة التي وقعت في موقع العمل، لكن بمجرد دخول «نرجس» هبَّتْ واقفة، تركت المكتب والأوراق، واندفعت إليها بشوق بالغ تُعانقها قائلة:

- أوحشتيني كثيرًا يا «نرجس». لماذا لا تجيبين على اتصالاتي؟

حرارة اللقاء غذَّتها مشاعرها هي، أما مشاعر «نرجس» فكانت تتأجج خيبة ومرارة. ابتعدتْ «نرجس» عنها تقول:

- لا تتصرفي وكأنني أهمكِ.

تبسَّمتْ «شفق»، قائلة بصدق:

- تُهمينني بالطبع، ليس لي صديقة سواكِ. تعرفين ذلك.

وكأنها بكلامها قد وضعت ملحًا على الجرح، فاندفعت «نرجس» مُحتدَّة:

- صديقتكِ؟ لذلك رأيتُ صورتكِ بخاتم الخطبة على مواقع التواصل كما رآها الجميع.. صديقتكِ!

حاولتْ «شفق» امتصاص الجفاء الذي تعلم أنه صنع يديها:

- معكِ حق، لو كنتُ مكانكِ لغضبتُ أيضًا.

هتفت «نرجس»، وما يزال غضبها لم يهدأ:

- لا تتحدثي في هذا الموضوع يا «شفق»، عرفتُ مكانتي عندكِ وانتهى الأمر، أنتِ ابنة صاحب الشركة التي أعمل بها، وأنا موظفة عندكم، لا شيء أكثر من ذلك.

تعلم «شفق» أن القلب الذي جرحته هي مُلزمة بمداواته وجبر خاطره، لن تسمح للشيطان أن يكون له الغلبة، دنتْ منها تقول:

- أنا راضية بالعقاب الذي يرضيكِ.

تظاهرتْ «نرجس» أنها مندمجة في مطالعة ما بيدها من فواتير، لكن تقطيبة جبينها، وقسمات وجهها التي تتأرجح بين اللين والشدة دفعا «شفق» لتستطرد:

- لكِ عندي طلب، في أي وقت وأي زمان يحق لكِ أن تطلبيه، ومهما كان سأنفذه فورًا، أقسم لكِ بذلك. أراضية الآن؟

ارتفع حاجب «نرجس»، ترميها بنظرات مُعاتبة، تُعافر كي تستبقي الغضب، لكنه نفض يده سريعًا، وقد فشلت أبالسته في اتخاذ رابطة الصداقة بينهما مستقرًا ومقامًا، فعادوا إلى كبيرهم يجرون أذيال الخيبة.

اتسعت ابتسامة «شفق» وعانقتها ثانية:

- أوحشتني جدًّا.

- وانتِ كدلك، لكن لا تظني انني لن اعاقبكِ، ساطلب طلبًا يجعلكِ تندمين على ما فعلتِ في حق صداقتنا.

أحنتْ «شفق» رأسها تقول ببسمة واسعة:

- عَلِم ويُنفَّذ يا وردة الشركة، لا، بل وردة حياتي كلها.

بدا أن فرحتها ينقصها شيء لتكتمل، فقالت:

- هل تعرفين أين «دهب»؟ هاتفها مغلق طوال الوقت.

- نعم أعرف، «دهب» تنتظركِ في الفندق.

- أي فندق؟

- الفندق الذي تقيمان فيه.

- ولماذا لم تأتِ إلى الشركة؟

هزَّتْ «نرجس» كتفيها، ثم سارعت بقول:

- هيا لنذهب الآن، تعرفين أختكِ. اسبقيني إلى السيارة وسأوقع بعض الأوراق وآتي فورًا.

ما إن خرجت «شفق» حتى سارعتْ «نرجس» بإخراج هاتفها من الحقيبة وإجراء اتصال:

- «دهب»، نعم رأيتها، سنتوجه إلى الفندق الآن، لكن لأقول لكِ من البداية، «شفق» تكره المفاجآت، وبخاصة إن كانت مفاجأة مثل هذه!

بدا أن «دهب» لن يثنيها شيء إن خاطبتها بالعقل والمنطق، وهل تتبع «دهب» في تصرفاتها أي عقل أو منطق؟ استسلمت «نرجس»:

- أنتِ المسؤولة عما سيحدث إذن!

---

(٦)

علم شيخ «السخاوية» أنه بمجرد أن انطلقت كلمة «كاذب» من فم «جبار» فقد فتح بها عليهم حربًا لن تهدأ رُحاها إلا باتباع سبُل الحكمة. اندفع «بحر» يواجه «جبارًا» أمام أعين أهل قبيلته هاتفًا:

- المؤمن لا يكذب، الكذب من خوارم المروءة، اتهامك لي بالكذب كقولك إنني لستُ رجلًا!

ثم أضاف هادرًا وهو يتصفَّح وجوههم، رافعًا سبابته ووسطاه:

- الآن صار لي عندكم حقان؛ حق السرقة، وحق الطعن في مروءتي!

ثم أشار خلفه هاتفًا:

- «عبدون»، أخبر الجميع بما رأيتَ.

أقبل «عبدون» يقُص عليهم ما رآه، ثلاث مرات يعبر «جبار» حدود القبيلة ثم يسوق من جمالهم ويغادر بها.

التفتَ شيخ «السخاوية» إلى «جبار» يسأله مُستنكرًا:

- هل هذا صحيح يا «جبار»؟

«جبار» الذي تساقطتْ عليه النظرات المترقبة من كل حدب وصوب، قال باستعلاء:

- نعم، صحيح.

تعالت همهمات الاستنكار، فأضاف صائحًا:

- لكنني لم أسرقهم، بل أعدتهم إلى صاحبهم!

ثم أشار إلى رجل بسيط وسط الجمع، تضطرب خلجات وجهه، وتتشنَّج أطرافه، أمره بالاقتراب، ثم استطرد بصوته الجهوري:

- كان لهذا الرجل عشرة جمال في المرعى المفتوح، اختلطتْ بجمال «بحر»، فضمَّهم إلى جماله، ثم ختمهم بختم «السوارفة» ورفض أن يعطيه إياهم، فقصدني الرجل لأرد له جماله، فذهبتُ واستعدتهم.

قالها بفخر وهو ينظر في عيني «بحر» مُتحديًا، رفع «بحر» سبابته ووسطاه وإبهامه، هادرًا:

- الآن صاروا ثلاثة حقوق؛ حق السرقة، وحق الطعن في مروءتي، وحق اتهامي بإدخال المال الحرام على نفسي وعشيرتي وقبيلتي.

تحرَّك «بحر»، ووقف أمام الرجل المضطرب، وقفة لا يهتز له فيها طرف، ولا يتلجلج فيها منطق، وقال:

- واجهني، أسمِعني اتهامك بفمكَ يا هذا، وإن كان لك عندي حق سأضاعفه لك، أما إن كان لي عندك حق فستدفع ثمن اتهامك غاليًا.

عندئذ أدرك شيخ القبيلة أن الزمام يكاد أن يتفلَّتْ من قبضته، الاتهامات تروح وتغدو أمام عينيه، و«حَمَد» يقف مُتحفِّزا بجوار أخيه في انتظار إشارة منه للفتك بـ«جبار». تنحنح الشيخ بقوة، وقرر ما بدا له أنه الفيصل في هذا الموقف:

- اتهام امام اتهام، إذن نحتاج إلى حَكم للفصل في هذا الامر.

ثم هيمن بوقفته أمام «بحر»، رفع رأسه عاليًا، وقال مقولته غير القابلة للنقاش:

- سنذهب إلى «المُبشِّع»، وهو الذي سيفصل بيننا يا «بحر»!

في بهو الفندق تعجبتْ «شفق»:

- «أكمَل»! ماذا تفعل هنا؟

اتسعتْ ابتسامته ولم يجبها، ساقها و«نرجس» اتجاه إحدى القاعات، لم تفهم ما يحدث إلا عندما مالت «نرجس» صوب أذنها وهمست:

- آسفة، حاولتُ أن أمنعها، لكنني لم أستطع.

انفتح باب القاعة، فتساقطت فوقها أوراق الزينة الملونة، وفي الداخل رأت كل العاملين بالشركة، يصيحون، يضحكون، يهتفون، يرتدون ثيابًا مُبهرجة، وحول رقابهم أشكال من الزينة الملونة، وكعكة كبيرة تتوسط إحدى الطاولات.

- عيد ميلاد سعيد يا أستاذة «شفق»!

ارتبكتْ «شفق»، وشعرت بكفَّيها يتعرَّقان في الحال، وقبل أن تتمكن من أن تنطق بكلمة واحدة، شعرت بمن يحتضنها من الخلف، التفتت لتطالع وجهها في المرآة!

هكذا تشعر كلما وقفت أمام «دهب» وجهًا إلى وجه، ترى كلٌّ منهما نفسها في وجه الأخرى، نسخة متطابقة بشكل كامل!

عانقتها «دهب» مبتهجة تقول بمرحها المعتاد:

- عيد ميلاد سعيد لنا؛ أنا وأنتِ.

وقبل أن تتمكن «شفق» من استيعاب المفاجآت المتلاحقة، وقفتْ «دهب» تمسك بيد أختها، وتوجه كلماتها إلى كل الحاضرين قائلة بطريقتها المرحة:

- سيداتي آنساتي سادتي.. اليوم ليس ذكرى ميلادي أنا وتوأمي «شفق» فحسب، بل أحببنا أن نشارككم أيضًا بفرحتنا المزدوجة.

ثم أشارت صوب «أكمَل» تقول مبتهجة بطريقة مسرحية:

- خطبة «شفق» و«أكمَل».

صفق الجميع ببهجة، تصاعدت وتيرتها، وخلقت موجات صوتية اقتحمتْ أذني «شفق» وأشعلت فتيل صداع بغيض في رأسها. مسَّتْ جبينها، هل ارتفعتْ حرارتها أكثر أم تتوهَّم ذلك؟

ترمق الجميع بنظرات غائمة، ترى ولا ترى! دنت منها «نرجس» تقول بتوجس:

- «شفق»، تمالكي أعصابكِ وانظري خلفكِ.

التفتت «شفق» ببطء، قلبها يخفق في وَجَل. بينما «دهب» تُعلن في ابتهاج:

- وخطبتي أنا أيضًا.

تزامنت كلماتها مع رؤية «شفق» للرجل المَقبل عليها. غامَت الدنيا امام عينيها، هل هدا هو الرجل الذي اختارته «دهب» ليكون خاطبها؟

تعلَّقت أنظارها المُستنكرة بوجه الرجل الذي تراه للمرة الثانية!

في الليلة الثالثة جاءَتني النجمة طوعًا
حين فاض حملها
وتخبَّط نومها
ترجوني لأسمعها
أواسيها وأمنعها
عن سماع أصوات بني الإنسان!
آناء الليل.. وفي كل ليل
تهفو إليهم.. وتحمَل عليهم
ترنو إليهم.. وتغضب عليهم
تدعوهم بـ «حُثالة العاطلين عن الحب»!
ألهذا السبب تكون النجوم عن أيادينا بعيدة المنال؟!
لأننا لا نعرف كيف نحب!
أتُعاقبنا على الغلظة.. والقساوة
الزجرة.. والفظاظة
الجفاء.. وأُلفَة الخيانة؟
بصبر الجِمال سمعتُ شكايتها
واستنطقتُها لتُكمل حكايتها!

إذا كان لكل منا نصف يُتمِّمه..
فلماذا نقع كثيرًا مع أنصاف تأكل أرواحنا ولا تُكمِّلها؟

(١)

تجمَّع المدعوون حول قالب الحلوى، وما صاحبها من مُشهِّيات وعصائر، لم ينتبه أي منهم لشُحنة التوتر الآتية من مقدمة القاعة، كل منهم مُنشغل بسكب آرائه المُستنكِرة في أذن الآخر، عن الرجل الذي لا يليق كخاطب لـ«دهب» ابنة «منصور النمر»، والذي يبدو بجوار «أكمل» كأحد عُمَّاله!

القوة التي تمكَّنتْ «شفق» من استجماعها لتلتزم الصمت، غابت عن «أكمَل»؛ هتف بحدة اجتذبتْ أنظار بعض الحاضرين:

- أنتَ! ماذا تفعل هنا؟ كيف خرجتَ من الحبس؟!

انتفضتْ «شفق» تقول بحدة وهي تُمرر أنظارها على الوجوه حولها:

- «أكمَل» من فضلك، لا أريد فضيحة هنا!

تمالكتْ أعصابها ورمقتْ بنفور بالغ الرجل البدوي الذي قطع عليها الطريق بالأمس! تتباطأ أنظارها فوق جُرح وجنته البغيض، ثم التفتت إلى «دهب» وقالتْ بحزم وهي تُشير برأسها صوب الشرفة:

- أريدك الآن.

اخترقتْ الصفوف، تُوزِّع الابتسامات على هذا وتلكَ، هل يُمكن للبسمة أن تكون قناعًا تنكريًّا ناجحًا؟ نعم بالتأكيد.

في الشرفة تواجه الأختان، كل منهما تقف أمام الأخرى، الطول نفسه، الحجم نفسه، الوجه نفسه، لكن شتان بين العينين، في عين «دهب» يستعر العناد، جنبًا إلى جنب مع المرح! مزيج عجيب لا يفهمه إلا أختها.

أما عين «شفق» كانت نبع غضب متأجج، يوشك أن يتحول إلى بركان حارق. بيد مرتعشة أشارت إلى زاوية يقف فيها الرجل البغيض، قاطع الطريق، ثم قالت:

- ما هذا؟ أنتظر منكِ تفسيرًا مقنعًا؟

رفعتْ «دهب» كتفيها وقالت ببساطة مُهلِكة:

- خطيبي.

تحاملت على أعصابها لضبط نبرة صوتها على موجتها الهادئة:

- هذا الرجل مجرم! صدمني بسيارته بالأمس، كان يحمل سلاحًا ناريًّا في صندوق سيارته كاد أن يقتلني به أنا و«أكمل»، ثم إنه محبوس على ذمة التحقيق، كيف ومتى ولماذا خرج من الحبس؟!

بالبساطة المُهلِكة نفسها، وإن شابها بعض السخرية قالت «دهب»:

- أووووه.. قاطع طريق مرة واحدة؟!

ثم شبَّكتْ ذراعيها في وضعية دفاعية تحفظها «شفق» جيدًا، تمامًا كما كانت تفعل وهي صغيرة حين تأتي بأمر يستنكره الجميع، فتُدافع عنه باستماتة:

- خطيبي لم يكن ليؤذيكِ يا «شفق»، كان يَحاول مساعدتكِ فحسب، لولا ان خطيبكِ الغبي ثار عليه دون سبب، ضربه على رأسه وكاد أن يقتله. برأيك من منا ينتظر الاعتذار من الآخر؟

- لم تُجيبيني بعد يا «دهب»، كيف خرج؟

أراحتْ كفَّيها على وسطها، الآن تفهم «شفق» أنها سترمي بينهما بعبارة مُتحدية، تفك بها قيد أعصابها وتقودها صوب الجنون:

- فعلتُ تمامًا كما خطر ببالكِ الآن، انتحلتُ شخصيتكِ، غيَّرتُ أقوالكِ وتنازلتُ عن المحضر؛ جواز سفركِ القديم ما يزال معي.

وكأن كلماتها المُستفزة لم تكفِها، أعادت بعض خصلاتها الثائرة خلف أذنيها، ثم مسحت فوق شعرها الأسود القصير الذي لامس كتفيها بالكاد، واستطردت:

- لكن عليكِ الذهاب إلى القسم لإتمام الإجراءات، لا أفهم في هذه الأمور وخشيتُ أن يطلبوا أخذ بصماتي.

الآن فهمت «شفق» لماذا يرى الجميع أن خطبة «دهب» مرادف لـ«كارثة»! هذا الرجل كارثة تسير على قدمين. احتدَّتْ:

- لم تُدهشيني قط يا «دهب»، أنتِ كما أنتِ لم تتغيري.

من رحم الأرض يُنبِت ماءُ السماء أثمارًا مُتباينة في الشكل واللون والطعم والفائدة، ومن ماء الأرحام يُخرِج الله من البذرة الواحدة ثمرتين مُتماثلتين في الشكل واللون، مُتباينتين في الطعم والرائحة!

نمَتْ «دهب» فراولة مغناج، تطبع لونها العنيد قسرًا على ما تمسَّه يداها من موجودات، ونمَتْ «شفق» كثمرة تمر صفراء، جافة الطعم، لم تنضج بعدُ لتكون رُطبًا أسود.

- كيف تسمحين لنفسكِ بارتداء خاتم رجل دون علم أهلكِ؟ كيف تفعلين ذلك يا «دهب»؟

بنظرات مُتحدية، ردَّت الاستنكار بمثله:

- أنتِ فعلتِ الشيء نفسه، فلماذا تلومينني؟

احتدَّتْ «شفق»:

- لم أفعل الشيء نفسه، أبي كان يعلم كل شيء، بل هو الذي رتَّب كل شيء، رتب سفري إلى الصين مع «أكمل»، مع أن الأمر لم يكن يستدعي وجود محامي الشركة، ثم إبلاغ أمي بأمر الخطبة بعد وصولي بلحظات.

هو وعم «سميع» من فكرا في ذلك لإجبار أمي وأم «أكمل» على الموافقة.

لم أفعل شيئًا دون علم أبي، هو من طلب مني فعل ذلك!

تبدَّتْ الصدمة فوق قسمات «دهب»، فاستطردتْ «شفق»:

- أسأتِ الظن بي، أليس كذلك؟ أحسنتِ!

بحركة مُباغتة عانقتها «دهب» بقوة، قوة بالغة، كادتْ أن تسحق عظامهما معًا، ثم قالت مُتوسِّلة:

- أرجوكِ كوني معي، أحتاج إليكِ كثيرًا؛ ليس لي سواكِ.

انتفضت مشاعرها، تملس فوق شعر اختها بيد، وبالاخرى تعانق ظهرها بالقوة ذاتها:

- لا تخافي يا «دهب»، أخبريني، هل يُهددكِ هذا الرجل بشيء؟ هل يبتزكِ؟

ثم فضَّتْ عناقهما، أمسكتْ بوجهها بين كفَّيها، وقالت بقوة وحماس، مثل جُندي يستعد لملاقاة العدو:

- أخبريني بكل شيء، لا تخافي منه، لا تخافي من أي أحد، سأنقذكِ كما أفعل دومًا، لا تخافي. هيا، أخبريني بكل شيء.

انطفأت شعلة حماسها في الحال، وباتَ المنطق بعيد المنال، حين أجابت «دهب» بعينين برَّاقتين يغشاهما الغمام:

- أحبه يا «شفق»، لا أريد سواه!

تلاقتْ أنظارهما عند مفترق طريق طويل، تُحاول «شفق» أن تسير لآخره، وكأنها تنظر في أعين لا تعرفها، وترى روحًا لا تألفها.. «دهب» تُحِب رجلًا لا يرتدي الغالي من الثياب، ولا يحمل وسامة عشرات الصور التي تحتفظ بها في هاتفها، لا يملك وجاهة الطلَّة، ولا رفعة المكانة، ولا تهفو إليه قلوب الفتيات! كيف تغيَّرتْ نظرتها إلى الرجال؟ بل إلى الحياة خلال ساعات معدودات؟

عندما ودَّعتها في المطار قبل أسبوع كان كل شيء طبيعيًّا، ماذا حدث لها وقلب جبال قناعاتها رأسًا على عقب؟

حب من أول نظرة؟ لا، مستحيل، لا يملك الحب سطوة الأعاصير، الأعاصير وحدها تدُك الجبال!

جذبتها عائدة إلى الحفل:

- هيا يا «شفق»، دعينا نستمتع قليلًا، جميعنا نحتاج إلى ذلك.

مفاجأة اليوم كانت كافية لتجعلها تكره المفاجآت طيلة سنوات عمرها القادمة!

لم تفُتها نظرات المدعويين الساخرة، ولا لمزهم وهمساتهم التي تُمرَّر من خلف ظهرها، لم يكن عليها ضبط مشاعرها فحسب، بل أيضًا السيطرة على أبالسة الغيظ التي تعيث في صدر «أكمل» فسادًا. مال عليها يقول بحدة:

- لا أصدق ما يحدث، متى خُطِبَتْ «دهب»؟ وكيف وافق حماي العزيز على رجل مثل هذا زوجًا لابنته؟

دافعتْ «شفق» بحزم عن أبيها، بينما نظراتها تطوف في الحاضرين، كي لا ينتبه أحدهم إلى المشادة التي تحدث بينهما:

- لم يوافق بالطبع.

- كلاسيكي جدًّا.. أختكِ «دهب» وقراراتها المستفزة.

نظرتْ إليه «شفق» لائمة، فاستطرد:

- مادا؟ اتتكرين؟ الم نواجه عدة مشكلات مع العملاء من تحت راسها؟ اخرها حين قررت ان تطرد عميلة من عشاء عمل لمجرد أنها جاءت ترتدي نسخة مُشابهة لفستانها، مُدعية أنها ارتدته عمدًا لإغاظتها.

استقرَّتْ نظراته الغضوب فوق وجه الرجل الذي كان بالأمس فقط يكيل له اللكمات والركلات في العراء، الآن يُشاركه المكان ذاته، والهواء ذاته، وهو مُجبرٌ على التظاهر أن كل شيء يسير على ما يُرام، تململ وهو يقول:

- لا أطيق رؤيته، دقيقة أخرى وسأضربه ثانية.

احتدَّتْ «شفق»:

- «أكمل»، إياك والتسبب في فضيحة هنا، ما نتحدث عنه هو سمعة أختي، أتفهم؟! ثم إن الرجل يقف بعيدًا ولا يقترب منا، هذا حفل عيد ميلاد وليس زفافًا، لن يطول الأمر؛ بعد قليل سيتفرق الجميع.

- صدمكِ بالأمس، وكاد أن يقتلنا بسلاحه، أختكِ خُطِبَتْ لقاطع طريق يا «شفق»! ما كل هذا البرود الذي تتحدثين به وكأنكِ لا تهتمين لكل ذلك؟!

- أهتم، بالطبع أهتم، لكن لا هذا وقته ولا مكانه، هل أتركك تذهب وتضربه؟ وماذا أفعل أنا في هذه الأثناء؟ هل أضرب «دهب» أنا الأخرى؟ هل بهذه الطريقة ستُحَل المشكلة؟

- سأخرج لأتنفس بعض الهواء بالخارج؛ أشعر بالاختناق.

لم تحثه على البقاء، لعل ابتعاده عن مصدر اللهب يُخفف قليلًا من ثورته. وكأن «نرجس» كانت تنتظر مغادرته لتُقبل عليها باهتمام:

- هل أنتِ بخير؟ وجهكِ أصفر، وعيناكِ ذابلتان، هل أكلتِ شيئًا اليوم؟

بادرتها «شفق» بفضول بالغ:

- متى حدث ذلك؟ وكيف حدث؟ أخبريني بكل شيء يا «نرجس».

- سأخبركِ، لكن دعينا نجلس عند هذه الطاولة، أشعر وكأنكِ ستفقدين وعيكِ.

جلستا مُتجاورتين، تبتسم «شفق» في وجوه من يرمونها بالابتسامات، في حين أن كفيها المعقودين أسفل الطاولة يأكلان بعضهما أكلًا. وضعتْ «نرجس» أمامها كوب عصير برتقال طازج وحثَّتها على شربه، فقط لتبدأ «نرجس» في الكلام تناولتْ «شفق» رشفة منه. فقالت «نرجس»:

- صدقيني لا أعرف الكثير، في يوم سفركِ، أي منذ أسبوع بالضبط فوجئنا بهذا الخبر ينتقل من الشركة في القاهرة إلينا.. تعرفين أن خبرًا مثل هذا لا يُمكن كتمانه. حضرت أختكِ إلى الشركة وبرفقتها هذا الرجل، وقالت أمام أبيكِ والجميع إنه خطيبها.. بصراحة أختكِ مجنونة وكلنا نعرف ذلك، لكن ما فعلته فاق خيالنا جميعًا، الرجل -كما ترين- يبدو من مظهره أنه وقع على صيد ثمين، طبعًا ابنة «منصور النمر» ستفتح له ألف باب وباب. لكن الغريب أن «دهب» ليست غبية ليتم اصطيادها، لا أعرف كيف نجح في ذلك، حقيقي لا أعرف.

- أنا أعرف.

قالتها «شفق» وهي تتابع الرجل بانظارها، بينما يتحدث إلى «دهب» همسًا. عاجلتها «نرجس» بدهشة:

- تعرفين؟!

بحزمٍ أجابتها:

- هذا الرجل يبتزها بشيء، لا أعرف ما هو، لكنني سأعرف.

أخذَت «نرجس» نفسًا عميقًا ثم قالت:

- دعيني أخبركِ إذن أن هذا ما ظننته أنا أيضًا، لسبب مهم.

سألتها «شفق» بلهفة:

- ما هو؟

- هذا الرجل كان أحد العمال الذين يعملون لدينا، لكن والدكِ طرده من العمل بعد أمر الخطبة.

تضاعفتْ صدمة «شفق»، هكذا إذن! أحد العمال هو، وتمكَّن بشكل ما من معرفة شيء استخدمه كسلاح ابتزاز تجاه رئيسته في العمل، هل للأمر علاقة بحادثة العمال المشؤومة؟

تأمَّلتْ حركات الرجل وسكناته، تقاسيم وجهه الحادة، الجُرح الذي يشُق وجهه كالأخدود، الضمادة الكبيرة التي تواري جرح يده اليُسرى.

عند هذه الضمادة توقَّفتْ أنظارها، وتوقف الزمن، ثم سار عائدًا إلى اللحظة التي تقاعستْ فيها عن مساعدته وفتح الباب، في الصحراء تركته للكلاب.. للموت! هذا شيء لا يُمكن نسيانه، ولا يُمكن غفرانه!

صدره الآن يمتلئ كُرهًا وبُغضًا وعداوة، وكل هذا الإعصار سيطول «دهب»، حتمًا سيطولها.

لكنها لن تسمح بذلك، ستمنعه من أن يؤذي أختها.

رنَتْ إلى نظراته لـ«دهب»، كانت جامدة، جاحدة، تشتعل قسوة، نظرات لا يرمق بها مُحِب حبيبته، بل أشبه بنظرة سيد إلى ملَكة يمينه!

وفي عيني «دهب» خضوع لم تعهده عليها قط.

تحت هذه الحكاية سر مدفون، ولن تتوقف حتى تكشف ستره، وتنقذ أختها من بين براثنه.

---

(٢)

صباح اليومِ التالي كان عامرًا بالزيارات ككل الصباحات في بيت شيخ القبيلة. كعادتها، جلست «أم ذيل» تقُص على أحفادها ما جادت به ذاكرتها من حكايات، بينما زوجات أبنائها يؤدين ما عليهن من أعمال.

وفي ركن قصي جلست «عِيدة» شاردة، تمسح على بطنها وتردد بعض الأدعية، فعاجلتها إحدى سلفاتها ساخرة:

- أتدعين الله كي يكون صبيًّا؟

رمقتها «عِيدة» لثانيتين، ثم قالت مؤكدة، وهي تشُد على بطنها شدًا:

- سيكون صبيًا.

فبادرتها سلفة أخرى:

- أراها ستكون فتاة؛ الصبي يسرق جمال أمه طوال أشهر الحمل، والبنت تُزيد جمالها.. انظري إلى وجهكِ في المرآة يا «عِيدة»، بشرتكِ ناعمة وأنفك صار بحجم ثمرة عنب.

شدَّتْ «عِيدة» على بطنها أكثر وأكثر، حتى كادت أن تسحقها، وقالت:

- سيكون صبيًّا!

حالَ مجيء «عين» بين نشوب شجار بينهن، استقبلتها النساء بودٍّ وترحاب، يعلمن أنها ستكون سِلفة لهن في يوم تأخر قدومه، لكنه آتٍ لا ريب في ذلك، «عين» لـ«بحر» و«بحر» لـ«عين»، هذا من نواميس الكون، وهل يُبدَّل الكون قوانين تُسيِّره؟

دنتْ «عين» من «عِيدة» بعدما سلَّمتْ على النساء، جلستْ بجوارها تسأل أحوالها. مسحتْ «عِيدة» فوق بطنها بحنان هذه المرة، ثم قالت:

- أنا بخير، وابني كذلك.

ربَّتتْ «عين» فوق بطنها تقول ببسمة رائقة:

- ابنكِ سيكون أجمل صبي للسوارفة.

ضحكتْ «عِيدة» وكأن ما قالته «عين» بِشارة، تلقَّفتها في الحال، وأضاءت النور بين عينيها. بقلقٍ تجهل كيف تخفيه سألتها «عين»:

- إن شاء الله سيكون صبيًّا، لكن ماذا لو كانت بنتًا يا «عِيدة»؟ ماذا ستفعلين عندها؟

بدا وكأن وجهها قد تجعَّد فجأة، هل يُمكن للمرأة أن يزداد عُمرها في لحظة؟ حتى إن صوتها خرج باهتًا، وكأن الزمن استهلكه وأبلاه:

- إذا لم يكن صبيًّا.. سأقتل نفسي يا «عين».

قالتها ببساطة قذفتْ بالذعر في نفس «عين»، كادت أن تفقد وعيها لهول جوابها، تفرَّستْ فيها، لم تكن تمزح، ستفعلها بالتأكيد!

- إياكِ أن تقولي لأحد.

هزت «عين» راسها نفيًا بقوة، وكادت روحها الهشة ان تتفتت تحت وطأة كلمات «عِيدة» المفزعة، عالم «عين» هادئ ومُسالم، لا تتخلله كلمات قاسية، أو أحداث دامية. طال الصمت بالفتاتين، شردت «عين» في الجدار، وكأنها تقرأ طالعها فيه، سألتها «عِيدة» لما رأت الهم يكتسح وجهها:

- أما زال «بحر» يتجاهلكِ؟

ترقرق الدمع من العين، وفاض فوق وجنتيها، كعادتها تفشل في كتم ما ينغمس به قلبها من هموم. أقرَّتْ بما يعتمل داخل صدرها:

- لا يريدني يا «عِيدة»، أعرف ذلك.

- وإلى متى يا «عين»؟ أما آن أوان النسيان؟

رفعتْ «عين» كفًّا وأراحته فوق صدرها، تمامًا في المنتصف وقالت على نغمات قلبها النابض:

- وهذا يا «عِيدة»؟ كيف أعلمه النسيان؟

استرقتْ «عِيدة» نظرة صوب الباب، ثم قامت وأغلقته، عادت إلى جوارها وقالت:

- اسمعي يا «عين»، «بحر» ليس كباقي إخوته، سكن في «العريش» ودخل مدارسهم، عبر الحدود إلى بلدان نساؤهم ليسوا مثلنا، من فتَّح عينيه ورأى ليس كمن عاش طيلة عمره وسط الرمل والصخر.

بحيرة بالغة سألتها «عين»:

- أعرف كل ذلك يا «عِيدة»، لكن لم أفهم ماذا تقصدين.

- «بحر» لن يختارك زوجة له بملء إرادته، ليس لأن بكِ عيبًا حاشا لله، بل لأنكِ لن تكفيه أبدًا.

ارتعشت شفتاها، ترقرقت عبرات جديدة فوق وجنتيها، فأردفتْ «عِيدة»:

- أمامكِ طريقان لا ثالث لهما؛ إما أن تقبلي عدم رغبة «بحر» بكِ وتُحاولي النسيان، أو...

توقَّفتْ بخبثٍ تستقبل وفود فضولها، فبادرتها «عين» بلهفة:

- أو ماذا يا «عِيدة»؟

- أو تُجبريه على الزواج بكِ.

اتسعت عيناها دهشة، وهتفت مُستنكرة:

- أجبره؟ هل أضع سلاحًا فوق رأسه؟

ضحكت «عِيدة» وقالت:

- نعم، سلاح، لكن ليس سلاحًا ناريًّا كالذي عند أبيكِ، بل سلاحًا أنثويًّا اسمه مكر بنات حواء!

في ديوان شيخ «السوارفة» تشارك الجميع طعام الغداء، بعدما نحروا بقرة، وتشارك كل بيت في إعداد أطباق اللحم؛ بطهيها في القدور بالماء والملح والبصل وحب الهيل فوق نيران الحطب، وصنعوا منها «المندي» و«المنسف».

جمعت المائدة العامرة الكبير والصغير، الغني والفقير، وجهاء القوم وابن السبيل، ثم طافت أكواب الشاي والقهوة على الجميع، وكلما أنهى رجل كوبه جدده بآخر. يتباحث شيخ «السوارفة» في أمور أبناء قبيلته، يحل لهذا مشكلته، ويمنح هذا مسألته، ينصر المظلوم برد مظالمه، وينصر الظالم بالضرب على يده.

في الديوان كان الطعام والشاي متاحين للضيوف وعابري السبيل، كلما مرَّ بهم رجل استوقفوه ودعوه إلى مشاركتهم مجلسهم. ثم أرموه بالقهوة التي استخدموا لإعدادها المحماس[1] والمهباش.[2] وإلى جوار شيخ «السوارفة» جلس خمسة من أبنائه، يتسابقون لمساعدة الكبير حتى يجلس، والصغير حتى يجد ضالته.

وحين انفضَّ الجمع لم يبقَ إلا «بحر»، وعمه «برهوم» والد «عين».

فبادر شيخ القبيلة أخاه:

- كيف حال مزرعة «الجوجوبا»؟

أجاب أخوه «برهوم» بغبطة وهو يشير إلى «بحر»:

- والله بأحسن حال، من الجيد أننا استمعنا إلى نصيحة «بحر» وزرعنا «الجوجوبا» في أراضينا. ما شاء الله تأتينا بمكاسب كبيرة تفوق محاصيلنا الأخرى.

اتسعت ابتسامة «بحر» وهو يمد يده لأبيه بكوب من القهوة قائلًا:

- هذا لأنها تُنتج زيوت الطائرات، يعني وقودًا نباتيًا رخيصًا، وأيضًا يستخدمون زيوتها في صناعة مستحضرات التجميل الغالية.

أقرَّ أبوه قائلًا:

- كنتُ خائفًا في البداية من زراعة هذه الشتلات، لم نسمع عن «الجوجوبا» من قبل، والإنسان عدو ما يجهل.

ثم ربَّتْ فوق كتف «بحر» قائلًا:

- لكنني أثق في ولدي «بحر».

وكان الجميع يعلم مدى ثقة الشيخ في «بحر» ورغبته في أن يخلفه في مشيخة القبيلة، على الرغم من أنه أوسط أبنائه السبعة لا أكبرهم، لكنه وجد فيه ما غاب عن إخوته الأكبر سنًّا؛ القوة والشجاعة والإقدام، ومشيخة القبيلة تحتاج إلى رجل قوي لا يعرف قلبه الخوف أو الجُبن أو التردد.

قال عمه «برهوم» بإيحاء لم يخفَ على «بحر»:

- أتمنى أن يرث منه أبناؤه نصاحته وذكاءه.

تهرَّب «بحر» من النظر في عين عمه، ثم استأذن للانصراف.

مال العم على أخيه قائلًا:

- طال هذا الأمر كثيرًا يا شيخنا، إلى متى ستنتظر البنت؟

لم يجد الشيخ ما يقول، ربما لو كان ابنًا آخر لأمره وزوَّجه غصبًا، لكن إرادة «بحر» كالموج؛

يستحيل تقييد حركتها.

إن أجبره سيخسره.. هل يستطيع تحمُّل خسارة ابنٍ آخر؟!

قال أخوه بحزم وهو ينهض للانصراف:

- أنت شيخنا وكلامك يسري على رقابنا، لكن إذا لم يكتب «بحر» كتابه على «عين» ويتزوجها هذا الشهر فأنا في حِل من هذا الاتفاق.

السلام عليكم يا شيخنا.

ردَّ الشيخ السلام، وقد نوى التحدث مع ابنه للمرة الأخيرة.

«أم ذيل» التي سبقت زوجها بالنية والفِعل، دخلت على «بحر» غرفته، وفوق فراشه جاورته، ثم قالت بصرامتها المعهودة:

- رأيتُ أحفاد أولادي كلهم إلا أحفادي منكَ، حتى «حَمَد» زوجته حامل وستلد لي حفيدًا عما قريب، إلى متى ستحرمني من حمل أحفادي منكَ يا «بحر»؟ أتنتظر أن أموت فتأتي بهم إلى قبري وتقول لهم: هنا ترقد جدَّتكم «أم ذيل»؟

تضاحك «بحر» قائلًا:

- كل هؤلاء الأحفاد يا أمي وما زلتِ ترغبين في المزيد؟

دون أن تتبدد صرامتها طرقتْ لُب موضوعها:

- متى ستتزوج «عين»؟

انتفض «بحر» واقفًا، تحرَّك في الغرفة بتوتر أسد حبيس. قال بانفعال:

- ومتى ستقتنعون أنتم أنٍ مشاعري نحوها لن تتغير؟ «عين» أختي التي لم تنجبها أمي، حملتها بين ذراعي رضيعة، وعلَّمتها خطواتها الأولى وهي صغيرة، حملتها على ظهري وسرتُ بها في الطرقات مُختالًا أن لي أختًا بنتًا، هي ابنة عمي، ولن تكون أكثر من ذلك.

اعترضتْ «أم ذيل» بقوة:

- لكن الجميع يعلم أنها زوجتكَ يا «بحر».

- هذا خطؤكم أنتم يا أمي، لسنوات أقول لكِ إنها أختي ولا شيء غير ذلك، لكنكم أفسدتم عليها عقلها وجعلتموها تُصدِّق أنها زوجتي، جعلتموها تنتظر عبثًا!

نهضتْ «أم ذيل» وواجهته باللين:

- يا بني، عندما يُغلق عليكما باب واحد ستراها زوجتكَ لا أختكَ وابنة عمكَ. اسمع مني، أنا أمكَ وأكثر خبرة منك، أقول لكَ مستحيل أن تراها أختك بعد أن تصير حلالك.

زفر «بحر» بضيق بالغ، ربَّتتْ فوق كتفه تقول:

- فكِّر في كلامي يا «بحر»، وتذكر أنك لن تكسر بخاطر عمك «برهوم» فحسب، بل ستكسر بقلب «عين» كذلك. قلب «عين» مثل البلور، لا يستحق أن تقسو عليه يا ولدي.

ثم استطردت وهي تهم بمغادرة غرفته:

- هذا الزواج سينتهي بإحدى الحُسنيينِ؛ إما أن ينفتح لها قلبكَ، أو تكون سببًا في هناء قلبها.

أمضى «بحر» ليلة عاصفة بالأفكار، لا تهدأ ريحها، تبلغ زمجرتها أبعد نقطة في صدره، وتهزه هزًّا.

المحماس: آلة من حديد أو نحاس، تُستخدم لتقليب القهوة على النار.
المهباش: يُسحق فيه البن.

(٣)

ما إن تطفَّلتْ شمس المشرق على غرفتها حتى استيقظتْ في الحال، لكنها لم تنهض من فراشها فورًا، اتكأتْ على وسادتها تشرد في السماء البادية من نافذة غرفتها بالفندق، أي ورطة تلك التي ساقها أبوها إليها؟

هل يعلم أن الرجل مجرم وقاطع طريق؟ كيف يُثقل كاهلها بتلك المهمة إن كان يعلم؟

كدأبها طفقت تُفكِّر بهدوء، تُنحِّي الانفعالات العاطفية جانبًا، لن تنجح في التفريق بينهما باستخدام القسوة أو الزجر، ففي النهاية هي و«دهب» متماثلتان في السن، ليست ولية أمرها لتُجبرها بالأمر والنهي.

إذا كان ولي أمرها نفسه قد فشل في ذلك فهل تنجح هي؟ عليها أن تكون أكثر حنكة في التعامل مع هذه الكارثة، تمامًا كما تفعل دومًا.

في الحرب أول ما يحرص عليه الجيش هو دراسة العدو، ومعرفة مدى قوته وسعة عتاده، وأسلحته، ونقاط قوته، وإستراتيجيته، وثغراته.

الخطوة الأولى هي دراسة عدوها إذن.

دفعتها تلك النقطة لأن تنهض بنشاط، وتستعد لمواجهة يوم جديد.

نظرت إلى وجهها في مرآة الحمام، وكأنها تتحدث إلى «دهب»، سأنقذكِ يا أختي، لا تخافي.

مُعاينة الموقع بعد الحادثة كان أمرًا ثقيلًا على نفسها، أشد وطأة مما تخيلته وهي قادمة على طول الطريق إلى الموقع. في هذا المكان وقعت بنايتان وواجهة البناية الثالثة، كانوا بذرة لإنشاء وحدة سكنية جديدة، تتعاون فيها شركة أبيها مع وزارة الإسكان من أجل توفير منازل للشباب المقبلين على الزواج بأسعار مناسبة.

ما زالت ترى في كوابيسها الصور التي تم تداولها على منصات التواصل الاجتماعي وفي التلفاز، الدماء والأشلاء، نواح الثكالى وأنَّات المصابين.

ما إن دنتْ من الأنقاض التي تم رفعها لإعادة البناء فوقها من جديد حتى اشتمَّتْ في الهواء رائحة ألم.. هل للألم رائحة؟
رائحة نفَّاذة، اخترقتْ رئتيها، وطفقتْ تنغز قلبها كأشواك الصبار.

تحاملتْ على نفسها لتجاهل الذكرى والاقتراب خطوة فخطوة من الموقع. الرمال الصفراء التي تحيط بها من كل مكان، العمال يقومون بأشغالهم، الحياة تستكمل سيرها، حتى الأرض بدا أنها قد نسيتْ كؤوس الدماء التي ارتوتْ منها قبل أسبوعين.

لا شيء يدل على الموت، على الألم، على الرغم من ذلك فرائحته كانت حاضرة في أنفها وبقوة.

- يا مرحبًا يا سِت الكل.. أقصد أستاذة «شفق».

أقبلَ الرَّيس «مستور» يُحييها بحفاوة أثارت استياءها لسببٍ لم تفهمه.

قالت:

- اهلا بك يا ريس «مستور»، ما اخبار العمل؟

- العمل عشرة على عشرة.

- هل تحدث أحد آخر إلى الصحافة؟

- لا، اطمئني يا أستاذة، نبَّهتْ عليهم ألف مرة، وهددتهم بالطرد إذا فتح أحدهم فمه بربع كلمة.

قطع حديثهما أحد العمال، ما إن رأى «شفق» حتى جرى صوبها ظنًّا منه أنها «دهب»، على الرغم من أنها تُغطي رأسها بحجاب وهو ما لم يعهده على «دهب». قال بلهفة:

- يا باشمهندسة أرجوكِ اسمعيني، والله العظيم لولا أنه مريض لكان قد أتى قبل الجميع، يومان فقط، أرجوكِ امنحيه يومين فقط، لله.

نظرتْ «شفق» إلى الريس «مستور»، وبدلًا من أن يوضِّح لها مسألة الرجل، زجره:

- إذا لم تذهب من أمام وجهي الآن سأطردك كما طُرد زميلك، هيا من هنا.

أوقفته «شفق» بإشارة من يدها وطالبته بأن يشرح لها مسألته. قال العامل:

- العامل الذي طردتِهِ يا باشمهندسة لأنه لم يحضر منذ أسبوعين، أي منذ أن وقعت الحادثة، ليس له مصدر رزق آخر، وأريدك أن تمنحيه فرصة أخرى، هو قريبي ووالله رجل غلبان وابن حلال.

صاح الريس «مستور»:

- كذاب، الرجل مثل البمب.

- والله مريض.

لم يتمكن العامل من أن يقول سوى «مريض»، لم يستطع أن يُقدم عنه شهادة صحية تثبت مرضه، لم يتمكن من أن يشرح أن صديقه مريض من الداخل، جسده سليم لكن روحه مريضة حد الاحتضار، لو كان للروح علاجات كما للجسد لأخبرهم أن روح صديقه تحتاج إلى جهاز إنعاش!

لم يتكلم بكل ذلك، إلا أن «شفق» شعرت بحيرته، فسألته بخفوت:

- هل كان في الحادثة؟

أومأ العامل برأسه، وتقطَّب جبينه مُستعيدًا الذكرى الأليمة.

- ما اسمه؟

- «بشير».

وضَّحتْ له «شفق» أنها توأم «دهب»، ثم قالت:

- أعطني عنوانه، هل تعرف الكتابة؟

أخرجت من حقيبتها قلمًا وورقة ومنحتهما له، فدوَّن فوقها العنوان وهو يشكرها بحماس بالغ، ثم انصرف إلى عمله. اعترض الريس «مستور» قائلًا:

- ولكن يا أستاذة هكذا سيطمع العمال فيكِ، كنت أرى أن....

- حسنًا يا ريس «مستور»، سنُكمل حديثنا بعدما تنتهي من عملك، سأنتظرك في الشركة.

ولم يكن سبب انصرافها السريع إلا عدم قدرتها على الوقوف فوق هده الارض اكتر، ما عادت قادرة على استيعاب رائحة الألم، وأشباح الذكرى الدامية.

أوقفتْ سيارتها بغتةٍ، واضطربتْ كمن رأت شبحًا، في الاتجاه المقابل كان قاطع الطريق قادمًا بسيارته، ما زالت تُفكِّر فيه كقاطع طريق، وليس كخطيب «دهب».

لفتَ صوت فراملها انتباهه فأوقف سيارته هو الآخر. الطريق الخالي إلا منهما جعلها تشعر أنها تعيش هذا الموقف للمرة الثانية، الفارق الوحيد أن الشمس هي الشاهدة لا القمر .أخذت نفسًا عميقًا ثم ترجَّلتْ من سيارتها، دنتْ من سيارته بثقة، فلمَّا لم يتحرك نقرتْ فوق النافذة المغلقة.

أوقف موتور سيارته، ثم ترجَّل منها هو الآخر، عقدتْ ذراعيها أمام صدرها، ثم تذكَّرت أنها حركة دفاعية يتخذها الطرف الأضعف، ففكتْ عقدتهما في الحال. سألته:

- إلى أين تذهب؟

لوَى شفتيه، لا تعرف إن كان قد استرق بسمة ساخرة خاطفة، أم حركة مُتذمِّرة، أجاب سؤالها بسؤال:

- هل أنتِ عسكري مرور؟

احتدَّت نبرتها وهي تُشير خلفها:

- هذا الطريق يقود مباشرة إلى موقع العمل الذي تتولاه شركتي، لذا من حقي السؤال، والآن أجب عنه من فضلك.

أشار هو الآخر إلى الجهة التي نوى التوجه إليها وقال:

- أنا ذاهب إلى موقع عملكم بالفعل، لكن من أجل أمر يخصني.

- كل ما يخص شركتي، وموقعي، وعمالي يخصني كذلك.

رفع كفيه قائلًا:

- لا أريد أن أتجادل معكِ.

استدار عائدًا إلى سيارته، أغلق الباب، فما كاد يُعيد تشغيل السيارة حتى نقرت النافذة ثانية بقوة كشفت غيظها، ترجَّل من السيارة ببطء، أغلق الباب، ثم وقف أمامها متململًا، قالت وهي تزن كل حرف يخرج من فمها:

- أعرف جيدًا ما الذي تسعى خلفه، إن كنتَ تظن أن «دهب» لقمة سهلة فقد أخطأتَ اختيار فريستك.

ثم مررتْ أنظارها من أخمص قدميه إلى مقدمة رأسه وقالت بازدراء وهي تُرجع رأسها قليلًا إلى الخلف:

- من تظن نفسك؟ لا أعرف كيف أجبرتها على القبول بخطبتك لكنني سأعرف، لن أجعلكَ تفلتْ من العقاب يا هذا.

هده المرة تاكدت انه ابتسم بالفعل، قبضت على ابتسامته الساخرة.

قال:

- أختك تحفظكِ إلى درجة أنها توقَّعتْ بالحرف الكلمات التي تقولينها الآن!

ثم اختفت ابتسامته وحلَّتْ محلها جدية بالغة، واستطرد:

- وأخبرتني عنكِ كثيرًا لدرجة أنني أراكِ ككتاب مفتوح، هذه المرة لن أسمح لكِ أن تؤذيها، كما اعتدتِ أن تفعلي معها طيلة حياتها!

لم تمنعه من ركوب سيارته والانطلاق بها مُستكملًا السير في وجهته، شُلَّت أطرافها، وقفتْ بلا حراك كأنها شجرة غُرسَتْ في الصحراء منذ الأزل، وستظل فيها حتى الأبد. ثقل عليها حديثه، لو أتى بصخرة ووضعها فوق صدرها لما كان لها الثِقل نفسه الذي كان لكلماته.

استرجعت سنوات عمرها سنة تلو أخرى، تستنطقها عن صحة اتهاماته، فتوقف عقلها عندما كانت بعدُ صغيرة لم تُكمل الخامسة، اصطدمتْ «دهب» بمزهرية كريستال توليها أمها اهتمامًا فائقًا، وقعت وانكسرت إلى عشرات القطع، وعندما أمسك الغضب بتلابيب دكتورة «ثريا» وأخذ بناصيتها، حمَتْ «شفق» أختها من العقاب وأقرَّتْ أنها الفاعلة، فصفعتها أمها وأمسكت بشعرها تضرب رأسها في الجدار.

يومها سهرت «دهب» بجوار فراشها تُقبِّل كدمة كبيرة في منتصف جبينها، وتعتذر منها أيما اعتذار.

ثم تحركت السنوات أمام عينيها وتوقفتْ عند الثانية عشرة من عمرها، عندما أوقعتْ «دهب» مُدرِّستها عمدًا في رواق المدرسة وأمسَت أضحوكة البنات كلها، تبنَّتْ «شفق» التهمة لما رأتْ فزع «دهب» من المواجهة وتوسلاتها: أرجوكِ يا «شفق»، قولي إنكِ الفاعلة، ستضربني، والله سأهرب من البيت ولن أعود إليه أبدًا.

يومها تبنَّتْ «شفق» التهمة خوفًا على أختها من غضب أمها، أو طيش طباعها، وكان عقابها أن حُبِسَتْ في غرفتها يومًا كاملًا، في الظلام وحدها.

تتخيل كل ما حولها أفواهًا تتهيأ للانقضاض عليها بغير شفقة أو رحمة، تجلس أرضًا، تتكئ على الباب، تُنادي أمها وترجوها أن تُسامحها وتُوقِف العقاب، وفي الجهة الأخرى من الباب تجلس «دهب» وتشاركها السهر والبكاء.

ثم مرَّتْ السنون حتى وصلت إلى عمر السادسة عشرة، عندما قادت «دهب» سيارة والدهما بغير إذنه وتسببتْ في حادث سير، صدمتْ رجلًا كان يعبر الطريق، فتركت السيارة وفرَّتْ هاربة. لن تنسى «شفق» أبدًا الفزع الذي استولى على قلبها عندما أتت الشرطة إلى البيت يسألون عن أبيها، وعن الفتاة التي كانت تقود السيارة وقت الحادثة، بنظرة واحدة إلى وجه «دهب» فهمت أنها الفاعلة، كانت تقف خلف العمود الرخامي في غرفة الصالون وتُخفي وجهها إلا عينين متوسلتين باكيتين، فتبنَّتْ جرمها، وسيقتْ إلى الحبس.

أمضتْ ليلة قاسية، مظلة باردة، تبكي حتى كلَّ منها البكاء، وفي الصباح أنعم الله عليها بفضله، إذ كانت إصابة الرجل طفيفة وتنازل عن المحضر بعدما دفع له والدها المال اتقاء الفضيحة.

تكبرها بعشر دقائق، هكذا قالوا لها، ومشيمة تشاركاها تسعة أشهر غرزوا فيها غريزة الأمومة

قبل اوانها، تضم صغيرتها تحت جناحها، تحميها من المخاطر والبلايا، يخفق قلبها وجلا إن مسّها مكروه، ويمتلئ صدرها همًّا إن باتت ودمعة حزن تسكن مقلتيها.

بعد كل ذلك يأتي هذا الرجل الوقح ويقول إنه سيحميها، سيمنعها من أن تؤذيها!

جلست في مقعد السيارة مرهقة الشعور، يضيق الخناق بأنفاسها، وكأن الكون قد تقلَّص حجمه، يسحقها كضمة قبرٍ قاسية. أخرجتْ دواءها، وأخذتْ منه شهقة حياة طويلة.

ارتفاع حرارتها، وآلام عضلاتها أضحوا فوق كل احتمال، توجَّهتْ إلى مستشفى العريش، عاينتها الطبيبة، طهَّرتْ جُرح رأسها، غطَّته بضمادة، أعطتها خافضًا للحرارة، ثم علَّقتْ لها محلولًا وقالت:

- أنتِ ضعيفة جدًّا، ولا تهتمين بصحتكِ أبدًا، يبدو أن جسدك لم يتحمل التغيير المناخي من الصين إلى القاهرة ثم العريش.

ثم أضافت باسمة:

- لا تُغادري قبل انتهاء المحلول.

أومأتْ «شفق» برأسها إيجابًا، على الرغم من أنها تمنَّتْ لو غادرتْ المستشفى سريعًا؛ كم تكره المستشفيات، وأسرَّتها الباردة! لكن إنهاك جسدها أسلمها إلى أحضان النوم، لم تفق إلا عندما نزعت الممرضة «الكانيولا» من ذراعها وأخبرتها أن بإمكانها الانصراف.

في الممر وصل إلى أسماعها بكاء طفلة، حثَّت «شفق» قدميها على الإسراع حتى وصلت إلى غرفة مفتوح بابها، تجلس طفلة تربو على الخامسة على الفراش بينما يحاول الطبيب إعطاءها حقنة في ذراعها.

أين أم هذه الطفلة الباكية؟ نظرت حولها فإذا بامرأة على بُعد أمتار تتحدث في الهاتف. دنتْ «شفق» من الطفلة، نظرت إلى الطبيب وكأنها تستأذنه، ثم نزلت برأسها إلى مستوى الطفلة، تُحادثها وتُلاطفها:

- ما اسمكِ يا حلوة؟ ألن تُخبريني؟ أنا اسمي «شفق».

استمرت الطفلة في البكاء، فضمَّتها «شفق» إلى صدرها، تُغني لها!

أغنية طفولية أرشفَها عقلها في ملف الذكريات المنسية، لكنه استدعاها في هذه اللحظة، مُستدعيًا معها صورة الممرضة التي احتضنتها في صغرها كما تفعل هي الآن مع الطفلة، وتُغني لها كي يسكن بكاؤها ويتمكن الطبيب من إعطائها الحقنة.

فلمَّا شعر الطبيب باسترخاء ذراع الطفلة حتى حقنها بالدواء، تشنَّج جسدها ببكاء سرى صداه في رواق المستشفى، لم تتركها «شفق» ولم تتوقف عن الغناء حتى هدأت وسكنتْ، فمسحت عبراتها، وربتتْ فوق رأسها.

دخلت الأم، فقالت وكأنها تعتذر إلى لا أحد وكل أحد:

- كان معي مكالمة مهمة.

ابتعدت «شفق» عن الطفلة، حملت حقيبتها السوداء التي تركتها ارضا، ثم مرّت بالام وهي تقول بمرارة:

- مهمة، بالطبع! لا تنسي أن تُعاقبيها على بكائها واحتياجها إليكِ.

رمقتها الأم باستهجان، ثم نظرتْ إلى الطبيب بنظرة متسائلة «من هذه الحمقاء؟».

في قبيلة «المُبشِّع» بدا أن الحدث جلل، ليست المرة الأولى التي يتحاكم فيها «السوارفة» و«السخاوية»، فبينهما تاريخ طويل من النزاعات، لهذا السبب كان الجميع على أهبة الاستعداد لاستقبال الطرفين.

لم يعد البدو يستخدمون «البَشْعة» بكثرة لكشف الكاذب وللتقاضي بين المتخاصمين، لكنها ما تزال تُمارس في أماكن قليلة، ولعل هذا المُبشِّع الذي توجَّهوا إليه هو آخر مُبشِّع في سيناء قاطبة.

رجل مهيب هو، بدت عليه سمات الوقار والعزَّة، وأمارات التقوى والصلاح، جلس يستغفر ويُسبِّح ويُحَوقل حتى حضر الطرفان. يعد العدة ويتجهَّز لاستخدام أول جهاز لكشف الكذب اخترعه البدو؛ الملعقة والنار!

تقدَّم «بحر» بضعة من رجال قبيلته، ومن بينهم «الكفيل» الذي سيكفل «بحر» لتطبيق ما يحكم به المُبشِّع، وعمه «برهوم»، وأخوه «حَمَد».

وتقدَّم شيخ «السخاوية» بضعة من رجال قبيلته، ومعهم «الكفيل»، و«جبار» والرجل الذي يدعي أن جماله اختلطت بجمال «السوارفة». سأله المُبشِّع:

- ما اسمك؟

اضطرب الرجل الخمسيني وهو يجيب:

- اسمي «طحنون».

سعل المُبشِّع ثم قال بقوة وحزم:

- «جبار» يدَّعي أنكَ استعنتَ به كي يُعيد لكَ جمالك التي ضمَّها «بحر» إلى جماله، هل هذا صحيح؟

أومأ الرجل برأسه بكثرة وهو يُجيب:

- نعم، صحيح، صحيح.

فاستطرد المُبشِّع وهو يُشير إلى «بحر»:

- أي أنكَ تتهم «بحرًا» أنه سرق جمالكَ، وأنت متأكد تمام التأكد أنه من أخذهم من المرعى المفتوح؟

تلوَّى «بحر» في مكانه، كاد أن يندفع ثائرًا، فمجرد اقتران اسمه بالسرقة أشعل فتيل كرامته، إلا أن يد عمه الحازمة طبقت على ذراعه في الحال، وعلى الذراع الآخر أطبقت يد أخيه «حَمَد»، فالتزم مجلسه مُجبرًا، بينما الرجل يُجيب وهو يتجنب النظر إلى «بحر»:

- نعم، أنا متأكد، ضمهم إلى جماله وأخذهم، ولا بد أنه ختمهم بختم «السوارفة» كي لا أعرفهم.

جلس «المُبشِّع» في منتصف الديوان، عن يمينه رجال «السوارفة»، وعن شماله رجال «السخاوية»، يُذكِّرهم بعاقبة الكذب والسرقة، والحلف بالله كذبًا، وبعد أن انتهى من تذكيره، أمر فأشعلوا نارًا وألقوا فيها فحمًا أسود.

انتظر حتى اشتعل جمرًا حارقًا، ثم غمس فيه ملعقة معدنية كبيرة، انتظر إلى أن وصلت الملعقة

إلى درجة الإحماء، ثم دنا من الرجل وقال:

- أقسم يا «طحنون» أن «بحرًا» ضمَّ جمالكَ إلى جماله.

ازدرد «طحنون» ريقه بصعوبة ملحوظة، ثم قال وهو يُمسك بعود مدَّه له المُبشِّع:

- وحياة هذا العود والرب المعبود من أخضَره ومن أيبسه، «بحر» أخذ جمالي إلى جماله.

أمسك المُبشِّع بالملعقة الساخنة كالجمر، ثم أمر «طحنون» كي يُخرج لسانه، كي يمسح لسانه بالملعقة الساخنة ثلاث مرات، فإن تركت أثرًا كان من الكاذبين، وإن لم تترك كان من الصادقين.

ازدرد «طحنون» ريقه مرتين قبل أن يفعل، نظراته غائرة، وعقله مُشتت، وما إن مسح المُبشِّع لسانه بالملعقة حتى جفَّ لسان «طحنون» وقد تركت الملعقة أثرًا واضحًا للعين، أثر الكذب!

كبَّر «حَمَد» هاتفًا:

- الرجل يكذب، وأخي «بحر» يقول الصدق!

تنهَّد «برهوم» في ارتياح، واتسعت ابتسامة «بحر» الظافرة، أما شيخ «السخاوية» فقد رشقتْ نظراته جسد «طحنون» و«جبار» بغضب!

وبينما أوشكَ المُبشِّع أن يُصدر قراره الأخير أوقفه «طحنون» بلسان مُحتَرق وقال:

- لا، انتظر، نعم كذبتُ، لكن هذا فقط لأنني لم أرد لابنتي أن تتكشَّف على الرجال.

تبادل الجميع نظرات الحيرة، فحثه المُبشِّع كي يكمل كلامه، فأردف «طحنون» بارتباك:

- لم أكن أنا الذي يرعى الجمال في المرعى المفتوح، بل ابنتي، هي من رأت جمالنا تختلط بجمال «بحر» بن «السوارفة».

نهره المُبشِّع:

- ولماذا لم تقل هذا من البداية يا رجل؟

- لم أرغب في جرِّها إلى هنا، والوقوف أمام الرجال للشهادة.

أطرق «المُبشِّع» برأسه قليلًا، ثم قال بنبرته الحازمة:

- إذن سنعقد جلسة أخرى، سننصب فيها خيمة، وستُحدِّثنا ابنتك من داخلها.

تعكَّر مزاج «بحر»؛ تمنَّى لو انتهى الأمر في حينه، ودَّ لو أخذ حقوقه الثلاثة من عين «جبار» في التو واللحظة. «حَمَد» الذي شعر بما يعتمل في نفس أخيه مال صوبه وهمس:

- ستكذب كما كذب أبوها، وستُظهِر النار الحقيقة.

لكن عقل «بحر» تساءل في شكٍّ مُريب: ماذا إن كذَبت النار؟

ما إن عادوا إلى القبيلة حتى مال عمه صوبه قائلًا بدون مقدمات:

- يا «بحر»، خلال يومين أنتظر مجيئك والتحدث معي عن تفاصيل كتب كتابك على «عين». السلام عليكم.

ضاقت عليه الارض بما رحَبت؛ البسه عمه رداء العيب قسرًا، ليَشاع بين القبيلة انه رفض الذهاب إلى عمه حين دعاه، وتقاعس عن كتب كتابه على «عين».

ركل حجرًا فطار على امتداد بصره حتى ارتطم بآخر فسكنَ، يعلم كما يعلم الجميع أن تكلفة زراعة ألغام جديدة في أرضٍ أقل من تكلفة إزالة ألغام قديمة.

إن كان غير قادر على إزالة لغم الزواج بـ«عين» من حياته، فهل يزرع واحدًا جديدًا بإعلان عدم رغبته فيها أمام عمه والناس أجمعين؟

أعلن العم لأهل بيته:

- «بحر» سيُتم زواجه بـ«عين» خلال أيام، كفاني انتظارًا، أعِدوا البيت من الآن لاستقبال الجميع.

هتفت زوجته بحماس وهي تضم كفها لصدرها بفرحة طاغية:

- هل طلبها منكَ؟

أشاح الرجل بيده قائلًا:

- ولماذا يطلبها وهي له من الأساس؟ قلتُ كلمتي وانتهى الأمر، فليجرؤ هو على كسر كلمة عمه ولنرى عندها كيف سيكسر أخي رأسه.

«عين» التي استرقت السمع من خلف الباب الموصد طفقت تتحرك داخل البيت الذي ضاق عليها بجدرانه، لا يسع فرحة طاغية نبتت بين جنبيها.

دخلت المطبخ لتعد طعامًا لم يطلبه منها أحد، وزَّعتْ منه على الأقارب والجيران، ثم دخلت غرفتها وأخرجتْ من دولابها بكرة خيط صوفية كبيرة.

أمسكت بالبكرة وكأنها تحمل قلبها بين يديها، شدَّت الخيط وكأنه حبال طويلة من «اللهفة»! أمسكت بالإبرة، وببسمة لم تُفارق ثغرها أمضت ليلها تغزل اللهفة، غُرزة وراء غُرزة.

---

(٥)

استنزفتْ «شفق» طاقتها.

عندما يضيق الكون ويتصاغر أمام أعيننا نهرب إلى المكان الذي نستطيع فيه أن نتنفَّس بعمق، هذا المكان قد يكون صدر أم، أو كتف صديق، أو ربوة عالية، أو وسادة خالية، أو نجمة في السماء لاهية، أو لحظات السجود.

لم تغرس فيها دكتورة «ثريا» معنى السجود، لم تُخبرها كيف تتساقط الهموم أرضًا لحظة أن تميل الرأس لتُصافح اتجاه القِبلة، لم تُخبرها أن الأرض تشتاق! وأنها ترتوي من الدمع أكثر مما تُشبعها بحار وأنهار ومحيطات.

لم تخبرها أن دعاء المُضطر، ورجاء الملهوف، ودمعة المُنفطِرة قلوبهم هم طعام الأرض وشرابها، وأن زفرات المهمومين، والصمت المخنوق بالأمنيات هو نشيد تطرب له الأرض وتهنأ.

وأن للجبين جلالة ترسمها مواضع السجود فوقه كالسُبُحات، وأن القلب في موضعه المائل يتعبَّد لله بالنبضاتِ.

وحدها مُعلمتها «آمال» من علَّمتها ذلك، تذكَّرتْ حديثها عن الأرض التي تفتح لنا ذراعيها لتضم رأسنا فوق صدرها لنرتاح، فتهيَّأتْ بالوضوء وأقبلت على الأرض بلهفة الظمآن إلى شربة ماء.

أفرغت ما بصدرها من أوجاع، وعندما انتهتْ شعرتْ بسَكينة تغشاها، وراحة تملأ قلبها، فعاد الكون ليتسع!

انغمست في العمل داخل مكتبها حتى تناست الزمان والمكان، انتشلتها «نرجس» من الأوراق والملفات، دخلت المكتب تقول:

- لا أصدق، أما زلتِ هنا؟

تحشرج صوت «شفق» وكأنها نسيت كيف يكون الكلام، قالت:

- لم أشعر بنفسي.

- وما الجديد في ذلك؟

جلست «نرجس» على المقعد المقابل لها، تقول مُشفقة:

- تبدين متعبة.

- أنا بخير جدًّا.

- أنتِ كاذبة جدًّا.

رمقتها «شفق» بشوق، كم اشتاقت إلى اهتمامها وقلقلها عليها، تعرفت إليها منذ سنوات قليلة، لكن صداقتهما وكأنها بدأت منذ الأزل، لم يُفرق بينهما خلال هذه السنوات سوى هذه السفرة التي أجبرتْ «نرجس» إلى مغادرة القاهرة إلى العريش قبل عدة أشهر من أجل المشروع.

تناولتْ «شفق» سماعة الهاتف وضربت رقمًا ثم قالت:

- اريد شايًا على قهوة بدون سكر.

استوقفها «عبقرينو» على الجانب الآخر قائلًا:

- لم أفهم يا أستاذة «شفق».

قالت بنفاد صبر:

- أريد شايًا على قهوة، ما هو غير المفهوم في كلامي؟

- تقصدين حضرتك أن أضعهم في كوبين منفصلين أم في كوب واحد؟

- كوب واحد.

- آه، إذن هل أصنعهم في براد وكنكة، أم برادين، أم كنكتين؟

- اصنعهم بالطريقة التي تريدها.

وكان ما يزال يستكمل كلامه:

- ... أم أصنعهم في حلة صغيرة؟ أظن أن هذا أسلم حل، لكن ليس لدينا إلا حلة صغيرة واحدة تخص باشمهندس «منعم»، ولا أظنك ترغبين في شرب أو أكل أي شيء في حلة باشمهندس «منعم» لأنه...

هتفت وهي تغلق الخط:

- انسَ الأمر، لا أريد شيئًا!

نظرت إلى «نرجس» تسأل بينما تُشير إلى الهاتف:

- من أين أتيتم به؟

ضحكت «نرجس» تقول:

- اكتشافات أختكِ.

على ذِكر «دهب» زفرت بقوة، فعاجلتها «نرجس» وهي تنهض بحماس:

- هيا، يكفي هذا، سنذهب إلى بيتي، وهناك سنتحدث في كل شيء، تبدين مثل قنبلة موقوتة على وشك الانفجار.

- أنا بخير يا «نرجس»، لا يوجد ما نتحدث بشأنه.

بعناد أصرَّت:

- بل يوجد، ليس موضوع خطبة «دهب» فحسب، خطبتكِ أنتِ أيضًا.

تجعَّد جبينها تقول:

- وما بها خطبتي؟

استندت «نرجس» بكفيها إلى المكتب، ثم مالت صوبها تقول:

- لا تُقنعيني! هذا ما بها يا صديقتي.

ثم استطردت وهي تبسط كفيها بحيرة:

- قبل اسبوع واحد لم يكن «اكمل» يشغل تفكيرك ولا بمقدار حبة عدس.

ثم أشارت إلى خاتم خطبتها مُردفة:

- والآن خاتمه في إصبعكِ!

لم تند عن «شفق» كلمة واحدة، لكن تجعُّدات جبينها ازدادت حدتها، فأردفت «نرجس» تقول بنبرة الواثق:

- إن كان وراء خطبة «دهب» سرًّا، فوراء خطبتكِ أنتِ مجموعة معقدة من الأسرار.

تلاقت أنظار الصديقتين على طول خط طويل، ذهابًا وإيابًا، لم يقطع هذا الوصال سوى طرقات ثلاث على الباب، ثم دخول «عبقرينو» حاملًا صينية فوقها قدح يتصاعد منه البخار، وضعه أمام «شفق» ثم قال بحماس:

- تفضلي يا أستاذة «شفق».

- شكرًا يا «عبقرينو»، قلتُ لك لا أريد، لكن ما دمت أعددته سأشربه.

هتف بحماس:

- تذوقيه الآن يا أستاذة «شفق»، الآن أرجوكِ.

تبادلتْ «شفق» النظرات مع «نرجس» المُبتهجة، ثم أدنتْ القدح من شفتيها، ومع الرشفة الأولى تجعَّد وجهها، وقالت بازدراء:

- ما هذا الشيء؟!

هتف «عبقرينو» بحماس بالغ:

- حلبة على ماء بصل، ما رأيك يا أستاذة «شفق»؟

نظرت له ببلاهة تقول وهي تُحاول بلع الرشفة غصبًا:

- حلبة على بصل؟! قلت لكِ شايًا على قهوة.

- نعم أعرف، لكنني فهمتُ أنكِ تُحبين خلط الأشياء ببعضها ورأيتُ هذا المزيج أكثر فائدة.

عدَّل من نظاراته فوق قصبة أنفه واستطرد:

- قرأت في مجلة علمية عن فوائد ماء البصل، وفي موقع على الإنترنت قرأت عن فوائد الحلبة، فصنعتُ لكِ مزيجًا من الفائدتين، لم يسبقني أي إنسان على وجه الأرض في اختراع هذا المشروب ولا توجد أي ورقة علمية عن فوائد مزج السائلين ببعضهما. هل تصدقين يا أستاذة «شفق»؟ هذا المشروب قد أدخل به موسوعة «جيينس».

«نرجس» التي لم تتمالك ضحكاتها قالت له:

- موسوعة «جيينس» للأرقام القياسية يا «عبقرينو».

أجابها بحماس:

- نعم أعرف.

أشارت إلى القدح قائلة:

- وما علاقة اختراعك هذا بالارقام القياسية؟

- عدد الفوائد يا أستاذة «نرجس»، تخيلي لو أضفتُ للخليط عدة سوائل مفيدة أخرى، كم فائدة قد أحصل عليها من قدح واحد؟

اتسعت ابتسامته وهو ينظر إلى الفراغ من حوله، يتخيل لحظة كتابة اسمه في الموسوعة. جمعتْ «شفق» أغراضها في حقيبتها ورمقتْ صديقتها قائلة في استسلام:

- أنتِ محقة يا «نرجس»، أحتاج إلى الذهاب إلى بيتكِ، حالًا.

في اللحظة ذاتها دخل «أكمل» المكتب مثل الإعصار، تعلَّقتْ به ثلاثة أزواج من الأعين المترقبة. قال بغير مقدمات:

- أريد التحدث معكِ وحدنا.

تبادلت الصديقتان نظرة ذات مغزى، وبعد لحظات خلا المكتب إلا منهما، سألته بقلق:

- ماذا يحدث؟

استند بكفيه فوق المكتبة ومال صوبها، بنفس الوضعية التي اتخذتها «نرجس» منذ قليل، ثم هتف بحدة:

- امنعي هذا الزواج.

- أي زواج يا «أكمل»؟

- أختكِ، وهذا اللعين.

نهضت، ثم دارت حول مكتبها ووقفت تواجهه، تسأل والخوف يتصاعد دبيبه في صدرها كأسراب النمل:

- ماذا حدث؟

- لا أصدق أنكِ لم تنتبهي لاسمه حتى الآن!

تعجَّلته بحدة:

- «أكمل»، أخبرني المعلومة كاملة، أنا لا أعرف اسمه، من يكون هذا الرجل؟

بسط ذراعيه وهو يقول بغضب بالغ:

- «غراب السيناوي»، هل عرفتِه الآن؟

استبد الذهول بعقلها، وكتمتْ بكفها شهقة جزَع!

وعدتُ أن أخبركم عن سحر شهرزاد في زمانها
وكيف امتلكت به قلب رجُلها
يقول العارفون بالقلبِ أن العين تعشق أولًا
ويسمونه حبًّا من النظرة الأولى
ويقول العارفون بالعقلِ إن الرأس يعشق أولًا
ويسمونه حبًا من الفكرة الأولى
ويقول العارفون بالجسد إن اليد تعشق أولًا
ويسمونه حبًّا من اللمسة الأولى
أما أنا فعارفة بالروح وأسرارها
حواريها وشوارعها وأركانها
حُفرها وأبراجها وأسوارها
وفي مدينة الروح الحب لا يكون بالنظرة الأولى
ولا بالكلمة الأولى
ولا باللمسة الأولى
في عقيدتي
الحب يبدأ من النبرة الأولى!
لم تملك شهرزاد قلب شهريار بحكاياتها
ولا بمهاراتها وفنونها
بل بعزف ألحان الغواية على أحبال صوتها!
للقلب أبوابٌ مختلفة أشكالًا وألوانًا

الصوت بوابة سرية للقلبِ
فالأذن تعشق قبل العين أحيانًا!

إذا كان الحب سموًّا ورِفعة،
فلماذا نقول «وقعنا في الحبِّ»،
كأنه أَسر أو بركة طين!
ولا نقول «ارتقَينا في الحبِّ»؟

(١)

دون أن تخرج من صدمتها دارت حول المكتب، بينما الغضب يتأجج في نفس «أكمل» إذ يقول:

- طبعًا تعرفين ماذا سيحدث لنا إن انتشر هذا الخبر.

هزَّتْ رأسها بقوة تقول:

- مستحيل، «دهب» لا تفعل ذلك، شيء ما خطأ.

- نعم، شيء ما خطأ، وهذا الخطأ سندفع ثمنه جميعًا.

كرر بحزم قبل أن يترك المكتب:

- امنعي هذا الزواج.

فتحت ملف القضية بأنامل تتسارع لتنفي الحقيقة الساطعة سطوع الشمس، تسابقتْ عيناها تلتهم الصفحات حتى وصلت إلى الصفحة التي تحوي صورة بطاقته الشخصية.

قرَّبتْ الصورة من أنظارها، نعم، إنه هو، «غراب السيناوي» نفسه!

كيف لم تنتبه إلى ذلك؟ ربما لأن الصورة الرمادية لا تُظهِر بوضوح الجرح البغيض الذي يشق وجنته، إنها تُموِّهه وتجعله غير بارز.

الآن فهمت كيف أن خطبة «دهب» لهذا الرجل هي كارثة الكوارث!

لم تبقَ في المكتب دقيقة بعدها، انطلقتْ منه كالصاروخ وتوجَّهتْ إلى مكتب «دهب» في نهاية الرواق، دخلت دون استئذان، ثم أغلقت الباب عليهما من الداخل. استقبلتها «دهب» ببشاشة وهي تترك ما بيدها من رسم هندسي وتقول:

- أوووه، الأستاذة «شفق» بنفسها في مكتبي، إلى ماذا أدين بهذا الشرف العظيم؟

«شفق» التي فشلت في ضبط انفعالاتها، صاحت بغضب لا يقل عن غضب «أكمل» في حِدته:

- كيف تفعلين ذلك؟ هل تعرفين من هو الرجل الذي قررتِ الموافقة على الزواج به؟

ثم مسكت يدها، ورفعتها لتُريها خاتم الخطبة وهي تُردف:

- الرجل الذي ترتدين خاتمه الآن نوجِّه له تُهمة التسبب في سقوط البنايات فوق رؤوس العمال! تسبب في قتل خمسة أرواح! الرجل الذي ترتدين خاتمه الآن سأقف في مواجهته أمام القاضي في المحكمة.

نزعت «دهب» معصمها وهو تقول ساخرة:

- ما شاء الله! أنتِ لستِ محامية فحسب، بل وكيل نيابة وقاضيًا وجلادًا كذلك. أصدرتِ حكمكِ في القضية قبل أن تبدأ.

- لا أصدق استهتارك هذا، هل تعرفين ماذا سيحدث لنا إن انتشر هذا الخبر؟

عقدت «دهب» ذراعيها أمام صدرها وتساءلت بنبرة مستفزة:

- لا أعرف، لكنك على الأرجح ستخبرينني الآن.

صاحت «شفق» بجنون:

- سيظن الجميع ان تحقيقاتنا الداخلية في حادثة العمال والادلة التي سلمناها للشرطة لم تكن جادة على الإطلاق، سيتلاعب «غراب» هذا بالقاضي ويلفه حول إصبعه مُدعيًا أن سبب اتهامنا إياه خلافات عائلية وليس عن بيِّنة، والأسوأ أن الناس سيظنون أن الخطأ كان مشتركًا، ثم أردنا النجاة بأنفسنا، ولأننا الطرف الأقوى قمنا بإلقاء الذنب على «غراب» هذا وحده. أنتِ تلقين بنا جميعًا في قلب الخطر!

ثم انقضَّتْ عليها تُمسك بذراعيها وتقول متوسلة:

- أرجوكِ يا «دهب» أخبريني الحقيقة، بماذا يبتزك هذا الرجل؟ كيف أجبركِ على الموافقة؟

قاطعتها «دهب» وهي تنتزع ذراعيها من قبضتيها وتهتف بحدة:

- كُفِّي عن التعامل معي كطفلة ساذجة، أنا مدركة تمامًا ما أفعله، «غراب» لم يبتزني، اخترته بكامل إرادتي، وليس ذنبي أبدًا أنكم أردتم أن تصنعوا منه كبش فداء عندما عجزتم عن إيجاد المذنب الحقيقي.

وبالحدة ذاتها التفتت وأخذت حقيبتها، ثم أنهتْ الحوار بينهما بكلمات قاطعة:

- أنتِ لستِ أمي، فكُفِّي عن التصرف كأنكِ ولية أمري.

محقة، ليست أمها، هي أختها، توأم قلبها، أليس قلب الأخت حصنًا، وحضنها ملاذًا؟ لا تعرف أن تكون غير ذلك، لم تعتَد أن تكون غير ذلك.

عادت إلى مكتبها، وهاتفتْ أباها؛ ودَّتْ لو كان بإمكانها أن تشكو له ثِقل الحِمل الذي ألقاه على كتفيها، تستنصره، تُعرِّي له هوانها، وضعفها، وحاجتها إلى حصن ودعامة تركَن إليهما، لكنه بادرها بقوله:

- أنا غارق في المصائب واحدة تلو الأخرى؛ ازدادتْ الشركات المنافسة شراسة بعد الحادثة، إن لم أعِد السفينة إلى وجهتها الصحيحة سنغرق جميعًا.

كادت أن تهتف به: ألم نغرق بعدُ؟ ألم نتشتت في بقاع الهَون؟

استطرد:

- أختكِ تحتاج إلى تربية.

كادتْ أن تهتف به ولماذا لم تُربِها إذن؟ لماذا اكتفيتَ بدفعها صوب دروس اللغات والجغرافيا والفيزياء، ولم توجهها ولو لمرة واحدة صوب دروس الحياة؟

فكان عليها أن تستكشف الحياة بنفسها، هي الطالب والمُعلِّم في الوقت ذاته.

لماذا لم تكن لها أبًا وحاميًا ومرشدًا؟ الحصان الجامح يحتاج إلى ترويض من الصِغر، يحتاج إلى التوجيه، والتدريب، والتعويد.

الحصان لا يُولَد جامحًا، إنما هي خطيئة الخيَّال!

لكنها لم تنطق بحرفٍ مما ودَّتْ أن تصرخ به، كتمت آهاتها في صدرها، كما عوَّدها الخيَّال.

- أنتِ أقوى من ذلك، تستطيعين حل هذه المشكلة، هدديها بحرمانها من سيارتها وبطاقتها البنكية، وسنرى عندها كيف ستتوقف عن هذا العناد. والآن أنا مضطر إلى إنهاء المكالمة؛ عندي

اجتماع مهم، اطلعيني على الاخبار اولا باول.

وعدته أن تفعل، أن تكون أقوى، لكن كيف؟

عادت إلى غرفتها بالفندق، أخرجتْ من الدولاب الصندوق الصغير الذي أحضرته معها من القاهرة، فتحته وأطالت النظر إلى الشعرة الذهبية الطويلة.

وكأنها تجري معها اتصالًا لا يحتاج إلى هواتف ودوائر كهربائية، بل أفكار ومشاعر وذكريات. بثَّته كل ما بداخلها من قهر وألم، مثل «صندوق باندورا» هو.

في الأسطورة اليونانية تحمل «باندورا» صندوقًا يخفي بداخله كل شرور البشرية!

الحسد.. الكذب.. الظلم.. القسوة.. القتل.. السرقة.. الخيانة.. الحقد.. «باندورا» التي كانت مأمورة بعدم فتح الصندوق، فتحته وأخرجت للعالم كل الشرور المحبوسة بداخله.

أغلقت «شفق» صندوقها بسرعة، مخافة أن تتسرب ما حبسته فيه من شرورٍ إلى عالمها النظيف الآمِن.

تهللَ وجهُ الصباح مُستبشرًا، واستيقظت معه بوجه سمِح، على الرغم من كل شيء ما زال بإمكانها أن ترى في الشمس نور الأمل. كيف لا ومعلمتها «آمال» كانت تقول: كل يوم جديد هو فرصة مثالية لتصحيح المسار.

القطار الذي يسير في اتجاه خاطئ، ما زال بإمكانه أن يتوقف، ويرجع للوراء ليُصحح مساره، لم ينتهِ الطريق بعد.

أسبلَتْ على اليأس رداء العزم، ثم طلبتْ فطورًا لشخصين في الغرفة المجاورة، طرقت بابها ثلاثًا، فتحت «دهب» وهي ترمقها بتحفُّزٍ، بددته «شفق» في الحال وهي تلج الغرفة قائلة:

- ما كل هذا الكسل؟

تثاءبت «دهب» وهي تنظر في ساعة هاتفها وتقول:

- الوقت ما يزال مبكرًا، ثم حتى إن كان متأخرًا، نحن أصحاب الشركة؛ لن يُحاسبنا أحد إن تأخرنا.

ثم رمقتها بشكٍّ وهي تقول متأففة:

- إن كنتِ جئتِ من الصباح الباكر لتعطيني محاضرة في الأخلاق فوفِّري أنفاسكِ، لا أريد أن أسمع شيئًا.

جهَّزت «شفق» الطاولة في الشرفة التي تطل مباشرة على البحر، رصَّت أطباق الفطور فوقها وهي تهز كتفيها قائلة بلا مبالاة:

- ولا أنا أرغب في إعطاء محاضرات، أنت فتاة راشدة بإمكانكِ رسم حياتكِ القادمة كما شئتِ.

جاورتها «دهب» فوق الطاولة، وبدأت في تناول الطعام وهي تتساءل بشكٍّ:

- أيعني ذلك أنكِ ستُساعدينني لإقناع أبي وأمي بـ«غراب»؟

وضعت «شفق» لقمة بفمها وهي تعبئ صدرها بهواء البحر، ثم رفعت سبابتها وهي تقول:

- لا يا أختي العزيزة، لن أساندكِ في شيء لستُ مقتنعة به.

رمقتها «دهب» في تبرُّم، فأضافت:

- لكنني كذلك لن أمنعكِ.

استبشرتْ «دهب» وسألتها بحماس:

- أيعني ذلك أنكِ لن تقفي في طريقي؟

أومأتْ «شفق» برأسها إيجابًا، فتبدد الشك أخيرًا من نفس «دهب». هواء الصباح بدا كسحر قادر على إذابة كل الشوائب التي علقت في نفسيهما بالأمس.

عانقتها «دهب» بقوة، ثم أمسكت كفها بين كفَّيها وهي تقول بشجن:

- أنتِ توأم قلبي، عندما تغضبين عليَّ أرى الدنيا سوداء كردائكِ هذا، عندما تُخاصمينني لا أستطيع أن أتنفس، تعرفين هذا الشعور، أليس كذلك؟ حاجتكِ إلى رذاذ الفم وقت نوبات الهلع هو نفسه حاجتي إليكِ في كل وقت يا «شفق».

تركت كلماتها أثرًا بالغًا في نفس أختها؛ بادلتها عناقًا بعناق، ثم عادتا لتناول الفطور في جو من الألفة. بدا أن شيئًا ما طرق عقل «دهب» بغتة، فتساءلتْ بفضول:

- والقضية؟ ماذا سنفعل فيها؟

اتسعت ابتسامة «شفق» وهي تقول بتحدٍّ:

- تلك مشكلة خطيبكِ، عليه حلُّها بنفسه، إن كان بريئًا كما تقولين فليثبتْ لنا ذلك وأنا أول واحدة سأعتذر له.

كانت «دهب» من فرسان التحدِّي؛ أبدَتْ قبولها فورًا، وكانت «شفق» من أرباب الصبر، ستحميها، ستمنع العالم من أن يؤذيها، ستصبر حتى يقع الغراب في المصيدة!

---

(٢)

سلبه الليل هناء نومه، وأذاقه شِدته وبأسه! كيف يخرج من هذه الورطة؟

بقيد العادات البالية ستقع حياته القادمة في الأسرِ. كم لاقَى من صنوف الصعاب حين أراد أن يستكمل تعليمه في «العريش»، وكم لاقى مثلها حينَ أرادَ أن يمدَّ تجارة القبيلة إلى خارج الحدود، ويُسافر عابرًا للبحار والمحيطات!

انتصر على القيود وحطَّمها، وبلغت أمواجه الشرق والغرب، إلا قيد «عين»، ظل خانقًا على أنفاسه حتى اللحظة. بإمكان «عين» أن تصير أروع زوجة، وأفضل أم، لا تخرج عن طوعه، وتبذل عمرها تحت قدميه،
مطمئنًا يمنحها اسمه، ويستودع بين يديها ماله وعِرضه، لكنه سيعيش معها مثل السمك في حوض زجاجي.. جميل.. نظيف.. هادئ.. وآمِن!

سيمضي عمره بحسرة الشوق إلى عواصف البحار، وخطورة الأعماق، سيُحرَم من لذة المغامرة، والفوز بالصعب بعد مُخاطرة.

مع «عين» كل شيء محسوم ومحسوب، بُحيرة عذبة لا مدَّ فيها ولا جَزْر، يعرف أوَّلها مِن آخرها. ستمضي حياته معها برتابة عقرب الساعات في الساعة الجدارية، ببطء شديد، وكأنه لا يتحرك أبدًا.

لن يخونها بفِعله لأن كريم الأصل لا يخون، لكنه سيخونها بعقله ألف مرة، سيُسدِل عليها بخياله خِصال غيرها من النساء، سيراها بعقله أخرى، بل أخريات، وفي كل مرة سيندم أنه يخون، فكريم الأصل لا يَقرَب الخيانة ولو بالفِكر.

عزَمَ على أن يُصارح عمه بما يحيكه الضيق في صدره، بحث عنه بعد خروجه من المسجد فلم يجده. دنا منه أخوه «حَمَد» يقول ببشاشة:

- لدينا حفل زفاف قريبًا.

رمقه «بحر» بلوم، فسارع «حَمَد»:

- أمزح معكَ. أعلم ما في نفسكَ يا «بحر».

زفر «بحر» بقوة خُيِّل إليه أنها قادرة على زحزحة جبل موسى من موضعه. قال:

- لا أحد يعلم ما بصدري يا «حَمَد»، يكاد يحترق.

طأطأ «حَمَد» برأسه، ثم قال مُشفقًا:

- لا أفهمكَ يا «بحر»، صدقني؛ الزواج أمره مختلِف، ربما في البداية ستُعارض، ستنفر منها، ستحقد عليها، لكنك حتمًا ستتقبل في النهاية. لا تعرف كيف تُقرِّب العشرة بين رجلٍ وامرأته، هذا شيء فطري يا «بحر».

حكَّ «بحر» رأسه بأنامله بعنفٍ، ثم استنكر:

- لا أحد يفهمني! أنا لستُ كلبًا أليفًا ستقدر زوجته على ترويضه، ستقتص نفسي الثائرة منها، سأظلمها، وأؤلمها، وأؤذيها، ثم أكره نفسي بعدها.

شعر «حَمَد» أن كلماته لا تُهوِّن من عذابات أخيه، بل تُضاعفها؛ فآثر التحلِّي بفضيلة الصمت.

متجاورين يحتسيان القهوة العربية مع التمر فوق صخرة داعب الهواء فستان طفلة صغيرة تعدو وراء أخواتها، اتسعتْ ابتسامة «حَمَد» ورمقها بحنان بالغ، ثم ترك كوب القهوة واستأذن للانصراف. لم يستبقِه «بحر»، كان يرغب في الانفراد بنفسه، وإن كان لا يطيق حتى نفسه، لم تسعه الصحراء على اتساعها، فطفق عائدًا إلى البيت. بالقرب من البيت التقى بـ«عين».

جاءته تمشي على استحياء، تنظر أرضًا كعادتها، وبرقة نسمة صيفية وسخائها مدَّتْ يديها بطاقية صوفية غزلتها بخيط اللهفة. قالت بنبراتٍ هشَّة:

- صنعتُ مثلها لأبي، يرتديها بالبيتِ، قال إنها تُدفِّئه.

رآها تمُد له بعطيَّة قلبها، إلى متى ستمنحين قلبكِ يا «عين»؟ أما آن لليأس أن يقطع حبال الأمل؟ لاحت بعقله كلمات أمه عن قلبها البلور، وكسر الخاطر وجبر النفس.

تلألأ زَهر اللهفة في عينيها، تمنَّتْ لو يقطفه «بحر»، ويصنع منه باقة لا ينقطع رحيقها أبدًا. سترعاه، وترعى بيته وصغاره، ستضعهم في بؤبؤ العين، وتضمَّهم بأهدابها.

تقاعستْ يد «بحر» عن الحركة، فتزعزع الحُلم في نفسها، اضطربت حركتها، وصرَّحتْ بالكلام عن مقصدها:

- صنعتها لكَ.

ولأن العطيَّة غالية، لم يقبلها «بحر» ما دام ليس بوسعه ردها بالمثل. قال:

- «عين»، تعرفين أن لكِ في نفسي منزلة كبيرة، أنتِ أختي التي لم تنجبها أمي.

ألقى بكلماته ليُحرِّك ساكنها، ويُزلزل بيتًا من السحاب صنعته أحلامها. أردف:

- تعرفين كما أعرف أنهم خطبونا لبعضنا قبل أن نعي معنى الحياة، وفي هذا ظلم كبير، لي ولكِ.

أعادتْ العطيَّة إلى صدرها، ضمَّتها، كما لو أنها تستمد منها القوة. أخته، وظُلم! عمَّ يتحدث «بحر»؟

أردفَ:

- لا أستطيع أن أواجه ذلك وحدي، يجب أن نخبر الجميع معًا أننا لا نرغب في أن نُجبَر على هذا الزواج.

إخبار.. إجبار.. هل يتحدث «بحر» عن فيلم شاهده؟ هل يقص عليها حكاية قرأها؟ لماذا حكايته خالية من أمير وأميرته، عريس وعروسه. لماذا هي خالية من الفرح؟ لماذا لا يقص عليها حكاية سعيدة، عن «عين» و«بحر»؟

لملمتْ شتات نفسها لتقول ما سمعته طوال حياتها، علَّه نسي ويحتاجها كي تُذكِّره:

- «عين» لـ«بحر»، و«بحر» لـ«عين»!

اتسمَتْ نبراته بالقوة وهو يقول بحماس صادق:

- لو جئتكِ بأفضل رجل في القبيلة لما استحقكِ يا «عين»، أنتِ تاج رأس أي رجل يتزوَّج بكِ.

اغرورقت عيناها بعبرات مالحة، تؤلمها، هذه الحكاية فيها حزن وألم، تكره الحزن وتبغض

الألم. رددت ثانية وهي تهز كتفيها بقلة حيلة:

- «عين» لـ«بحر»، و«بحر» لـ«عين»!

استبد الضيق بصدره، احتاج إلى قوة أكبر كي يستمر في كَي الجرح:

- لا أراكِ يا «عين»، أنا لستُ جيدًا كفاية لأراكِ.

تساقطت دمعاتها، وبعزم طاقتها تشبَّثتْ بآخر أطراف الحلم:

- «عين» لـ«بحر»، و«بحر» لـ«عين»!

- العين ماؤها عذب مثلكِ يا «عين»، أما البحر فماؤه مالح، لن يروي ظمأكِ مهما شربتِ منه!

نحَر عنق أملها وانصرف.

تهادى «حَمَد» في سيره داخل السوق، يدخل دُكَّان هذا ويفحص بضاعة ذاك؛ حتى وقع على مُبتغاه، فستان صغير مُطعَّم بالخرَز، يكفي بالكاد لطفلة حديثة الولادة. مسَّه بلهفة المُشتاق، ضمَّه إلى صدره ضمَّة الملهوف. أنقد البائع ثمنه، ثم حمله عائدًا إلى بيته.

فتح الباب؛ استقبلته رائحة «الخُبِّيزة» الشهية، دخل غرفته وخلع جلبابه، ثم أمسك بالفستان ودخل المطبخ.

كشف عن القدر الموضوع فوق النار، تأمَّل النبات الأخضر المطبوخ وهو يقول مُتلذذًا:

- أحلى خُبِّيزة من يديكِ يا «عِيدة».

أطرقتْ «عِيدة» ولم تُجِب، وبينما تجلي القدور والأطباق دنا منها، على الرغم من أن المطبخ الصغير لا يسعهما معًا. قال:

- أتيتكِ بهدية.

أومأت برأسها شاكرة، دون أن تولي هديته الكثير من اهتمامها، بدا وكأن الأطباق تزن في نفسها أكثر مما تزنه هديته.

ابتأستْ قسماته وهو يسألها باستنكار المخذول:

- ألن تريها؟

ببطء المُضطَّر جففتْ يديها، وأخذت منه اللفافة، فضتها، وكأنها مسَّتْ بيديها حية تسعى تركتها فوق أحد القدور وهي تسأل بحدة:

- ما هذا؟

اتسعت ابتسامة «حَمَد» يُشير إلى جنين ما يزال في رحم التكوين، ويقول:

- لابنتنا يا «عِيدة».

اشتعلت النيران من عينيها، غادرت المطبخ ومنه إلى غرفتها المرتبة من الأساس، ترفع هذا من مكانه، وتعيد ذاك. تبعها «حَمَد»، يتدلى من أصابعه الفستان كشوق كسيح، وقف على أعتاب الغرفة يرقبها بصمت.

لم يقطعه إلا وضعه للفستان فوق فراشهما؛ احتدت «عِيدة»:

- أعده إلى البائع وأحضر لنا ملابس صبي.

انقبض قلبه، ككل مرة تُعلن فيها أن برحمها صبيًا، وأنه لن يكون غير صبي. لو كان رجلًا آخر لشاركها أمنيتها في صبي يرث منه الاسم والمال، لكنه يعلم معنى أن تلد «عِيدة» صبيًّا!

- أريد بنتًا يا «عِيدة»، في جمال أمها، واتساع عينيها.

أمسكتْ «عِيدة» ببطنها بقوة، حتى كادت أظافرها أن تنغرز فيها وتُدميها. همست بصرامة:

- صبيًّا، سيكون صبيًّا!

سرقت كلماتها الفرحة من وجهه، والأمل من عينيه. ارتدى جلبابه وخرج من البيت مُبتئسًا، حتى الخُبيزة التي يحبها فقد شهيَّته فيها.

تذكَّر تعنيف والده شيخ القبيلة كثيرًا في صغره، حين ينغزه الألم ويبكي، يدفعه لأن يحذو حذو إخوته الرجال مُعلنًا أن الرجل الحقيقي لا يبكي، الرجل الحقيقي يُطهر قلبه من حنان النساء ورقتهن. كم حاول «حَمَد» أن يقسو! أن يغلظ القول! كم حاول ألا يتألم! ألا يبكي! لكن عبراته تُعانده عندما يكثر حِمله، ويقصم ظهره؛ يبكي، كما تبكي النساء!

يُخجِله ذلك، يُشعِره بالعار، كأنه رجل منقوص!

لم يُحاول قط أن يسكب عبراته بين يدي «عِيدة»، كي لا تلمس ما برجولته من نُقصان، وما بقوته من خُذلان!

توجه إلى الخلاء، جلس على أعتاب كهف، لا هو داخله ولا هو خارجه، يرفع نظره إلى السماء، حيث يودِع الناس ما يشتهون من أمنيات، ويتوسلون بالرجاء والدعاء.

رفع كفَّيه، فاضتْ عيناه، وتوسَّل ربَّه بقلب راجف:

- اللهم بنتًا!

ثم أضاف هامسًا بخجل مَن يستشعر عِظَم ما يتلفَّظ به:

- وإن كان صبيًّا.. اقبض روحه جنينًا يا الله!

---

(٣)

انغمستْ «شفق» في قراءة ملف القضية مرات ومرات، لم تترك تفصيلة إلا واستوعبتها، ولا ثغرة إلا وملأتها بِالشواهد والبراهين. هذا الـ«غراب» مجرم، هو المسؤول عن حادثة العمال بما لا يدع مجالًا للشك.

سمعت طرقات على باب مكتبها، فأذنتْ لصاحبها بالدخول، ما إن رأت القادم حتى وقفت تقول بحفاوة:

- باشمهندس «منعم»، حمدًا لله على سلامتك.

دخل الرجل الذي تعلَّقتْ ذراعه اليُمنى بشاشة مُلتفة حول رقبته، وقابل حفاوتها بمثلها:

- «شفق»، كيف أحوالكِ يا بنتي الغالية؟

المهندس «منعم» الخمسيني مدير فرع الشركة بالعريش جلس فوق المقعد المواجه لها، حذَتْ حذوه متسائلة باهتمام:

- أنا بخير. متى خرجتَ من المستشفى؟

- منذ أيام.

- ولماذا لم تمد إجازتكَ أكثر؟ تحتاج إلى الراحة.

- بل أحتاج إلى العمل.

قالها الرجل غير المعتاد على المكوث في المنزل لفترات طويلة بغير عمل، ثم استطرد وهو يُشير إلى ذراعه المصابة:

- باستثناء هذا فصحتي جيدة جدًّا.

قالت «شفق» تحمد ربها:

- الحمد لله أن الإصابة لم تكن بالغة، نجَّاكَ الله بأعجوبة يا باشمهندس.

ثم استدارت حول المكتب وجلست مواجهة له، فتحت ملف القضية وهي تقول بتردد:

- كنت أرغب في الاتصال بكَ، لكن بما أنكَ عدت إلى العمل فهل لي أن أسألكَ بضعة أسئلة متعلقة بالحادثة؟

رحَّب بكل أسئلتها، فقالت وهي تُلقي نظرة على صورة «غراب»:

- أنتَ متأكد تمام التأكد أن مفتاح المخزن لم يكن مع أحد سوى «غراب السيناوي»، أليس كذلك؟

أومأ برأسه مؤكدًا بينما يميل قليلًا إلى الأمام قائلًا بلا مبالاة وكأن القضية بأسرها لا تعنيه في شيء:

- نعم، متأكد، كما أنه يوجد شريط مُسجَّل على كاميرا المراقبة بالمخزن، لم يدخل أحد أو يخرج إلا «غراب»، هو المسؤول عن الحديد والأسمنت وكل مُستلزمات البناء التي تُرسلها الشركة لنا من القاهرة، والتي نستخدمها في بناء المشروع.

أمسكتْ «شفق» بقلمها تُقلِّبه بين أناملها، بينما تُعيد على مسامعه تفاصيل القضية:

- إذن كل ما استلمتموه من القاهرة كان مطابقا للمواصفات كما تشير الاوراق التي وقعت عليها أنت و«غراب» ومشرفة الموقع «دهب»، ثم دخلت هذه المستلزمات المخزن الذي يملك «غراب» مفتاحه، لأنه المسؤول عن نقلها إلى الموقع حسب تعليمات مهندس الموقع، أليس كذلك؟

أومأ برأسه مؤكدًا، فأضافت وهي تتفحَّص الأوراق بعينيها:

- «غراب السيناوي» هو المسؤول عن عمال الموقع، وهو الذي يُبلِّغهم بشكل مباشر تعليمات مهندس الموقع ويتأكد من تنفيذهم إياها، أليس كذلك؟

أومأ برأسه ثانية، فاستطردت:

- شهد الخفير أنه رآه ليلة الحادثة يحوم حول الموقع بشكل أثار ارتيابه، لكنه لم يُبلغ عن ذلك إلا بعد وقوع الحادثة.

أومأ برأسه ثم قال:

- حسب الشهود وكاميرات المراقبة وتوقيعه على وثائق المستلزمات التي استلمها من مهندس الموقع، إنه الوحيد الذي كان بإمكانه سرقتها من المخزن، واستبدال مواد أخرى بها غير مطابقة للمواصفات، وأيضًا إحداث خلل في البنية الأساسية والتي كانت السبب في سقوط البنايات.

تساءَلتْ «شفق» وقد عقدتْ ما بين حاجبيها الدقيقين:

- لكن كيف فعل هذا وحده؟

- حسب رأي الأستاذ «منصور» أن له شركاء، سواء عمال من عندنا أو أناس أتى بهم مخصوص من أجل هذه المهمة.

تساءلتْ عن أهم علامة استفهام تتشكَّل في رأسها:

- ولماذا يفعل ذلك؟

هزَّ «منعم» كتفيه وهو يقول:

- حسب رأي الأستاذ «منصور» قد يكون لأي سبب، لكن السبب الأقوى حسب رؤيته أنه تعاون مع شركة منافسة لنا. تعلمين أن الموقع كان معروضًا من خلال مناقصة مهمة، وأن شركتنا فازت بها، وهذا أثار استياء العديد من الشركات المنافسة.

لم تصدق «شفق» أن الجشع قد يصل بالإنسان إلى أن يزهق العديد من الأرواح! لم يتقبَّل عقلها ذلك، لكنها تعلم أنها لا تعيش في عالم مثالي، وأن مثل هؤلاء البشر كالخبث الذي كثُر وطغى على كل طيب، حتى لا يكاد مجال عمل يخلو من أصحاب الذمم الفاسدة، والقلوب الميِّتة.

فأتوا بالكبائر والمُحرَّمات في سبيل دنيا وشهوات.

تمعَّر وجهها تقززًا من «غراب» وأمثاله. ما إن نهض «منعم» للانصراف حتى استوقفته قائلة بفضول:

- تقول دائمًا «حسب رأي الأستاذ منصور»، فما هو رأيكَ أنتَ؟

ولدهشتها سكتَ سكتة طويلة غامضة النظرات، ثم انصرف دون أن يمنحها جوابًا واضحًا!

أوقفت «شفق» سيارتها أمام بيت بسيط من الطوب من طابق واحد، استدلتْ من مظهره والأريكة المتهالكة الموضوعة أمامه أن صاحبه «بشير» رجل رقيق الحال. طرقت ثلاث مرات، وكادت أن تنصرف لولا أن فتحتْ زوجته الباب.

امرأة طيبة الملامح، متواضعة القسمات كانت، منحتها «شفق» بسمة سخية ثم سألت عن زوجها «بشير» وعرَّفتْ بنفسها؛ فما كان من قسمات المرأة الهادئة إلا أن اتسمتْ بالخوف والجزع، انتبهتْ «شفق» لذلك فطمأنتها فورًا:

- لا تخافي، أريد أن أعيده إلى العمل.

هشَّتْ المرأة وبشَّتْ، دعتها للدخول، ثم أجلستها على أريكة متواضعة، صدق ظن «شفق»، فخارج البيت لم يكن أفضل حالًا من داخله. استرقتْ النظر إلى أطفال ثلاثة يجلسون أرضًا ويلهون في اللعب بعجينة من الدقيق والماء وكأنها لعبة صلصال، تنطق نظراتهم بفضول صارخ.

لحظات وأتى «بشير»، مُعافى الجسد، عليل النفس.

من النظرة الأولى رأت فيه بواعث المرض، وكأن بيتًا للداء أنشأهُ الهَم داخل صدره. جلس وأطرق برأسه، يتبادل النظر مع زوجته التي تُبشِّره بنظراتها أن كل شيء سيكون على خير ما يرام.

استهلَّت «شفق» حديثها:

- حمدًا لله على سلامتكَ يا «بشير»، سمعتُ أنكَ كنت في الموقع وقت وقوع الحادثة وأنكَ لم تُصَب بسوء.

تمعَّر وجهه على ذِكر الحادثة، تلوَّى في مقعده كأنه يجلس فوق جمرات حارقة، لا يعرف السبيل لإطفائها.

هدَّأتْ من نبرتها تُطمئنه:

- لقد أعدتكَ إلى عملكَ، ولا تقلق، لستَ مضطرًا إلى الذهاب الآن، لديكَ إجازة مفتوحة حتى تشعر أنكَ مؤهَّل للعودة.

هنا حدث ما لم يكن في حُسبانها قط؛ انفجر «بشير» في البكاء!

أسرعَت زوجته بإدخال الأطفال غرفتهم، ثم عادتْ تجلس بجوار زوجها تُشاركه الهم والألم، قال بصوت مُتحشرج:

- لا أظن أنني سأتمكن من العودة.

مالت زوجته صوبه وأمسكت بكفه بين يديها، تشد بقلبها على قلبه، قالت «شفق»:

- ستعود يا «بشير»، شدة ستزول -إن شاء الله- الوقت علاج فعَّال، ستتمكن من النسيان.

تاهت نظراته، وكأنه يُبصر مشهدًا لا يراه أحد غيره، ثم قال:

- أراهم كل ليلة يصرخون من تحت الأنقاض، كنا قبلها بدقائق جالسين معًا نشرب الشاي ونتبادل النكات والضحكات، ثم طلبوا مني أن أحضر بعض الأخشاب كي يشعلوا النار للتدفئة،

غبت لدقائق، دقائق فحسب، سمعت خلالها صوتا رهيبًا، مثل انفجار قنبلة.

ثم اتسعت عيناه يقول:

- أو أن السماء انشقَّت وانفجرت منها صيحة القيامة. ظننتُ أنها نهاية العالم، حتى إنني تساءلتُ كيف تكون النهاية دون أن نرى المسيخ الدجال، ثم قلتُ لنفسي يا «بشير» كم ظالم رأيتَ وكم فاسق سمعتَ عنه!

هؤلاء كالمسيخ الدجال.

أردف بصوت مختنق:

- وعندما عدتُ رأيت المبنى متهدِّمًا فوق رؤوسهم، كانوا تحت الأنقاض، سمعتُ صرخات وبكاء وأنينًا، جريتُ على أحدهم وكان نصف جسده باديًا والآخر مطحونًا تحت الطوب، لقَّنته الشهادتين، ظلَّ يُرددها حتى غاب عن الدنيا.

ثم أطرق برأسه أرضًا يرفع كفَّيه ويقول:

- حملتُ بيديَّ خمسة مصابين، ومثلهم من الجثث والأشلاء، الغبار في كل مكان، واللون الأحمر كوشم الشيطان فوق الأنقاض وتحتها. ما زلتُ أرى كل شيء كل ليلة في أحلامي، نتسامر حول أكواب الشاي، هذا يُحدِّثنا عن ابنته التي على وشك الزواج ومصاريف تُثقل كتفيه، وهذا يُبشِّرنا أنه سيصير أبًا بعد أشهر قليلة.. أبتعد لأحضر الخشب، ثم صيحة القيامة والصراخ والدماء والأشلاء.

رفع نظره ينظر إليها، يراها ولا يراها، يصيح فيها بحُرقة:

- كيف يُمكنني النسيان؟

انطفأ بريق عينيها، أطرقت برأسها لا تقوَى على الكلام، كيف تُجيبه عن سؤاله العسير؟

ليتَ النسيان سهلًا؛ لصنعت منه شركات الأدوية عقاقير وأمصالًا، ولباتَ في متناول كل مهزوم، مثل شربة دواء. لكن درب النسيان محمل بذكريات حادة مثل كسرات زجاج، عليه أن يسير فوقها بقدمين عاريتين.

لا سبيل إلى الهرب، إما أن يستعين بالله ليبلغ نهاية الطريق ويلقَى النسيان، أو يقع في دوامات الجنون!

أعملتْ «شفق» نظرها فيما حولها، هذا الرجل لا يملك رفاهية الراحة دون عمل. فتحت حقيبتها، وأخرجت منها مالًا، لم تكد تمُده إليه حتى انتفض من مجلسه يهتف بها:

- هل أتيتِ إلى بيتي لتُهينيني يا أستاذة؟

قالها ودخل غرفته على الفور، «شفق» التي اضطربت قسماتها نظرت إلى الزوجة تقول بنبرة مُعتذرة:

- لم أقصد، أنا...

وقفتْ زوجته تتخذ موقفًا دفاعيًّا مؤازرًا لزوجها، وتقول بحدة:

- شكرًا على الزيارة يا أستاذة، نحن لسنا شحاذين لنأخذ منكِ صدقة، ولا أفاقين لنأخذ رشوة

.

فنصمت.

أعادت «شفق» المال إلى حقيبتها، اعتذرت، وكررتْ الاعتذار هامسة بأسفٍ. غادرت البيت وقد استبد الحزن بقلبها، يجب أن تجد طريقة لمساعدة هذه الأسرة.

سارت بضع خطوات، وما إن دنت من سيارتها حتى صادفتْ «غرابًا» أمامها! جفلتْ ورجعت خطوة إلى الخلف، ما زالت قسمات وجهه والجُرح المحفور فوق وجنته يثيران نفورها وحذرها في الوقت ذاته.

سألته بحدة غير مُبررة:

- إلى أين تذهب؟

أطرق برأسه للحظة ثم رفعه قائلًا بمسحة ساخرة:

- يبدو أن دور عسكري المرور قد أعجبكِ، تعطينني إشارة حمراء كلما سرت في اتجاه لا يعجبكِ.

حتمًا هو ذاهب إلى «بشير»، ماذا يريد منه؟ هل سيدفعه للثورة ضد الشركة؟ أو لأن يشكوهم في نقابة العمال؟

رأته يحمل حقيبتين من مواد غذائية وزيت وسكر، فاقتبست النبرة الساخرة ذاتها وقالت استنادًا إلى تجربتها:

- لن يقبل «بشير» شيئًا.

استرق «غراب» النظر إلى ما يحمله، ثم قال:

- أنا لن أعطيه صدقة، أنا قادم لزيارته والاطمئنان عليه، و«بشير» سيناوي أصيل يعلم أنه لا يصح رفض هدية الزائر.

ثم قطبَ جبينه يقول:

- واضح أنكِ حاولتِ إعطاءه صدقه فرفض، «بشير» عاملٍ فقير نعم، لكنه رجل عفيف النفس، من أولئك الذين قال الله فيهم }يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ{.. ما كان عليكِ أن تُهينيه بهذا الشكل.

قالت مغتاظة:

- تقتُل القتيل وتسير في جنازته! وكأنكَ لستَ المسؤول عن الحالة التي وصل إليها «بشير».

رفع كفَّه قائلًا:

- لن أتجادل معكِ.

ثم أردف متبرمًا:

- أساسًا تحدَّثت معكِ أكثر مما ينبغي.

استكمل سيره صوب بيت «بشير» فاستدارت واستوقفته بكلماتها:

- لن أسمح لكَ أن تؤذي «دهب» كما أذيتني.

ظنته لن يلتفت لها، لكنه وضع حِمله ارضا ودنا منها قائلا بدهشة:

- أذيتكِ؟ أنا! كيف أذيتكِ؟

- نعم أذيتني؛ كدتَ أن تخطفني تلك الليلة لولا أن أنقذني «أكمل».

هتف مُستنكرًا:

- أخطفكِ؟! كنتُ أساعدكِ، أردتُ أن أجر سيارتكِ حتى أقرب ميكانيكي لتصليحها.

عقدت ذراعيها تقول باستنكار بالغ:

- صحيح، صدقت! لهذا السبب لم تستأذن مني!

- لم أستأذن منكِ لأنكِ ما كنتِ ستقبلين؛ كنتِ خائفة مني، ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ هل أترك فتاة بمفردها بسيارة مُعطَّلة وسط طريق صحراوي في هذا الوقت من الليل؟!

مُحتدَّة رمته بكلمته التي قالها قبلًا:

- قلتَ لي «رأيتكِ»؛ صدمتني عمدًا.

تمتم بشيء، لم تصل همسته إلى سمعها، فلا تدري إن كان يسُب أم يستغفر، ثم قال:

- نعم رأيتكِ، لكنني لم أصدمكِ عمدًا، كنتُ أعلم أن لـ«دهب» توأمًا، لكنني لم أظن أن الشبه بينكما متطابق إلى هذا الحد، صُدمتُ برؤيتكِ وهذا ما جعلني أفقد التحكم في المقود للحظة.

كادت أن تقول له أشياء وأشياء، لكنها لا تعرف لما ألجمتْ كلماته لسانها بغتة، وبخاصة حين أردف وهو يرفع أصابعه ويعُد عليها:

- لم أتسبب لكِ في أي أذى، أما أنتِ فقد آذيتِني عدة مرات؛ اتهمتِني بصدمكِ عمدًا، وقلتِ للشرطة إنني حاولتُ خطفكِ.

ثم رفع يده اليُسرى المصابة وقال:

- وتركتِني للكلاب تنهشني.

عند هذه النقطة فقدت القدرة على الجدال، تذكَّرت حين طرق زجاج النافذة بكفيه كي تفتح له، لم تتحرك، لم تنجده، غلَّقتْ الأبواب دونه.

التفتَ عائدًا إلى الأغراض التي وضعها أرضًا، لكنها استوقفته ثانية، وقد رمته بكل شكوكها:

- ولهذا السبب تحديدًا لا أثق بكَ، تركتكَ هناك وسط الظلام تُصارع ثلاثة كلاب مسعورة، هل تريد مني أن أصدق أنكَ بعد ذلك جررتَ سيارتي كي تُساعدني؟!

هزَّ كتفيه قائلًا بلا مبالاة:

- صدقي أو لا تصدقي، لا أهتم.

قالت مؤكدة:

- لا أصدق؛ لا أحد يفعل ذلك، لا أحد يقابل من أساء إليه بالإحسان، وفي اللحظة ذاتها!

لاح فوق ثغره شبح ابتسامة، ثم رماها بكلماته قبل أن يستكمل سيره:

- ليس ذنبي أنكِ لم تُقابلي «رجلًا» من قبل!

لم تكن كلمات، بل صفعات! نزلت منها منزلا شاقا، صعَبَ عليها احتماله. جرّت نفسها صوب سيارتها، وجلست طويلًا دون حراك.

وكأن غرابًا حطَّ فوق رأسها!

---

(٤)

ظنَّ «جبار» أنه إذا بنَى جدارًا يُقسم بيته نصفين متساويين سيكون بمأمن من النزاعات بين زوجته الأولى والجديدة. أدرك خطأه منذ اليوم الأول الذي تزوَّج فيه بالثانية، كان عليه من البداية كي يعيش هانئًا أن يُسكِن كلًّا منهما في بيت منفصل، إحداهما في شرق الكرة الأرضية مثلًا، والأخرى في غربها.

لم تكن مشكلة «بخيتة» (زوجته الأولى التي كنزَتْ الشحم واللحم بعد ولادات خمس) أنها تغار من جمال ورشاقة زوجته الثانية فحسب، بل أنها جاءَت من بيت تزوَّج فيه والدها بثلاث نساء كما اعتادَ أن يفعل الكثير من رجال «السخاوية»، فجاءته مُحمَّلة بتجربة سلبية تتنبأ بتكرارها مرة أخرى.

أي أن المشكلة تحدث قبل أن تُخلَق أسبابها! وكأنها ترى الغيب وتعلم أن المشكلات قادمة لا محالة.

أما «زبيدة» -زوجته الجديدة الأصغر والأجمل- ما كانت لتتحمل كل هذه الصراعات لولا أنها تعلم من هو «جبار»، يكفي أن شيخ القبيلة بجلالة قدره يعده ابنًا من أبنائه، أين لها برجلٍ مثله سيدًا في قومه، قوي الشكيمة، يهابه الصديق قبل العدو؟

كما أنها كانت تعرف كيف تُوقِع «بخيتة» في شر أعمالها، وتقلب الطاولة فوق رأسها، و«جبار» رجل جلف ليس له باع في مكر النساء وكيدهن، يأخذ الأمور على علَّاتها، ولا يبحث عما وراء التفاصيل.

«بخيتة» تستقبله بالمشكلات، و«زبيدة» تُخفيها عنه؛ إذن «بخيتة» وقود المشكلات، و«زبيدة» طفَّاية الحريق.

كان في خضم مشكلة جديدة حين أعلمه نداء «طحنون» أنه ينتظره بالخارج؛ نهض من فوره وارتدى جلبابه وترك لهما الجمل بما حمل.

استقبلَ «طحنون» أمام البيت وضايفه بكوب من الشاي، لم يشربه «طحنون» في الحال، إذ إن آثار الملعقة الساخنة فوق لسانه ما تزال تؤلمه.

بادره بانزعاج، وبكلمات لم يُحسن نُطق مخارج حروفها:

- أنا خائف يا «جبار»، ماذا إن انكشفت الكذبة؟

ارتشف «جبار» مرتين من السائل الساخن، ثم قال بحدة:

- ما هذا الجُبن يا رجل؟ «السخاوية» لا يخافون.

استطرد الرجل ثم أخرج لسانه يُريه إياه:

- يا «جبار»، لقد وُصِمتُ بعار الكذب.

ثم أردف نائحًا:

- لن ينظر أحد في وجهي بعد الآن، اليوم رفض بعض التجار أن يشتروا مني أو يبيعوا.

ارتشف «جبار» مرتين ثم سأله باهتمام بالغ:

- هل اخبرت ابنتك مادا ستقول؟

- نعم فعلتُ، حفظَتْ كل كلمة.

قال «جبار» بخبرة العارف:

- «البِشعة» يصعب الإفلات منها، لكن الأمر ليس مستحيلًا، كل ما هناك أن ابنتكَ ستحرص على أن تكون هادئة، وريقها يجري باستمرار.

ثم رفع إصبعه مُحذِّرًا:

- إذا خافت سيجف ريقها، وإذا جف ريقها ستلسعها الملعقة الساخنة وتوصم بالكذب. نبِّه عليها جيدًا ألا تخاف.

ثم أخرج من جيبه رزمة نقدية من فئة يسيل لها لعاب «طحنون»، أعطاها له وهو يغمز قائلًا:

- هذا دواء فعَّال للخوف.

دسَّ «طحنون» المال في جيبه بسرعة وهو يتلفَّتْ حوله مخافة أن ترصده الأعين، ثم مال على «جبار» متسائلًا:

- لكن يا «جبار» لماذا فعلتَ كل ذلك؟ عندما أخبرتكَ أن جمالي ضاعت قلتَ فورًا فلنلصقها بـ«السوارفة».

احتسى «جبار» باقي الكوب في رشفة واحدة، ثم احتدَّ وأمارات الغيظ على وجهه:

- أردتُ أن أتحدَّى «بحرًا» بدخول أرضه وقتما شئتُ وكيفما شئتُ، وأن آخذ ما أريد في الليل أو النهار.

سأله «طحنون» وقد ارتعدتْ فرائصه لمرأى قسمات «جبار» الغاضبة:

- إلى متى ستُزعج «السوارفة» بأفعالك يا «جبار»؟

أجاب بحقد دفين، وعيناه تجوبان الأفق:

- حتى أسترد منهم ما أخذوه مني!

كان «حلم العمر» رفيقها في الليالي الموحشة، كيف سيحل المساء دون رفقته؟ كيف ستعيش دونه؟

لماذا منحوها الحلم من الأساس إذا كانت الأيام ستنزعه منها بتلك القسوة؟ قادتها قدماها إلى بيت زوجة عمها «أم ذيل»، التي تضعها في منزلة الأم، تُعاتبها على حلم زرعته في رأسها منذ أن كانت طفلة لا تعي من الحياة إلا الفرح والهناء.

قالت لائمة، وفي مقلتيها حلم ينهار:

- إذا كانت القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، لماذا جعلتِني أصدق أن «عينًا» لـ«بحر» و«بحرًا» لـ«عين» يا زوجة عمي؟

ربَّتتْ «أم ذيل» فوق كتفها وقالت:

- يا بنتي، لم ينتهِ اي شيء بعد.

وكأنها لم تسمعها أشارت إلى مواضع متفرقات بالبيت، تُذكِّرها بما قالته قبلًا، والمرارة تحتشد في حلقها:

- هنا، فوق هذه الأريكة، ضممتِني إلى صدركِ ليلة العيد، وقلتِ لي إن أبنائي سيلعبون في هذا الركن بألعاب «بحر» حين كان صبيًّا صغيرًا.

ثم أردفتْ بألم:

- وهنا مسحتِ فوق رأسي يوم زواج «عِيدة» و«حَمَد» وقلتِ لي أنتِ عروس ابني يا «عين».

ثم استطردت بصوت مرتجف النبرات:

- وهنا أهديتِني قلادة ذهبية فيها حرفا الـ «الباء» و«العين»، وقلتِ لي إن يوم زفافي ستهدينني واحدة أكبر.

ضمَّتها «أم ذيل» إلى قلبها، حزينة عليها، ناقمة على «بحر» وغلظته، سكبتْ «عين» عبراتها وهي تقول باكية:

- في عُرفنا يستحيل أن أتزوج من خارج القبيلة، ولن يطلبني أحدٌ من رجال «السوارفة»؛ الكل يعرف أنني زوجة «بحر»، حياتي انتهتْ يا زوجة عمي.

رفعتْ «أم ذيل» رأسها، مسحت عبراتها، وهدَّأتْ من روعها، ثم قالت بحزم:

- لن أسمح لـ «بحر» أن يفعل هذا بكِ. هل تظنين أن الشيخ سيتركه يتصرف على هواه؟ هو زوجكِ شاء أم أبَى.

هزَّتْ «عين» رأسها نفيًا وهي تعترف بألم:

- لا يريدني، لا يحبني.

أجابتها «أم ذيل» بالحزم نفسه:

- وما شأني والحب؟! هناك أشياء أهم من الحب، هناك أصول وعادات عليه أن يحترمها ويضعها نصب عينيه.

ثم استطردت بنبرة امرأة حكيمة، تعرف الحياة ومعتركاتها:

- المرأة الذكية تعرف كيف تُحبِّب رجلها فيها، وأنتِ قلبك مثل البلور يا «عين»، مَن ذا الذي لا يستطيع أن يحبكِ؟

نبتتْ بارقة أمل في عينيها، وتوقف الهدم، مسحت عبراتها بظهر كفَّيها وقالت ببشاشة:

- صدقًا يا زوجة عمي؟

ابتسمت «أم ذيل»، وضمتها لصدرها ثانية:

- صدقًا يا عين، عليكِ أن تصبري، أن تحاربي وألا تستسلمي أبدًا.

ثم نهضتْ وأحضرت لها أغراضًا حثَّتْ زوجة ابنها الأكبر أن تطلب منه أن يشتريها من القاهرة في سفرة عمل، أهدتها لـ«عين» التي فرحَتْ بأدوات الزينة وأغراض البنات وملابس العروس في بيتها.

ايقظت كلمات «ام ديل» في نفسها بعضا من الشجاعة الراقدة في سباتها العميق. نعم ستحارب، من أجل «بحر» وقلبه ستُحارب، وتَبذُل الغالي والنفيس.

تحتاج إلى معين، إلى مُرشد له في فنون الحرب باع طويل؛ قادتها قدماها صوب بيت صغير، طرقت بابه، وانتظرت حتى انفتح، فقالت بسرعة وكأنها تخشى أن تُفلِت زمام شجاعتها:

- سأفعل كل ما تقولينه يا «عِيدة»!

---

(٥)

استرق النظر إلى ساعته ذات الماركة القيِّمة، موديل طلب تصنيعه خصِّيصًا من أجله. تبقَّى على الموعد عشر دقائق.

يعلم أن من خصال «شفق» الجيدة دقة مواعيدها، لن تتأخر عن عشر دقائق، بإمكانه الرهان على ذلك بكل أمواله بثقة تامة. ليست ميزتها الوحيدة، فهي أيضًا ابنة لـ «منصور النمر» رجل أعمال ناجح ولديه شبكة علاقات قوية، نسَب يتشرَّف به أي رجل.

ليس ذلك فحسب، بل إن والدتها دكتورة جامعية، أي أن الأسرة لها باع في العلم ودنيا الأعمال، وهما أساس أي نجاح في الحياة، «شفق» أيضًا لديها مميزات خاصة بصرف النظر عن مميزات انتمائها لأبوين من طبقة راقية، فهي مُتناسقة القسمات، رشيقة الحرف، قوية حين تضيق الحياة خناقها، وصبورة حين تقسو عليها.

هي طويلة كذلك، لا يرغب في ابن أو بنت قصيري القامة، لا يفهم سر انزعاجه من قصيري القامة، يبدو أنه انطباع وُلِد في ذهنه منذ زمن.

معنى أنها طويلة أن صفات الطول في جيناتها سائدة، وصفات القِصَر -إن وَجِدَت- فهي صفات مُتنحية، أي أن احتمالية أن يكون له ابن قصير القامة هي احتمالية ضعيفة.

أبوها أيضًا له عينان ملونتان، صحيح أنه و«شفق» يملكان عينين سوداوين لكن جده الأكبر كانت عيناه ملونتين، وبذلك هناك احتمالية لا بأس بها أن ينجب طفلًا ملونًا مثل أطفال الإعلانات.

كما أنها ليست مهووسة بعمليات التجميل، شَدِّها ونفخِها، وهذا يمنحها وقاية أكثر من الأمراض التي تنتقل بسبب هذه الحشوات الاصطناعية.

لم يُعكِّر صفوه في البداية إلا مرضها التنفسي، لكن ثلاثة من الأطباء أكدوا له أنه مرض غير مُعدٍ، وأن بإمكانها أن تؤدي وظيفتها كزوجة دون قصور أو خلل.

استرق النظر مرة أخرى إلى ساعته، بقي خمس دقائق.

هي أيضًا حسنة الخُلق، تُقدِّس منظومة الأسرة، إن احتاج إلى عملها ستعمل بجِد ونشاط، وإن احتاج إلى بقائها في المنزل لرعاية طفلهما حديث الولادة فستفعل دون ضجر، ودون أن تُرهقه بالحديث عن أهمية عمل المرأة وإثبات ذاتها.

كما أنها تُصلي فروضها، في حين أنه مُقصِّر فيها، عجز عن إخبارها بتلك الحقيقة لأنه علِم ممن حولها أن ذلك سيكون سببًا في ترددها في الموافقة على الزواج به، لكنه يُحاول، حتى إنه صلَّى بالأمس الظهر، وأول أمس صلى العصر، تقدُّم لا بأس به في رأيه.

في إحدى المرات التي حضر فيها صلاة الجمعة في المسجد سمع الشيخ يروي حديثًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «تُنكَح المرأة لأربع؛ مالها، وجمالها، وحسبها، ودينها».

و«شفق» تملك الخصال الأربع، هي زوجة مثالية كما يقول الكِتاب.

استرق النظر إلى ساعته، ثم إلى باب المطعم؛ اتسعت ابتسامته عندما رآها تدلف من الباب وتبحث بأنظارها عنه، أشار لها فاقتربت وهي تسأل بودٍّ:

- هل تأخرتُ؟

نهض وقال لها باسمًا بإعجاب:

- بل في موعدكِ تمامًا.

أزاح مقعدًا لتجلس فيه، لم ينتبه إلى نظرات حسدٍ آتية من الطاولة المجاورة، لامرأة تعجَّبتْ من فعلته، وهي غالبًا ستنوي الشجار مع رفيقها لأنه لا يفعل مثل هذا الرجل الراقي، ويزيح مقعدها لتجلس فوقه، وكأن ذلك لا يكفي، تنامى غيظها حين فتح «أكمل» زجاجة مياه وصبَّ منها لـ«شفق» دون أن تطلب، ووضع أمامها الكوب، فالتقطته ببسمة شاكرة.

بادرها «أكمل»:

- كيف مرَّ يومكِ؟

احتارتْ «شفق»؛ هل تُحدِّثه الآن عن «بشير»، أم عن لقائها بـ«غراب»، أم عن شجارها مع «دهب»، أم عن محادثة أبيها المُجهِدة لأعصابها؟

شعرتْ بالإرهاق من مجرد التفكير في الحديث عمَّا يُضايقها؛ فاكتفت بأن تجيب:

- بخير جدًّا.

لو كانت «نرجس» حاضرة لقالت لها: كاذبة جدًّا.

أمسكَ «أكمل» بقائمة الطعام قائلًا:

- سأختار لكِ على ذوقي.

لم تكن في مزاج رائق لتفحُّص القائمة، فتركت له حرية الاختيار.

انتبهتْ إلى نظرات المرأة على الطاولة المجاورة، نظرات وقحة اعتادت أن تُصادفها كلما وُجِدَتْ مع «أكمل» في مكان عام. أطالتْ النظر إلى المرأة حتى انتبهت وتلاقت نظراتهما، لم تحِد «شفق» بنظراتها المستهجِنة، حتى اضطرَّتْ المرأة إلى لملمة نظراتها عنهما.

لم ينتبه «أكمل» لحرب النظرات التي كانت دائرة منذ لحظات، إذ كان يتحدث إلى النادل ويطلب منه الطعام. قرَّب عُلبة مخملية من «شفق»، نظرت إليه متسائلة فقال مُبتهجًا:

- هدية من أجلكِ.

ابتسمتْ بخجلٍ طغت عليه الدهشة:

- من أجلي؟

وضَّح قائلًا:

- لم أشترِ لكِ هدية حتى الآن، فلنعدها هدية خطبتنا.

فتحت «شفق» العلبة بفرحة لم تستطع أن تكتمها، نظرت بإعجاب إلى سلسلة ذهبية يتدلَّى منها قرص الشمس، قال مُتفكِّهًا وهو يُشاركها النظر إلى هديته:

- لم أجد شفق، فجئتُكِ بالشمس كلها.

كانت من الهدايا القليلة التي تلقَّتها بشكل مُفاجئ، ثم تضاحك قائلًا:

- إياكِ أن تقولي ثانية إنكِ لا تحبين المفاجآت.

اتسعت ابتسامتها تقول:

- هذا النوع من المفاجآت أحبه، فقط المفاجآت التي تحوي أناسًا غرباء أكرهها كثيرًا.

اختفت ابتسامتها في لحظة، حين تذكَّرتْ «بشيرًا» الذي ربما لا يجد ما يتعشَّى به هو وأطفاله، ثم تذكَّرت ما حمله «غراب» من مواد غذائية فقرَّتْ عينًا. وأخيرًا تشجَّعَت لتُفصح عن مكنونات نفسها:

- «أكمل»، أريد أن أحادثكَ في أمر مهم.

أولاها اهتمامه وهو يستمع إليها حتى وصلت إلى رغبتها في مساعدته:

- يجب أن تمنح شركتنا لهؤلاء العمال المتضررين من الحادثة تعويضات كافية.

أرجع «أكمل» ظهره إلى الخلف وقال مستنكرًا:

- لن يحدث ذلك يا «شفق»، سمعتِ ما قاله أبي؛ إن صرفنا لهم تعويضات فهذا معناه أننا نقبل بتهمة التسبب في الحادثة، سيُضعف ذلك موقفنا أمام المحكمة وقد يستغله محامي الخصم ليضربنا تحت الحزام.

استطردت بحماس:

- لكن يا «أكمل» هذا العامل فقير جدًّا، لو رأيتَ بيته لأشفقتَ عليه مثلي، ثم إن لديه زوجة وأطفالًا.

أخرج «أكمل» بضع أوراق نقدية من جيبه ودفعهم إليها قائلًا:

-أعطيه هذا ولينتهي الأمر.

نظرت «شفق» للنقود ثم إليه، وقالت بحزم:

- لم أقل إنني أريد مالكَ يا «أكمل».

- أعرف، لكنها مساعدة مني، ولا داعي لنُدخل اسم الشركة في الأمر.

- أقول لكَ إنني حاولتُ أن أعطيه المال لكنه رفض.

- لا أفهم! تقولين إنه محتاج، ثم تقولين إنه رفض المال! كيف هذا؟

- الرجل عفيف النفس.

قال بنفاد صبر بينما يُعيد المال إلى محفظته:

- والله ما أعرفه يا «شفق» أن المحتاج يأخذ المال على الفور، هذا الرجل يخدعكِ ليحصل على قطعة أكبر من الكعكة.

قالت مستنكرة:

- أي كعكة؟ أقول لكَ الرجل بالفعل مريض.

تنهد قائلًا:

- أنتِ بالفعل حسنة النية بشكل لا يُصدَّق، الرجل أجاد التمثيل وحبَكَ دوره كما يجب. غدًا صباحًا سأذهب إليه ولنرَ هل سيستطيع الاستمرار في هذه المسرحية أمام مُتفرِّج مثلي أم لا.

ترجّته:

- من فضلك يا «أكمل» لا تذهب إليه.

شعرت بندم كبير أنها خاضت في هذا الحوار من الأساس.

ستتحدث مع أبيها بنفسها، ستقنعه، نعم ستفعل بالتأكيد.

تطرَّق بهما الحوار إلى «دهب» وخطبتها، أكَّد على ضرورة إنهاء هذه الخطبة قبل أن تتسبب للشركة بفضيحة يستغلها القاصي والداني، أرادت أن تقول له إنها لا تعرف كيف تُحل هذه المشكلة، وإنها أضعف من أن تواجه هذا الأمر بنفسها، طريق مظلم تسير فيه دون دليل، وما تحتاج إليه فقط شُعلة نور تُضيء لها عتمته.

كادتْ أن تقول له كل ذلك حين قال بثقة:

- «شفق» التي أعرفها قوية، أعلم أنكِ ستُحلين هذه المشكلة بغمضة عين.

استكانت في مقعدها بعقلٍ شارد، وضع النادل الطعام فوق الطاولة، استعدَّ «أكمل» لتناول الوجبة الشهية، قرَّب منها أدوات المائدة وحثَّها على البدء في تناول الطعام.

أعادت ظهرها إلى الخلف، وأعلنت بهدوء:

- أنا لا أحب السمك.

بعد انتهاء لقائهما لم تجد ما تفعله سوى العودة إلى المكتب، ودفن نفسها وسط كومة من الملفات. سمعت طرقات على الباب فرفعت رأسها، نظرت بتحفُّز إلى «عبقرينو» الذي دخل المكتب حاملًا صينية في يده.

أعادتْ ظهرها إلى الخلف وهي تسأله بقلق:

- ما هذا الذي تحمله؟

ابتسم وهو يقول بحماس:

- هذا ما ترغبين فيه الآن يا أستاذة «شفق».

نظرتْ بتوجُّس إلى الفنجان الذي وضعه أمامها، اختفت ابتسامته وقال:

- ما بكِ يا أستاذة «شفق»؟ إنه مشروب الشاي بالقهوة الذي تحبينه.

انفرجتْ أساريرها وهي تتناول المشروب، تشمُّه أولًا، ترتشف منه رشفة صغيرة، ثم تقول بتلذذ كبير:

- رائع جدًّا يا «عبقرينو».

وبينما تتناول رشفة أخرى أكبر أعلن قائلًا ببشاشة وهو يُحرِّك ذراعيه بطريقة مسرحية:

- كنتُ على ثقة أنه سيعجبكِ، فهذه القهوة مصنوعة من فضلات الفيل.

بصقت «شفق» ما بفمها أرضًا، مسحت فمها بمنديل وهي تصيح بصوت غصَّ بما ابتلعته منذ قليل:

- مادا تقول؟!

شرح لها بحماس بالغ وهو يُعدِّل من وضع نظارته فوق قصبة أنفه:

- إنه أفضل أنواع البن في العالم، يُطعِمون الفيل حبات القهوة الخضراء، ثم تأخذ الحبوب مجراها في بطن الفيل ثم في أمعائه الدقيقة ثم الغليظة ثم يُخرجها مع فضلاته، ثم بعد ذلك...

أوقفته بكفها متوسلة:

- أرجوكَ يكفي، لا أريد أن أعرف.

خافت من شُرب كوب الماء الذي أحضره مع المشروب، فأخذت حقيبتها وهمَّتْ بمغادرة المكتب. سألها بحيرة وهو يُشير بأسفٍ إلى المشروب الذي اجتهد في إعداده:

- ألن تُكملي مشروبك يا أستاذة «شفق»؟

قالت من فوق كتفها وهي تُغادر المكتب:

- توقَّفتُ عن شُرب الشاي بالقهوة يا «عبقرينو».

- منذ متى؟!

- منذ الآن.

أرادتْ الحديث، لا لمعنى ولا عِلَّة، فقط اشتهتْ ليلة سمر طويلة، فلبَّتْ دعوة «نرجس» إلى بيتها، لطالما أحبَّتْ الترابط بين أفراد أسرتها، إلى درجة أن أمها وأباها لم يسمحا لها بالسفر إلى العريش بمفردها عندما دعَتْ الحاجة إلى ذلك، وسافرا معها قلبًا بقلب.

أمها ربة منزل بسيطة، خرجت من المدرسة الثانوية من أجل الزواج، وأبوها رجل على المعاش، يكتفي بدخل معاشه شهريًّا، وراتب «نرجس» كله يذهب إلى حسابها بالبنك حتى يحين موعد زواجها، فتشتري ما لا يستطيع أبوها جلبه لها من أغراض.

استقبلتها أم «نرجس» ببشاشتها المعهودة، ثم توجَّهتْ إلى المطبخ لتتفنن في إعداد صنوف العشاء. على الرغم من أنها انتهت للتو من تناول عشائها مع «أكمل» الذي استبدل لها بالسمك وجبة أخرى اختارتها بنفسها، لكنها ما إن اشتمَّتْ رائحة الطعام الذي ما يزال في طور الإعداد حتى ازدردتْ ريقها جوعًا.

في الشرفة جلست الفتاتان تتبادلان أحاديث متفرقة عن هذا الموضوع وذاك، حتى تطرقت «نرجس» إلى سؤال الساعة:

- والآن أخبريني بصراحة، لماذا وافقتِ على «أكمل»؟

أخذتْ «شفق» نفسًا عميقًا، تحاول ترتيب أفكار كثيرة متشعبة في رأسها، حاولت العثور بداخلها على طرف خيط لتبدأ منه الكلام، لكنها فشلت في ذلك فهزَّتْ كتفيها في حيرة.

«نرجس» التي تعلم الصعوبة التي تُعانيها صديقتها في شرح ما يجول بخاطرها، وما يتستتر داخل نفسها، حاولت شد الخيط من بكرته:

- ادكر حين تقدم لكِ اول مرة انكِ حمدتِ الله ان امكِ رفضته، قلتِ لي بالحرف: لا يوجد كيمياء بيننا يا «نرجس.. هل ظهرت الكيمياء الآن فجأة؟».

- ربما كنتُ مخطئة، أو أنظر للأمر من زاوية خاطئة.

-كيف؟ اشرحي لي.

مسَّتْ « شفق» رداءها الأسود، وفركته بين أصابعها، ليست بحاجة إلى أن تُذكِّر «نرجس» أن «أكمل» لم يكن الرجل الأول في حياتها، ولا تحتاج إلى أن تُذكِّرها كيف انتهت هذه العلاقة بجُرحٍ ما زالت تحمل آثاره بداخلها حتى الآن.

- أنا بحاجة إلى بيت، ربما لا تفهمين ذلك لأنكِ لا تفتقدين شعور أنكِ في بيت، لكن أنا أفتقده بشدة، ولا أستطيع الاستمرار في التظاهر بأنني لا أحتاج إلى شيء.

ربما لو كانت تُجري هذا الحوار مع صديقة أو زميلة قبل عدة سنوات لأكَّدتْ عليها أهمية التروِّي في اختيار رجل حياتها، الذي ستمضي باقي عمرها برفقته، ولحذَّرتها من قبول رجل بينهما فجوات لا يُمكن ردمها، ولرفعتْ شعار الانتظار خير من ركوب القطار الخطأ.

لكن خطوط دفاعها وهنتْ بشدة، ما عاد بإمكانها انتظار القطار الذي رسمته في أحلامها، بات بإمكانها قطع تذكرة لوجهة لا تحبها كثيرًا، وتجلس في مقعدٍ قد يبدو غريبًا عنها للوهلة الأولى، لكنها لو دققتْ لوجدت أن الاختلاف بين الناس سُنَّة الكون، وأن توأم الروح خُرافة اخترعها الأدباء للترويج لأبجدياتهم الفكرية.

- أفهم أنكِ ترين اختلافًا كبيرًا بيني وبين «أكمل»، لكنه ليس رجلًا سيئًا، نحن مناسبان في أوجه كثيرة، مناسبان كعائلة ومستوى ثقافي واجتماعي.

قاطعتها «نرجس» بإصرار:

- لكن لا يوجد بينكما كيمياء!

- هل تصدقين هذه الخرافات؟ الكيمياء شيء تصنعه العِشرة والمواقف، لا يُولد هكذا في لحظة.

«نرجس» التي لم تمر بأي تجارب عاطفية بدت ضعيفة الخبرة لتتحدث عن أمر لم تتذوقه قبلًا، لذا حاولت أن تسألها عما يهمها أكثر:

- هل أنتِ سعيدة؟

ردَّت «شفق» وهي تُشيح بكفها:

- السعادة شعور غير ثابت، قد أكون سعيدة اليوم وحزينة غدًا، هذا لا يثبت أي شيء، ليس معنى كوني سعيدة أنني أحسنتُ الاختيار، وليس معنى كوني حزينة أنني أسأته.

طال الصمت بينهما، حتى قطعته «شفق» بقولها:

- هل تعرفين عبادة الوقت؟

هزَّتْ «نرجس» رأسها نفيًا، فقالت «شفق» وهي تستعيد ذكرى بعيدة:

- عندما فُسِخَت خطبتي الأولى انهرتُ، كنتِ أنتِ على سفر مع أسرتكِ، كنتُ حقًّا وحيدة جدًّا ولا أعرف إلى من ألجأ، مُعلمتي «آمال» فتحت لي بيتها وذراعيها، يومها أخبرتني عن عبادة

الوقت، قالت إنها العبادة الأهم في اللحظة الراهنة، مثلًا في ساعة الحرب تكون عبادة الوقت هي الجهاد، الجهاد وقتها يتفوق على عبادة كصلاة السُنَّة مثلًا، وفي زمان الأوبئة تكون عبادة الوقتِ هي التضرع إلى الله بالدعاء لكشف الغُمة، الأخذ بالأسباب وحُسن الظن بالله، ثم قالت معلمتي عندها إن عبادة الوقت بالنسبة لي عند فسخ خطبتي الأولى كانت الاسترجاع؛ أي أقول «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وأدعو الله أن يُخلفني خيرًا منه.

ثم أردفت:

- أما الآن في هذه اللحظة، أرى أن عبادة الوقت بالنسبة لي هي الأمل.

أطرقتْ تقول بألم:

- أنا أحتاج إلى الأمل، أريد أن أصدق أنني قريبًا سيكون لي بيت مثل سائر الناس، الدفء الذي لم أجده بين أهلي سأجده مع «أكمل»، عندما يكون للفتاة بيت يقل تطلعها لبناء بيتها الخاص، وعندما تفتقد هذا البيت تزداد أحلامها حدة ورغباتها شراسة، وكأن البيت الجديد هو طوق نجاتها الأخير.

أقرَّتْ ببساطة:

- «أكمل» هو طوق نجاتي الأخير.

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تخلعين الأسود؟

مسته «شفق» مرة أخرى، وفركته بين أصابعها ثم قالت:

- لبسته يوم أن ماتت معلمتي «آمال»، يومها فقدتْ الحياة ألوانها، ولم يبقَ في عيني إلا الأسود.

وبأعين تترقرق فيها العبرات أردفت:

- أريد أن أخلعه، أجاهد نفسي كل صباح، لكن ما يزال شيء ما يمنعني، وكأن الأسود صار جزءًا مني.

لم تعرف «نرجس» إذا كان ما ستتفوه به الآن في صالحها أم سيضرها لكنها لم تمنع نفسها من أن تقول همسًا:

- لقد خلعتِهِ مرة بالفعل؛ بعدما سمعتِ «الصوت».

انتفض قلب «شفق»، وتعالَت نبضاته، كيف لكلمةٍ واحدة أن تُوقِظ قلبًا من سُباته؟ كيف لكلمة أن تخترق حواجز الشعور وتمنح قُبلة الحياة لشوقٍ مقتول؟

كيف لكلمةٍ أن تَنصُب في صحراء جرداء راية شوق؟

سألتْ «نرجس» بحنان تحتويها بنظراتها:

- هل ما زلتِ تُفكرين في «الصوت»؟

اضطربت قسماتها، وتلجلج منطقها، حاولت الكلام فانعقد لسانها على ما تدافع إليه مِن كلمات.

آثرتْ الهرب؛ نهضتْ وأمسكت بسور الشرفة، رفعت رأسها وتطلعت إلى السماء. كانت النجمات هناك يُذكرنها بما شهدن عليه ذات ليلة، حين سمعتْ «الصوت» لأول مرة!

هل يُمكن الوقوع في حب «صوت»؟

دُنيازاد

سألتني شهرزاد ذات مساء
من هي أفضل النساء؟
قلتُ لها: فلننظر في كلام من سبقونا
ولنا في بياض المَشيب خِبرة وعبرة
يقول فرسانُ الأخلاقِ
إن الحياء لا يكون في شيء إلا زانه
وإن الحَيِيَّة هي أروع صبية!
ويقول فرسانُ الحُسنِ
إن الغُنج مِفتاح القلبِ
وإن الدلال تاج الجمالِ!
ويقول فرسانُ الشهواتِ
إن الطريق إلى قلب الرجل مُعبَّد بأشهى المأكولاتِ
وإن صانعة الطعام فاعِلة المُحال!
ويقول فرسانُ الجموحِ
إن الشرارة شرطٌ وأمارة
مثل صاعقة تضرب بالرأسِ!
ويقول فرسانُ العِلْمِ
إن الكرَّاس حِصن وسَلاح
وإن صاحبة القلمِ ناصِبة العَلَمِ!
ويقول فرسَانُ السُنَّة

إن الوَدود الوَلود الغيور
التي لا تذوق غَمَضًا حتى يرضى رجُلها
هي دُرَّة تاج الدنيا
وواحدة من أهل الجنة!

إذا كانت المُقدمة أوَّل الكتابِ
و النُعاس أوَّل النومِ
والطَليعة أوَّل الجيشِ
والغَسَق أوَّل الليلِ
والنهل أوَّل الشُربِ
والوَخَط أوَّل الشيبِ
فما هو أوَّل الحُبِّ؟

(١)

استبدَّ بها الشجن وهي تتذكر ليلة بذاتها. في وقفتها جاوَرتها «نرجس»، وبنبرة مُحِب حاوَرتها:

- سأخبركِ شيئًا يا «شفق»، تعرفين أنني درستُ علم النفس في الجامعة قبل أن أعمل إدارية في شركتكم، أي أن مجال دراستي الأساسي هو النفس وأسرارها.

اغتصبت «شفق» ابتسامة حاولتْ أن تصبغها ببعض المرح وقالت:

- هل تعدينني حالة ستُطبقين عليها نظرياتكِ التي لم تُتَح لكِ فُرصة تطبيقها على مرضى حقيقيين؟

دون أن تستجيب «نرجس» لمحاولات صديقتها تشتيت أفكارها، قالت:

- المشاعر المقتولة عمدًا عن سبق إصرار وترصد، أو حتى تلك التي انتحرتْ من تلقاء نفسها، كلتاهما غير مؤذية، ويسهل التعامل مع أشباحهما إن عادتا للظهور.

ثم أردفتْ بإشفاقٍ:

- لكن يا صديقتي المشاعر المدفونة حية، لا هي بالميتة ولا بالتي تتنفس بطريقة شرعية هي الخطر الأكبر.

سألتها «شفق» مُعاتِبة:

- لا أفهم ما تعنينه يا «نرجس»، ما الداعي إلى هذا الكلام الآن؟ كنا نتحدث عن «أكمل» وعن رغبتي في بناء بيتي الخاص، وأنني اخترته بعقلي وبإرادتي.

- اختاري من شئتِ يا صديقتي، وكيفما شئتِ، لكِ كل الحق في ذلك.

ثم أشارت بسبَّابتها إلى قلب «شفق» وأردفت:

- لكن أولًا عليكِ فعل واحدة من اثنتين؛ إما قتل هذا الشعور المدفون حيًّا بداخلكِ، أو إخراجه من القبر والسماح له بالحياة.

أشاحت «شفق» بكفَّيها مُستنكرة:

- لا يوجد شيء بداخلي، لماذا تُصرين على ذلك؟

ثم باتت نبراتها أقل حدة وهي تقول:

- حسنًا، كان هناك شيء، لكن شيء ساذج، غاية في السذاجة، هل تُصدقين حقًّا أنني من مجرد صوت قد... قد...

- هيا، أكملي جملتكِ، قد تقعين في الحب، أليس كذلك؟

تاهت نظراتها بين طيَّات السماء، حاولت إحدى النجمات أن تلفت أنظارها علَّها تتذكر تلك الليلة وتُفرج عن الشعور المحبوس في مقبرة صدرها، لكنها ضربت بتلويح النجمة عرض الحائط وقالت بمرارة:

- في المرة الأولى اخترتُ بقلبي، وانظري إلى أين أوصلني ذلك، لا أريد تكرار الخطأ نفسه مرتين.

اوضحت «نرجس»:

- وأنا لا أطلب منكِ تغيير اختيارك أصلًا، أنتِ ناضجة كفاية لتختاري ما يناسبكِ، كل ما أقوله؛ لا تتركي بداخلكِ شعورًا مُعلَّقًا بين الحياة والموت.

التفتتْ «شفق» وأسندت ظهرها إلى سور الشرفة، ثم بسطت ذراعيها تقول مُمسِكة بتلابيب المنطق:

- انظري إلى هذه الدنيا الواسعة، كم إنسانٍ الآن ميت وحي في الوقت ذاته؟ ليس أولئك الموصولون بأجهزة إعاشة فحسب، ولا الذين أصيبوا بسكتة دماغية، ولا الذين سقطوا في غيبوبة طويلة، لكن أيضًا أولئك الذين يسيرون بيننا ولا يستطيعون العيش مثلنا.

ثم قالت بحسرة:

- انظري إلى «بشير» مثلًا، الرجل ليس بداخله مقبرة فحسب، بل عالم تدمَّر وأصبح عاليه سافله.

ثم أخذت نفسًا عميقًا وأكَّدَتْ:

- يا صديقتي، يُمكن العيش مع الأموات وكذلك مع الموتى الأحياء.

أمسكتْ «نرجس» بكلمة فرَّت من طرف لسانها وقالت:

- تعترفين إذن!

ولمَّا لم تجد مفرًّا قالت باستسلام، وهي ترمقها بنظرات مُرهَقة:

- نعم، لم أنسَ تلك الليلة، ولا أظن أنني سأنساها، لكنني أعرف كذلك أن ما عشته فيها كان مجرد سراب، لا يُمكنني الثقة في سراب.

- صحيح، لا يُمكنكِ الثقة في سراب.

ابتسمتْ «شفق» بإرهاق قائلة:

- متفقتان إذن.

بادلتها «نرجس» ابتسامتها وقالت:

- لا لم نتفق، لا يُمكن الثقة في سراب، لكن تلك الليلة لم تكن سرابًا.

فتحتْ حقيبة «شفق»، أخرجت علبة رذاذ الفم تحت أنظارها، دنتْ منها وقالت تُذكِّرها، وهي التي لا تحتاج إلى تذكير:

- في تلك الليلة مررتِ بأشرس نوبات الهلع دون أن تتناولي دواءكِ ولا مرة واحدة، الصوت لم يكن سرابًا، كان حقيقيًّا جدًّا إلى درجة أنكِ تغلبتِ على عُقدة طفولتكِ للمرة الأولى دون دواء!

شعرت أنها تسقط في ظلام لا ينتهي، كلما اسودَّتْ طبقاته قابلتها طبقات أشد ظُلمة، همستْ بمرارة:

- ليلتها سألته «أحقيقةٌ أنتَ أم سراب؟»، قال: «سأعثر عليكِ يا حافية القدمين». لم يفعل، لم يجدني؛ كان سرابًا إذن.

ثم انتشلتْ دواءها من يدها ووضعته في حقيبتها وكأنها تُنهي بذلك حديثهما، لكن «نرجس»

واجهتها بإصرار:

- فعلتِ كل شيء كي لا يجدكِ، سَددتِ كل باب كان بإمكانه أن يوصِّله إليكِ، كيف له أن يجدكِ؟!

حذَّرتها «شفق» بحزم:

- لا أريد أن أتحدث في هذا الأمر.

لكن الصديقة التي تعرف جيدًا عِلَّة صديقتها كشفتْ ما وارته نفسها:

- أنتِ تهربين. «أكمل» لا يُمثِّل لكِ طوق نجاة، بل بوَّابة للهرب.

احتدَّتْ «شفق»:

- ليس كذلك.

- هل أثبت لكِ؟

- لا يمكنكِ إثبات شيء غير موجود أصلًا.

ارتدَتْ «شفق» معطفها الأسود بحركة سريعة، بينما «نرجس» لا تتوقف عن مُكاشفتها:

- الدليل هو أنكِ وافقتِ على «أكمل» بعد أسبوع واحد فحسب من تلك الليلة، لم تختاريه لا بعقلكِ ولا بقلبكِ، بل بجُبنكِ، لا يُمكن تأسيس حياة ناجحة على اختيارات الهرب، الهرب من وصمة العنوسة بالموافقة على رجل لا ترضَى الفتاة دينه وخلقه هو اختيار الجبناء، الهرب من الأهل والبيت بالموافقة على رجل لن يكون لها أهلًا وبيتًا هو اختيار الجبناء، وكذلك الهرب من رجل بالزواج بآخر هو اختيار الجبناء، فلا تكوني جبانة يا «شفق».

- لن أسمع كلمة أخرى.

خرجت من الشرفة كالإعصار، قابلتها أم «نرجس» في طريقها إلى الباب، استوقفتها وهي تحمل صينية العشاء الكبيرة وتقول بحيرة:

- إلى أين يا بنتي؟ أعددتُ لكما العشاء.

قبَّلتْ «شفق» رأسها على عُجالة ثم قالت:

- يومٌ آخر، أعتذر يا أمي.

لحقت بها «نرجس» وهي تهتف:

- هل أقول لكِ شيئًا آخر؟ هذا الزواج لن يتم! لأن في ليلة الزفاف ستنفتح أبواب المقبرة، ستتقابلين مع الموتى الأحياء في مواجهة دامية، ستخرجين منها خاسرة، وقتها ستُقررين الهرب مِن الهرب!

هرولَت «شفق» تفعل الشيء الذي تُجيده؛ الهرب. التفتتْ أمها تلومها:

- لماذا أغضبتِها يا «نرجس»؟

أجابتها وهي ترمق الباب المُغلق بُحزنٍ:

- تغضب مني الآن أفضل من أن تمضي بقيَّة حياتها غاضبة من نفسها، إن لم نُصارح بعضنا بعضًا ما نفع صداقتنا إذن؟

عبثَت رمال الصحراء بحذائه الرياضي الذي يُفضِّله، وشوَتْ الشمس رأسه حتى مع قُبَّعة الرأس التي يرتديها، وحنَّتْ أشعتها وجهه. رنَّ هاتفه، فابتدأ المكالمة قائلًا بتأفف لا يخفَى على الطرف الآخر:

- نعم يا أبي، كل شيء يسير بشكل جيد، لا خوف من العُمال على الإطلاق.

- عظيم يا «أكمل»، أين أنتَ الآن؟

- وأين سأكون؟ في الموقع، صار رأسي مثل كوز بطاطا مشوية!

- جيد جيد.

هتف بحدة:

- ما الجيد في ذلك؟! أريد العودة إلى القاهرة، كل شيء يسير بدون مشكلات، ما الداعي لوجودي هنا؟ ثم أنا مهندس مشاريع أعمل داخل مكتب مُكيَّف، ما لي أنا والعمل في المواقع؟!

- هل ستترك خطيبتكَ وتعود بمفردك؟

- وما الذي تفعله «شفق» هنا أساسًا سوى تحكُّمات أبيها؟ لا داعي لوجود كلينا يا أبي.

صمت أبوه للحظات ثم قال بحزم:

- سيسير الأمر كما هو عليه لبعض الوقت، لن نتحمل مشكلة أخرى، يكفي ما نحن غارقون فيه الآن.

أنهى «أكمل» المكالمة والضيق بادٍ على مُحيَّاه. قال للريِّس «مستور» وهو يُنهي زجاجة المياه الثالثة:

- تابع العمل، اكتفيتُ اليوم.

أشار الريِّس «مستور» إلى عاملين وقال:

- هذان يُريدان التحدث معكَ يا باشمهندس.

استقبل «أكمل» شكواهما مُصغيًا وهما يُطالبانه بزيادة الأجر الذي وعدهما به «منصور النمر» حين قَدِم مع النائب لافتتاح المشروع أول مرة، ثم قال أحدهما:

- قبِلنا العمل لأنه وعدنا بالزيادة، لكن حتى الآن نتلقى نفس الأجر الأسبوعي ولا يكاد يكفينا يا باشمهندس، في حين أن باقي عُمَّال اليومية في المواقع الأخرى يأخذون أجرًا أعلى.

أشاح «أكمل» بكفه يقول بلا مبالاة جليَّة:

- إذن اترك العمل واذهب إلى المواقع الأخرى، هل رأيتنا نتمسك بكَ؟

من المستحيل أن يمر بخاطر العاملَين بعد هذا الرد الجافي أن «أكمل» بنفسه هو من راسل أباه بالأمس، وطلب منه التصديق على قرار زيادة أجور العُمَّال، وأن القرار في طريقه إلى التذييل بتوقيع الشريكين.

لكن الحدة التي يتعامل بها يراها لازمة كي يستطيع وضع العمال تحت سيطرته، لا يكسرون له

كلمة، ويلتزمون بكل صغيرة وكبيرة وبخاصة بعد الحادثة.

هتف بحدة كي يُسمِع باقي العُمال:

- يكفي ما تلاقيه الشركة من خسائر بسبب الحادثة، أليس في أعينكم حصوة ملح؟!

من خبراته السابقة يعرف أن الضرب بيدٍ من حديد، والضغط على العُمَّال يُجنِّبهم الشطط في الطلبات والتكاسل عن العمل، لذلك كان يرى منذ البداية أن «دهب» ما كان بإمكانها أن تكون مشرفة هذا المشروع، وأنها ستجعل من الشركة لُقمة سهلة في فم هؤلاء العُمال. الآن عاد ليضع الأمور في نصابها.

ولكي يكون هذان العاملان عبرة لباقي زملائهما، صاح في الريِّس «مستور»:

- أعطِ هذين أجرهما اليومي، وإن لم يُعجبهما يمكنهما ترك العمل في الحال.

قالها وأَوْلاهما ظهره مُغادرًا دون كلمة أخرى.

---

(٢)

وقفت «عين» تتحدث مع صويحباتها أمام أحد دكاكين القماش، بعقل مُشتت، ونفسٍ تائهة، حتى إذا ما مر «بحر» بها ولم يرَها ازدادتْ غمًّا على غم؛ ألهذه الدرجة هي شفافة غير مرئية بالنسبة له؟

شعور الرفض حارق، يشوي روحها وقلبها من الداخل، الشعور بالنَبذ قاتل، يطعن كرامتها وكبرياءها الأنثوية في مقتل. كيف سمحت لمشاعرها أن تتبدَّى هكذا أمامه وهو يُقابلها بالصد والنبذ؟

حكم عليها بالنفي فوق جبل معزول عن البحر، وطلب منها أن تعيش في هذا المنفى وحدها، طيلة حياتها.

ترقرقتْ من عينيها عبرة، ولأنها قليلة الخبرة بقيود العبرات وفنون السيطرة على لجامها، تركتها تسيل فوق وجنتها. وعلى الرغم من أنه لم يظهر من برقع وجهها سوى عينيها، إلا أنهما كانتا تشيان بكل ما يعتمل داخل نفسها من حزن وألم؛ التقطته واحدة من الفتيات ونفثت فيه ما بداخلها من أحقاد:

- «بحر» مر بكِ ولم يُلقِ عليكِ نظرة واحدة! سمعتُ أمي تقول إنه لا يريدكِ يا «عين».

انكمشت «عين»، وتهدَّل كتفاها، دفنتْ نظراتها في الأرض ألمًا وخجلًا.

قالت أخرى مُستنكرة:

- أهذا صحيح يا «عين»؟ هل سيتركك «بحر» مُعلقة بين السماء والأرض؟

لا يعرفن أن «بحرًا» غمرها في الطين بكلماته، وخطا فوقها بقدميه دون أن يلتفت. نفثت الحاقدة المزيد من سمومها:

- مسكينة «عين»، لن يقربها أي رجل من القبيلة أبدًا، لا «بحر» ولا غيره.

تساقطت عبرة أخرى، تجر أخرى فأخرى، حتى فقدت السيطرة على جحافل العبرات الخائنة، خلَتْ بها إحداهن تُعيدها إلى بيتها، فيما تزداد همسات الفتيات واستنكارهن من خلف ظهرها.

مرت بخاطرها كلمات «عِيدة» في لقائهما الأخير:

- ستفعلين شيئين في الوقت نفسه؛ أما الأول فستذبحين جَديًا كبيرًا، أكبر جدي في القبيلة.

سألتها «عين» بحيرة:

- وماذا سأفعل به؟

- خذي أقدامه يا «عين»، ثم أعطيني إياها.

فهمتْ «عين» مُراد «عِيدة» في الحال، وعلى الرغم من تخوفها، فإن وجهها تهلل أملًا، سألتها بحماس:

- والشيء الثاني؟

أجابتْ «عِيدة» بغموض أعاد لـ«عين» توترها وقلقها:

- سأخبركِ حين يحين الوقت!

ستبدل جهدها كي تنقذ نفسها من مصير اسود، لا تريد ان تمضي بقية حياتها وحيدة، بينما فتيات القبيلة يتزوجن وينجبن، يرمينها بالهمسات المسمومة والنظرات المشفقة.

ستحارب كي تحصل على ما هو حق أصيل لها؛ الزواج بـ«بحر».

انتفض «بحر» غضبًا حين وجد ثلاثة من جِماله «الهجن» مفقودين!

جِمال «الهجن» ذات أصول عربية خالصة وأصيلة، تعنى بتربيتها قبائل جنوب سيناء، يستخدمونها في سباقات «الهجن» الرياضية والتي تُقام في غرب «العريش».

في العام الماضي شارك «بحر» بجماله الأصيلة في الماراثون مع قبائل من عدة محافظات أخرى مثل مرسى مطروح والشرقية والسويس والوادي الجديد، حيث يتم تزويد الجمال بجهاز رصد عن بُعد GPS لتحديد المسافة التي قطعتها خلال السباق، ومناطق وجودها في المضمار.

يُغذيها «بحر» بشكل مختلف عن باقي جمال القبيلة، يُطعمها الشعير والذرة العويجة والعُشب الجاف والحليب والتمر والعسل، لذا ففَقْد ثلاثة من جماله «الهجن» كان كافيًا لسقوطه في دوَّامات الغضب. استبطأ «حَمَد» الكلمات وهو يقول لأخيه:

- أخذهم عمُّنا «برهوم» يا «بحر».

استجلبتْ كلمات «حَمَد» دهشة «بحر»، لماذا أخذهم؟ ماذا يُخطط هذا الرجل؟

اندفع من فوره إلى مجلِس عمه، رافقه «حَمَد» كي يمنع عنه أي مُصيبة ينوي التورُّط فيها بطباعه التي تثور وتهيج وقت الغضب، حين تنفد ما بجعبته من حلول منطقية.

وجد عمه برفقة بعض شباب القبيلة ورجالها، جلس معهم دون أن ينطق بكلمة، تتحرَّك ساقه بعصبية حركات لا إرادية. وما إن انفضَّ الجمع إلا من أبناء العم حتى سأل عمه بأدب يواري غضبًا:

- قالوا لي إنكَ أخذت ثلاثة من جمالي «الهجن» يا عمي، خيرًا إن شاء الله؟ أخبرني إن كنتَ تحتاج إلى المزيد فآتيكَ بهم!

محاولاته لكبح جماح غضبه باءَتْ بالفشل حين أفصح عمه عن سبب فِعلته. أسند ظهره إلى المجلس وقال بتحدٍّ سافر:

- أخذتهم مَهرًا لـ«عين»، أم أنكَ تنوي الزواج بها بغير مَهر يا «بحر»؟

هتف ابنه «ضاد» في الحال:

- وهل هذا معقول؟ أختي «عين» هي نور العين، والبنتُ الوحيدة على أربعة من الرجال، حتى إن ثلاثة من «الهجن» قليل كمهر لها.

على الرغم من قبضة «حَمَد» التي سحقتْ ذراع «بحر»، فقد قال بهدوء شديد:

- لكنني لم أطلبها منكَ يا عمَّاه.

اكفهرَّت الوجوه، وساد صمت رتيب، لم يقطعه سوى استواء أبيها في جلسته، ثم صيحته المُستنكِرة:

- مادا تقول؟

نزع «بحر» ذراعه من قبضة «حَمَد»، ثم قال بالهدوء ذاته وهو يطوف بعينيه في وجه أبيها وإخوتها:

- «عين» ابنة عمي، وأختي، وأفضل فتيات القبيلة، لكنها ليست زوجتي.

ثم أضاف باسمًا بنفسٍ صافية رافعًا أحد حاجبيه:

- أما الثلاثة جمال فهُم هدية مني لابنة عمي، لا شيء يغلو عليها.

اندفع عمه من مجلسه، يدنو من «بحر» ثم يصفعه فوق وجهه صفعة شقَّتْ جُرحًا نازفًا في زاوية فمه، اندفع أبناؤه يقفون حائلًا بين الرجلين.

أمسك «حَمَد» بذراع أخيه يجره للخارج بينما يصيح العم من خلفهما:

- لن تَفلِت بفعلتكَ هذه يا «بحر»، لن تفلتَ بها!

هدَّأه ابنه «سين» قائلًا بغلظة:

- ملعون «بحر»، لن يرضى الشيخ بهذا أبدًا، أنا أثق في ذلك يا أبي.

قال «برهوم» لأبنائه مُحذِّرًا وجسده يرتعد غضبًا:

- إياكم والتفوُّه بأي كلمة مما دار هنا، لا نريد لسيرة البنت أن تُصبح مضغة في الأفواه.

لكن الموج الذي ثار تلك الليلة لم يسمح للغضب الذي نبت داخل صدورهم أن يجف.

هتف «بحر» وهو يُفلت ذراعه من قبضة «حَمَد» ويمس وجهه:

- ضربني! أمام أبنائه ضربني!

هدَّأ «حمد» من روعه متوسلًا:

- أرجوك يا «بحر»، لا تقم بفعل جنوني.

وكأنه لم يسمعه أردف مُغتاظًا:

- وكأن سرقته لجمالي لا تكفي، يقول لي أخذتهم مهرًا لـ«عين»!

عاتبه «حَمَد» محاولًا رأب الصدع بين أخيه وعمه:

- لا تقُل سرقهم يا «بحر».

احتدَّ «بحر» وهو يُشير صوب مجلس عمه قائلًا:

- وماذا تُسمِّي ما حدث الآن؟

صارحه «حَمَد» بما يدور بخلده دون مواربة:

- ضع نفسكَ مكانه يا «بحر»، الرجل يحمي ابنته، مَن الذي سيُفكِّر في الزواج بـ«عين» بعدما يُشاع في القبيلة أن ابن عمها قد رفضها؟

كتم «بحر» صيحة غضب وهو يركل حجرًا، تدحرج حتى وصل لأبعد نُقطة بلغها نظره، ثم

قال:

- إذًا حياتي مقابل حياة «عين»، أليس كذلك؟ سعادتي مقابل سعادتها، راحتي مقابل راحتها، إن اخترتُ نفسي فأنا وغد أناني لئيم، وإن اخترتها أكون نِعم الابن والأخ وابن الأخ، أليس كذلك؟

لم يجد «حَمَد» ما يُجيب به أخاه، أفصح «بحر» هادرًا:

- لو لم يَفرضُوها عليَّ فرضًا، لو لم يجعلوها طوقًا في رقبتي، لو لم يُسلسِلوا بها قدمي، لو لم يضعوا حَجَر الزواج بها فوق صدري ويخنقوا به أنفاسي، ربما، ربما كنتُ سأنظر إليها بشكل مختلِف، وكنتُ سأختارها برغبتي! أما الآن لا أطيق، الزواج بـ«عين» سجن لا أطيق البقاء فيه يا «حَمَد».

قالها واندفع سائرًا صوب الجبل الكبير، ناداه «حَمَد» فلم يُجِب نداء أخيه.

أراد أن يختلي بنفسه، أن يوقف كل كلمات اللوم من حوله، والتي باتت تسومه عذابًا لا قِبَل له به.

عاد «حَمَد» إلى بيته وعقله مُشتت من حال أخيه، يتمنَّى لو كان بإمكانه زحزحة الحجر عن صدره، لكن عادات القبيلة سيف على رقاب الجميع، يموت الإنسان لكن العادات لا تموت.

كانت «عِيدة» جالسة في وسط البيت تطحن حبوب القمح، جبينها يتفصَّد عرقًا. أقبَل عليها يقول بإشفاقٍ:

- ماذا تفعلين يا «عِيدة»؟ بطنكِ أصبح بطول شبرين أمامكِ.

قالت لاهثة من التعب:

- ومن سيطحنه؟

نزع «حَمَد» جلبابه، ثم أخذ مكانها في طحن الحبوب، نهضت من الأرض وجلست فوق الأريكة بإرهاق.

تابعت «حَمَد» وهو يقوم بعملها، آهٍ لو رأته «أم ذيل» أو الشيخ أو أحد إخوته الرجال، لأصبح مُضغة في الأفواه. انتهى من الطحن، غسل يديه ثم أخرج من جيب جلبابه لفافة صغيرة، فتحها وقال وهو يُجاورها فوق الأريكة:

- أصر أحد الرجال أن يعطيني «جلاشًا» حلوًا صنعته زوجته، فلم أودُّ أكله وحدي.

قسَّم القطعة إلى ثلاث، أعطاها قسمين وقال باسمًا:

- قطعة لي، وقطعة لكِ، وقطعة لـ...

توقف قبل النطق بكلمة «ابنتنا» مخافة أن تنقلب الليلة غمّا، استدرك قائلًا:

- وقطعة للجَنين.

فهمت «عِيدة» انه اثر السلامه، فاثرتها هي الاخرى.

رأت بعينيها دلائل حُسن عِشرته، وكرم محتده، يصونها ولا يُهينها، على الرغم من كل ذلك تشعر بأنها منبوذة.

تتمنى فقط لو يختفي هذا الشعور من داخلها، لكنه وحش يلتهم روحها، يقضمها ببطء، ويلوكها في فمه ثم يبصقها. تشعر أنها مثل بصقة فوق أرض القبيلة. اغتمَّتْ قسماتها بغتة، لامس «حَمَد» تغيُّرًا أصابها، ولأنه فقد كل أمله في دوام زواجهما، لم يسأل عمَّا ألمَّ بها، النهاية قادمة لا محالة. ستنجب «عِيدة» الولد هذه المرة، أو في حملها الثاني، أو الثالث، أو حتى العاشر، وعندما يحمل ابنه بين ذراعيه ويضمه إلى صدره، ويُقبِّله قُبلة الأبوَّة الأولى؛ سيفقد «عِيدة» إلى الأبد!

يضع إبليس عرشه على وجه البحر، يجلس عليه، ثم يُرسل سَراياه كل يوم ليفتنوا الناس، ويلقوا بينهم الخُبث والشر، وأعظمهم عنده منزلة هو أكثرهم فتنة، وبخاصة من يتمكَّن بوسوسته من التفريق بين الرجل وزوجته.

في الصباح سيفرح إبليس بنجاح وسوسات سراياه في النيل من طمأنينة «عِيدة»، وقذف اليأس في قلب «حَمَد».

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، شعر بحركتها المضطربة في الفراش؛ علم أنها تبكي همًّا، فندَّت من عينيه دمعةٌ حسرة، وآهة ألم!

---

(٣)

وصل «غراب» بسيارته إلى موقع العمل، ترجَّل منها ثم مسح المكان بنظراته يترصَّد «دهب».

ما إن رآها تتحدث إلى الريِّس «مستور» وتمنحه تعليماتها حتى دنا منها إلى الدرجة التي جعلتها تراه، ثم توقف. ما هذا القلب الذي بات خلال فترة قصيرة أسيرًا في قيد الهَوى؟

كيف صارت دقَّاته غير مكتملة بغتة، تنقصها نبضة هاربة لا يعثر عليها إلا حين يطمئن برؤيتها؟

الحب مرض، لا يبغَى المُصاب به أن يبرأ. كيف تمكَّن هذا المرض من روحه، وفصَل قلبه عن جسده وجعله يسير أمامه على الأرض؟

لا يعرف! لا يجد الجواب أبدًا، يتمنَّى لو يطول به الداء أمَدًا.

تهلل وجهها فرحًا واندفعتْ صوبه في الحال. رمقهما الريِّس «مستور» بامتعاض؛ مُتعجِّبًا، كيف نجح هذا الـ«غراب» في صيد قطعة الـ«ذهب»؟

لم تخفَ نظراته عن «غراب» الذي أطال النظر إلى عيني «مستور» بحدة؛ في مُبارزة صامتة، أجبرتْ الريِّس «مستور» على أن يتقهقر بوجهه في الحال.

سألته «دهب» ببشاشة:

- هل اشتقتَ إليَّ؟

رمقها «غراب» مُعاتبًا، ثم أشار برأسه كي تصحبه في السير صوب سيارتيهما، قال مُحاولًا التحكم في غضبته:

- ماذا تفعلين هنا؟

هتفت ضاحكة بمرح:

- كيف علمتَ أنني هنا؟ هل تضع خلفي جواسيس؟

أنا أقوم بعملي، هل نسيتَ أن خطيبتكَ مُهندسة كبيرة؟

توقَّف عن سيره وقد استشاطتْ نظراته غضبًا، رمق بطرف خفي عاملًا أو اثنين يُتابعان حديثهما الدائر بشغفٍ، وإن لم تصل أصواتهما إلى الأسماع.

قال بهدوء كي لا يبدو للعيان أنه يُعنِّفها:

- ألم نتفق ألا تنزلي إلى الموقع وأن تكتفي بالعمل من مقر الشركة؟

مسحت فوق خصلاتها السوداء الثائرة بفِعل الرياح ثم قالت بالمرح نفسه:

- آه فهمتُ، أنتَ تغار عليَّ، هيا اعترف بذلك.

أجبها بالغضب نفسه:

- كم مرة سأقوك لكِ إنني إن كنتُ سأتغير من أجلكِ عليكِ أنتِ أيضًا أن تتغيري من أجلي؟ كم مرة سأقول لكِ إنني بَدوي حار الدماء؟

لا أقبل أن تعمل المرأة التي سأتزوج بها وسط مجموعة من الرجال، لا أقبل أن تتطلع فيها أعين

مَن هبَ ودبَ، لا اطيق نظرات العَمال لكِ.

أدركَت «دهب» جدِّية غضبته، أوضح لها طباعه ورسم لها الحدود التي ينتهي عندها حلمه، قالت تسترضيه:

- أخبرتني كثيرًا يا «غراب»، لكنني أحتاج إلى وقت كي أعتاد كل ذلك.

هدأتْ غضبته قليلًا ثم قال وهو يُشير إلى شعرها مُتجنِّبًا النظر إليه:

- لا العمل وسط العمال ولا الحجاب أصبر عليهما يومًا آخر، أسبوعان حتى الآن، يكفي هذا ويزيد يا «دهب».

مسَّتْ شعرها بحسرةٍ وهي تقول مُتبرِّمة:

- أرجوك لا تغضبني يا «غراب»، أحتاج إلى المزيد من الوقت كي أرتديه عن اقتناع.

أجاب بهدوء وهو يُشير بسبابته إلى الأعلى:

- هذا الأمر لا يحتاج إلى اقتناعكِ من الأساس، عندما يأتي أمر من فوق سبع سماوات يُنفَّذ في الحال دون ذرة تفكير أو تأخير.

تعرف أن قناعاته مختلفة عن قناعاتها، وحدوده عن حدودها، لكنها حاولتْ أن تؤخر ما تعلم علم اليقين أنه آتٍ لا مَحالة. قاوَم قلبًا

نابضًا بين أضلعه، ونفسًا أمَّارة بالهَوى، وقال بحزم وحزن في الوقت ذاته:

- آسف يا «دهب» أن أقول لكِ ذلك، لكن هذا شرط لاستمرارنا معًا.

اتسعت عيناها هلعًا، هتفت بجزعٍ وهي تتمسك بذراعه تَمَسُّك الغريق بقشَّة:

- أرجوكَ لا تغضب مني، «غراب»، لا تتركني.

نزع ذراعه وأبعدها عن كفها برفق، لانَت نبرات صوته وهو يؤكد لها:

- لن أفعل، لن أترككِ أبدًا.

لاحتْ منه نظرة صوب العمال الذين باتوا مُتفرِّجين على عرض مجاني، وأوَّلهم الريِّس «مستور»، فأشار صوب سيارتها وقال:

- هيا أوصلكِ إلى الشركة.

- هل سنركب سيارتي معًا؟

- بل سأتبعكِ بسيارتي.

لم تغب عن عينيه لحظة طوال الطريق، ما يزال يتذكَّر كيف وقعت أختها في مأزق كبير حين قادت سيارتها بمفردها على طريق صحراوي، مجرد تخيل أن شيئًا مماثلًا قد يحل برأس «دهب» جعل صدره ينقبض في الحال. ماذا إن خرج عليها قاطع طريق حقيقي؟ ماذا إن لم تستطع الدفاع عن نفسها، أو صون جسدها من الأذى؟ مجرَّد تخيُّل كل ذلك دفع بدماء مشحونة بجُرعة عالية من الأدرينالين لغزو عروقه؛ تعالت ضربات قلبه فزعًا من خطر قد يحيق بها.

همس لنفسه: انتهى، لن أسمح لها بالعودة إلى هذا الموقع مرة أخرى.

امتلا غيظا حين مرّ وجه ابيها بداكرته، كيف يهنا في بيته مطمئنا وقد ارسل ابنته للعمل بمفردها في الصحراء وسط رجال لا يعرف لهم دينًا ولا خُلُقًا؟

لو كان الأمر بيديه لأجلسه تحت قدميه وعلَّمه كيف تكون الرجولة قبل الأُبوَّة! أبطأتْ «دهب» من سرعة سيارتها عمدًا كي تُطيل الطريق أكثر، كلما نظرتْ في مرآة السيارة ووجدته يقتفي أثرها نبتت بسمة مُتلذذة فوق شفتيها. مالت برأسها لتنظر في المرآة الجانبية، تتأمل انعكاس وجهها وتقول بصوت مُبتهج:

- أرأيتِ يا «شفق»؟ لا يطيق فراقي لحظة!

سكتت قليلًا وكأنها تستمع إلى صوت قادِم عبر المرآة، ثم قالت وهي ما تزال تنظر إليها:

- نعم، أعلم أنه صعب الطباع، وأنني سأحتاج إلى وقت طويل كي أصل معه إلى حلول وسط في كل شيء.

صمتت ثانية ثم قالت ضاحكة:

- صحيح بالفعل، كما تقولين، لا شيء يصعب عليَّ، سأفعل ذلك بالتأكيد.

اتسعت ابتسامتها وهي ترمق سيارته في المرآة الأمامية وتقول:

- لن أسمح له بمفارقتي أبدًا.

أطلقت ضحكة صاخبة بغتة، مالت برأسها لتنظر في المرآة الجانبية مرة أخرى:

- أنتِ مضحكة يا «شفق»، بالطبع لن أنساكِ، أنتِ أيضًا لا يُمكنني خسارتكِ يا توأم قلبي.

أمضتْ «شفق» ليلة يتجاذبها الأرَق حينًا، والبكاء أحايين أُخَر، وكأن بداخلها كان يرقد صنبورٌ مغلق، انفجر صمامه فجأة. في الصباح حاولت تنظيف الفوضى المُبعثرة داخلها، أعادتْ الصنبور إلى حالته الأولَى.

«سأعثر عليكِ يا حافية القدمين».

أخذت الجملة تتردد داخل رأسها، هزَّته بعنف كي ترتج الحروف وتُكوِّن جُملًا أخرى، فتشكَّلت جملة «نرجس»:

«لا تتركي بداخلكِ شعورًا مُعلَّقًا بين الحياة والموت».

طافت برأسها أفلام قديمة عن «الزومبي»، أهكذا تكون المشاعر نصف الحية ونصف الميتة بداخلنا؟ فَزِعة ومُفزعة؟ مُمَزَّقة ومُمزِّقة؟ مَقتولة وقاتِلة؟!

قبل خروجها من الغرفة لاحت منها نظرة صوب المرآة؛ تتأكد أن الأسود ما يزال على العهد، لا يشف ما يقبع تحته من جسدٍ مُنهك، ولا روحٍ مُمزقة.

وعندما وصلت إلى الشركة دفنت نفسها في مقبرة العمل.

اصطدم «اكمل» بـ«عبقرينو» في الرواق، كان يتمشى وهو يشرب كوبًا من سائل غريب الرائحة. انسكبت بعض محتوياته فوق ملابس «أكمل» وجهاز الحاسوب الذي يحمله، اعتذر «عبقرينو» في الحال ومنحه منديلًا، فقال «أكمل» وهو مُشمئز من رائحة السائل المُراق:

- من أنتَ أصلًا؟ ماذا تفعل هنا؟

سأله «عبقرينو» بدهشة حقيقية:

- أحزنتني يا باشمهندس «أكمل»، ألا تعرفني؟ أنا «عبقرينو».

انتهى «أكمل» من تنظيف الحاسوب وألقى بالمنديل في سلة قريبة، وسأله:

- من أنتَ يعني؟ ما موقعكَ من الإعراب؟

فكَّر قليلًا بحك رأسه، ثم أجابه:

- تقول لي أمي دومًا إنني «مفعول به»، يفعل الناس بي ما شاؤوا، لذلك توصيني دائمًا أن أكون أكثر حزمًا، أما أبي فعلى العكس تمامًا من أمي؛ يراني «فاعِلًا» مرفوعًا بالشعرة الظاهرة ساعة تروح وساعة تأتي، أما إخوتي فهُم مختلفون في الرأي مع عمتي، يرونني «ضميرًا مُستترًا» ويتمنون لو أتحلى ببعض الجرأة ليتمكن الناس من رؤيتي، في حين أن عمتي تراني «اسمًا مجرورًا» بالشِبشِب لأن جدتي في صغري حين كنتُ أضع لها الملح في الشاي، والشطة في فمها عندما تفتحه أثناء النوم، كانت تضربني بشِبشِب أبو وردة، هل تعرفه يا باشمهندس «أكمل»؟

أطال «أكمل» النظر إليه، ثم أمره:

- افتح فمكَ، هيا افتح فمكَ وتنفس منه.

فعل «عبقرينو» ما أُمِرَ به، لم يجد «أكمل» أي أثر لرائحة كحولية ولا حتى سجائر تنبعث منه، أطال النظر في عينيه يرقب اتساع بؤبؤيهما وما حولهما من هالات خفيفة، غالبًا لا أثر للمخدرات أيضًا. تركه ودخل مكتب «شفق»، أشار صوب الباب المغلق ويقول يسألها:

- من هذا المُهرِّج؟

ابتسمت لا إراديًّا وهي تقول:

- التقيتَ بـ«عبقرينو» بالتأكيد، إنه عامل البوفيه، عيَّنته «دهب».

أومأ برأسه مُتفهِّمًا بسخرية، كان عليه أن يتوقع أن لـ«دهب» إصبعًا في هذا الأمر.

استقبلته «شفق» ببشاشة، نفَّضتْ عن رأسها كل شيء سواهما، وكان هو بشوشًا مثلها، فتح الحاسوب ووضع شاشته في مواجهتها وهو يقول بحماس مسرحي:

- كنتُ أعد مفاجأة من أجلكِ.

تطفَّل الحماس من عينيها؛ روى فضولها وهو يُشير إلى رسالة على البريد الإلكتروني:

- قبل عودتنا من «الصين» قدَّمتُ لكِ في منحة عبر الإنترنت يعطيها أفضل المُحاضرين في القانون على مستوى العالم، تمنحكِ شهادة مُعتمدة دوليًّا، قبلوا أعدادًا قليلة من كل بلد، وببعض علاقاتي القوية تمكَّنتُ من إضافة اسمكِ للمنحة.

كانت المفاجاة اكبر من استيعابها، حتى إن قسماتها قد تجمّدت لحظات، سالها بقلق:

- ألم تفرحي؟

- بل فرحت، فرصة عظيمة جدًّا، لكنكَ فاجأتني، لم يكن لي حلم كهذا، أي التدريب عن بُعد والحصول على شهادة معتمدة دوليًّا.

لم يكن استكمال الدراسة حلمًا من أحلامها، ولطالما أشعرتها دكتورة «ثريا» بالدونية لأنها اكتفت بنيل الشهادة الجامعية، ولم تسعَ لنيل درجات علمية رفيعة.

عادت له بشاشته وهو يقول بحماس أوقد شعلة حماسها هي الأخرى:

- بعدما تنتهين من هذه المنحة ستكونين قادرة على فتح مكتب قانوني خاص بكِ تُزيِّنه هذه الشهادة.

مشاعرها الجامحة بين فرحة ودهشة وحيرة ومفاجأة، أحداث الأمس واليوم تكالبوا عليها فجأة، ووجدت نفسها تقول بصدقٍ تحمله كل ذرة من كيانها:

- أريد لهذه العلاقة أن تنجح، أريد أن نبني بيتنا الخاص، ونؤسس حياتنا الهانئة، أحتاج إلى ذلك بشدة.

قابَل صدقها بصدق مماثل:

- وأنا أيضًا أريد لهذه العلاقة أن تنجح، لا نية لي لإفساد الأمر.

تمثَّلتْ لها السعادة كالمُقايضة، تبذل شيئًا في سبيل أن تنالها، أليست الحياة كلها مقايضة كبيرة؟ تدفع فيها كي تشتري، تعطي كي تأخذ، تتخلَّى كي تتحلَّى.

- فلنتزوج إذن، لا معنى لإطالة الخطبة!

تفاجأت للمرة الثانية، لكن هذه المرة كان وقع المفاجأة أشد من الأولى. جمَّدتْ الدهشة عقلها، وقيَّدتْ نبضات قلبها قبل أن تُطلقها داخل صدرها بتدافع شلال وقوته.

الزواج، ولمَ لا؟ أليس هو نهاية الطريق، ومُنتهى المطاف؟

لن ترضى أمها في جميع الأحوال، وتعهَّد هو بأن يكفل أمه ورضاها، وما دام أبوه وأبوها على وفاق واتفاق، لمَ المُماطلة إذن؟

تردد صدى كلمات «نرجس» عن الهرب، فنفضت رأسها بقوة كي تُبدد الجمل وتُشتت الكلمات. استرقتْ النظر إلى الخاتم الذهبي الذي يُطوِّق إصبعها، تشبَّثتْ به بقوة وهي تومئ برأسها مُصدِّقة على اقتراحه:

- فلنتزوج.

في المكتب المجاور وقف «غراب» قِبالة «دهب»، تاركًا الباب مفتوحًا، تذمَّرتْ داخليًّا من إصراره على عدم الاختلاء بها، لم ترَ في ذلك عيبًا ما دامت تثق به ويثق بها. أزعجها ذلك، لماذا يُعقِّد الأمور أحيانًا ويُحمِّلها بأكثر مما تحتمل؟

لم تكن المرة الاولى التي يراها داخل مكتبها، لكن ككل مرة انبعث بداخله شعور بدائي، فطري، بعيد عن الحضارة والمدنية؛ ودَّ لو حبسها في بيتٍ وأغلق عليها ألف باب، فلا تمسَّها أعين إلَّاهُ، ولا تقرَبها أنفاس سواه.

وجودها على رأس عملها يدفعه إلى أن يستصغر نفسه؛ في عُرفه، للرجال قوامة العمل والإنفاق، النُّصح والإرشاد، الحماية والرعاية. وعملها يسلبه شيئًا من قوامته، ومن حقه في أن يكون سكَنَها وحاميها وكافِلها وعائِلها.

عيشهُ لحياة طويلة في الصحراء، ووقوفه الطويل يرقب لوحتَي الشروق والغروب من قمة «جبل موسى»؛ دفعوه إلى أن يُفكِّك الحياة إلى صورتها البدائية الأولى، حين كان رجل الكهف يرتدي قطعة من جلود الحيوانات ويذهب للصيد، بينما امرأته تنتظره لإشعال النار كي تُعد لأسرتها وجبة عشاء، ثم يتشاركان في رعاية أطفالهما.

يُعلِّم أولاده كيف يكون الذكر رجلًا، وتُعلِّم بناتها كيف تكون الأنثى سَكنًا. تتهادى أصواتهم تحت ستار الليل، وأعين النجمات، كل صوت يصف حالة مختلفة، وكل نبرة تروي قصة مُحترِفة.

- أين ذهَبتَ

هزَّ «غراب» رأسه وكأنه يستفيق من غفوة ألمَّتْ به، أجابها:

- هنا.

حين تقاطعتْ أنظارهما رقَّ قلبه، وتضاعَف نبضه، تمنَّى واشتهَى،
يا الله! ألهذا السبب العين طريق للهاوية؟

زمجَر عقله لائمًا؛ البدوي الأصيل لا يمُدَّ بصره نحو النساء وإن كانت خطيبته نفسها.

- لماذا أبعدتَ عينيكَ عني؟

سألته، فعجز عن صوغ إجابته، كيف يقول لها إن العين تتحدث دون كلمات، تتطلَّع، وتمَس، وتُصافح، وتَعِد، وتعبَث، وتَهَب، وتَشتهي.

كيف يقول لها إن عين المُحِب تُعرِّي؟ مهما أقسَم على الفضيلة بأغلَظ الأيمان؟ لو كان فيها خيرٌ لما أمر الله من فوق سبع سماوات بلَملَمة النظَر بغَضِّ البَصَر!

حين أحسَّ في نفسه ضعفًا، فارقها في لحظتها، ولم يلتفت لنداءاتٍ تشُد قميصه من الخلفِ.

ليس بجمال «يوسف»، لكن عليه أن يكون بعِفَّتهِ.

صلَّى الفجرَ، ثم تفرَّق عن الجماعة، حمَلته الرمال إلى حيث أرادت الرياح، انتهى به المطاف إلى الجهة التي ستشرق منها الشمس. ظَلَّ «غراب» يتأمَّل موضعها مُسبِّحًا ومستغفرًا حتى كشف الشروقُ السِحر الذي طواه رداء الليل الأسود.

فوق ربوة عالية وقف يتأمل غزو خُضرة الأشجار لصُفرة الصحراء، جيشان يتبارزان في معركة الخلود. تُحارب الصحراءُ بقساوتها وجفاف رمالها، وتُدافِع الخُضرةُ بالخير والرياحين، ترد القسوة بالجُود، والغِلَظة بالطِيب.

واحيانا لا يراها حربَا، بل عناق حبيبين، ينتمي كل منهما لعالم مختلف. ايمكن للشمس والقمر ان يلتقيا فوق طاولة الفلك؟ يحتسيان الشاي معًا، أو القهوة ربما، ويًتباحثان في أمر السماء، ثم ينهض القمر ويُطوِّق خصر الشمس في رقصة جَهرية، لها عُمر الخلود؟

لا تعرف لماذا عادت إلى بيت «بشير» مرة أخرى، كل ما تعرفه أنها لم تذق غمضًا ليلة أمس، حين أتاها في حلمها وعيناه تذرفان دمًا.

كيف تُقنعه بقبول المال؟ لا تعرف. ما إن دنَت من البيت حتى رأت الباب يُفتح. ظلَّت داخل سيارتها، رأت امرأة مُسنَّة تخرج من بيته، ترتدي جلبابًا أسود، ووشاحًا أسود، تمسك بعصا خشبية تضرب بها ضربات خفيفة فوق الأرض، بينما زوجة «بشير» تُودِّعها قائلة:

- شرَّفتِ وأنَرتِ يا خالة «نوَّارة».

أغلقت زوجة «بشير» باب بيتها، ترجَّلتْ «شفق» من سيارتها مُتلكِّئة، ما تزال تجهل كيف ستُقنع «بشيرًا» بقبول المال. وحين رمت بأنظارها صوب المرأة أدركت أنها عمياء، تتلمَّس موضع أقدامها بضرب العصا الأرض خطوة بعد خطوة، وعلى بُعد عدة خطوات ثمَّة حُفرة في المنتصف.

أسرعتْ «شفق» تعدو صوبها وتُناديها مُحذِّرة:

- انتبهي؛ توجد حُفرة أمامكِ.

أمسكتْ «شفق» بذراع المرأة، فالتفتت لها وعلى ثغرها بسمة كبيرة، وجهها مُتغضِّن، عروق كفَّيها الزرقاء بارزة، نحيلة جدًّا وكأنها ريشة تُسيِّرها الرياح وسط الطريق. قالت:

- أعرف يا بنتي، أحفظ هذه الشوارع جيدًا، أنا لستُ ضريرة، أنا فقط أحب السير مغمضة العينين!

أثارتْ دهشة «شفق» التي تساءلت بحيرة:

- لماذا تسيرين مغمضة العينين؟

أجابتها المرأة ببشاشة:

- تلك حكاية طويلة، لو مشيتِ مع خالتكِ «نوَّارة» قليلًا أقصها عليكِ.

ولما كانت غير مستعدة بعد لمواجهة «بشير»، سارت جنبًا إلى جنب المرأة، أغمضت عينيها ثم أخذت تضرب بعصاها أمامها خطوة بعد خطوة، حتى إذا ما أتت لموضع الحُفرة دارت حولها.

قالت وهي ما تزال مُغمضة العينين و«شفق» ترقبها بدهشة:

- أنتِ لستِ من أهل «العريش»، أنا أيضًا لم أكن منهم، أنا من مطروح، لكنني تزوجتُ رجلًا سيناويًّا، ومن وقتها لم أغادر العريش.

ثم قالت بطيبة العجائز:

- لا تنظري إلى وجهي الآن، كنت فتاة جميلة جدًّا، شعري بطول ظهري، كنت أجمل فتيات قريتنا.

ابتسمت «شفق» وهي تبحث في وجه المرأة عن آثار جمالها الذي جففته الأيام.

- كان زوجي طبَّاخًا، لا تعرفين معنى أن يقوم الرجل بمهن النساء، كان أهله وأصدقاؤه يسخرون منه كثيرًا، لكنه عشق الطعام وتفننِ في إعداده، عمل بفندق كبير، كان الأجانب يعودون خصِّيصًا لهذا الفندق من أجل حلاوة نفَسه في الطبخ.

من استخدامها للفعل الماضي فهمت «شفق» أن الرجل فارق الحياة، فلم تشأ أن تسألها عنه كي لا تُجدد أحزانها. عرجَتْ الخالة «نوَّارة» في حديثها على الفرق الذي وجدته بين أهل العريش ومطروح، وكيف كانت تبتهج بزيارة أهلها، وأحوال البلد قبل سنوات، وما تظنه سيحدث بعد سنوات، حتى حالة الطقس تحدَّثتْ عنها، وكأنها جائعة إلى الكلام.

ما إن وصلتْ أمام أحد البيوت حتى أشارت إليه بعصاها قائلة:

- هنا بيتي.

وقتها فتحت عينيها، فلاحظتْ «شفق» للمرة الأولى غمامة بيضاء تُظلل عيني المرأة، وكأن سوادها اختلط بسحابة مرَّت ذات نهار وبقيت هناك ولم تتحرك.

بنبرة رجاء لا تُخطئها أذن «شفق»، قالت الخالة «نوَّارة»:

- هل تشربين معي الشاي؟

أبدتْ «شفق» اعتراضًا غير منطوق، فهمته المرأة في الحال، فتمتمتْ وهي تشرد ببصرها في زمنٍ فات:

- قديمًا كان الناس يتزاورون، ويقبلون دعوة الغرباء، الآن صار الناس يخافون بعضهم بعضًا ويتجنبون الدخول إلى بيوت من لا يعرفونهم، خوفًا من شر قد يلحق بهم، هل أخبركِ ما هو الشر؟ الشر هو ذلك الخوف الذي عشش في الصدور.

ثم أشارت بعصاها حولها وقالت بحسرة كبيرة:

- انظري، العالم أصبح أكثر سرعة، وأكثر ذكاءً، اختراعات هنا وهناك، لكنه في المقابل صار أكثر خوفًا.

ذكَّرتها كلماتها بنظريتها عن المُقايضة، فلاقتْ كلمات المرأة في نفسها قبولًا حسنًا، وأدهشها أن المرأة على الرغم من سماتها البسيطة كانت تتحدث بعقل وحنكة.

تخلَّتْ عن حذرها وقالت ببهجة كي تُبدد تعاسة المرأة:

- بشرط واحد؛ أنا من سأعد الشاي.

بزَغَتْ الشمس من وجه المرأة، أمسكت بكفها وسارت معها حتى باب البيت، فتحته ودعتها للدخول.

على الرغم من خوفها الذي ما يزال يُسيطر عليها لدخول بيت امرأة غريبة لا تعرفها، فإنها استجابت للدعوة، علَّها ترشدها إلى طريقة تتمكن بها من إعطاء المال لـ«بشير». بيت متواضع هو، لكنه يمتلئ بلمساتٍ حميمية، صور مُعلَّقة على الجدران، وألوان دافئة تُسيطر على الستائر والأريكة والمفروشات.

أشارتْ الخالة «نوَّارة» صوب المطبخ، وهي ترتاح فوق مقعدها الأثير وتقول:

- انا اعيش بمفردي، تصرفي كانكِ في بيتكِ.

المطبخ نظيف جدًّا، كسائر البيت، ومرتب أيضًا، عندما أخذت علبة الشاي لتضع منه بعضًا أحسَّت بملمس غريب، تفحَّصتْ العلبة جيدًا فرأت زِرًّا مُلصقًا عليها، وعلبة السكر مُلصق عليها قوقعة بحرية.

كل علبة من علبة التوابل كذلك كان مُلصقًا على أحد جوانبها شيء مختلف، ما أغرب ذلك!

صنعت الشاي ثم خرجت من المطبخ ووضعته على طاولة صغيرة هيأتها المرأة بإزاحة ما فوقها.

أمسكتْ «شفق» بصورة كبيرة مُأطَّرة، تجمع الخالة «نوَّارة» عندما كانت في سن فَتِي بزوجها، وهمست:

- صدقتِ، كنتِ فتاة جميلة جدًّا.

ثم أمسكت بإطار صورة أخرى، للمرأة وزوجها وولد يحملانه فوق ذراعيهما بأوجه ضاحكة، ومن خلفهما تبدَّى جزء من «دير سانت كاترين»، فأجابت المرأة دون أن تنتظر سؤالها:

- ابني.

ابتسمتْ «شفق» تقول ببهجة:

- هل تزوَّج؟ ألهذا السبب لا يعيش معكِ؟

- بل مات.

سُحِقتْ ابتسامة «شفق» في الحال، وقبل أن تجد كلمات تواسي بها الخالة، صدمتها ثانية:

- قبل أسبوعين.

حاولت البحث في ذاكرتها عمَّا يُقال في هذه المواقف، وقبل أن تجد شيئًا مناسبًا، صدمتها ثالثًا:

- تحت الأنقاض في حادثة العمال.

تركت «شفق» الصورة من يدها وكأنها مسَّتْ مُقدَّسًا يحتاج إلى طهارتها أولًا!

«حادثة العمال»؟ لا يوجد حوادث في المنطقة اشتهرت إعلاميًّا بـ«حادثة العمال» إلا حادثة شركتهم.

غاص قلبها في صدرها، غمًّا، وخجلًا. ماذا إن عرفت الخالة أن الفتاة التي دعتها إلى شرب الشاي في بيتها والتي تجلس قبالتها الآن هي ابنة صاحب الشركة الذي يرفض دفع التعويضات لأسر العمال ويُفكر في استخدام الغلظة معهم كي يُكمم أفواههم؟ هل ستُبقيها في بيتها للحظة؟
وكأن الخالة دون أن تدري وضعت ملحًا على الجرح، إذ أردفتْ وهي تُشير إلى عُلب دواء تعتلي طاولة صغيرة بجوار مقعدها الكبير:

- ظنوا أن قلبي لن يتحمل الخبر، وأنني سأسقط ميتة في الحال، لذلك حاول الجيران أن يبلغوني به على مراحل، لكنني أحسستُ، ألا يعرفون أن مشيمة خفية تُعلِّق قلب الأم بقلب صغيرها منذ أن تحمله في رحمها وحتى يدخل أحدهما القبر؟ مشيمة لا تنقطع مهما بعدت المسافات، ومهما توحَّشتْ الظروف والأيام.

ثم اشارت إلى قلبها واردفت والعبرات تحتشد في مقلتيها:

- عرفتُ في لحظتها، هنا تمامًا شعرتُ بأصابع خفية تضغط وتسحق، ظننتها جارتي أزمة قلبية سببها هذا القلب المريض، لكنني شعرتُ بالمشيمة تتقطع.

لاحت على شفتيها بسمة صغيرة وهي تقول:

- لو سألتِني عن السر الذي ربط الله به على قلبي سأقول لكِ صادقة لا أعرف، مثل هذا الخبر ما كان لقلبي المريض أن يتحمله، هكذا قال الطبيب، لكنت ميتة الآن في قبر يجاور قبر زوجي وولدي، لكن لسبب ما لم يحدث ذلك، وكأن..

صمتت للحظات وهي مترددة في البوح بما يعتمل في صدرها، ثم حسمت قرارها وقالت:

- وكأن الله أراد أن يمد في عمري من أجل مهمة عليَّ القيام بها!

ثم اقتطف ثغرها بسمة صغيرة وقالت:

- وهكذا أمضي الساعات في البحث عن هذه المهمة الأخيرة.

انسكبت العبرات فوق وجنتي «شفق» دون أن تحاول منعها، لم تشعر أن البكاء في حضرة المرأة يستوجب الخجل، بل عكس ذلك هو ما يستوجب الاستنكار.

لو كان الأمر بيدها لأمرَت بقتل المتسبب في الحادثة رميًا بالحجارة في موقع الحادثة. سألتها بصوت متحشرج عن السر الذي يجعلها تغمض عينيها أثناء السير في الطريق، فأجابتها بالرضا نفسه:

- كما ترين حالة عيني، لدي مرض ينهشهما، وقد أُصاب بالعمى في أي لحظة، لهذا أستعد من الآن.

ألهذا السبب ميَّزت علب التوابل عن بعضها؟ اغتمَّت «شفق» وتهدَّل كتفاها همًّا، وعلى الرغم من ذلك قالت بحماس كبير وهي على استعداد لأن تبذل كل شيء في سبيل شفاء المرأة:

- حتمًا هناك علاج، لا بد أن طريقة ما قد تمنع ذلك.

- ربما قبل ستة أشهر، لكن الآن.. الوقت تأخر كثيرًا يا بنتي، وحش الوقت ملعون، يأكلنا دون رحمة أو شفقة.

لم تتحمل هذه الحقيقة، لم تقبل بهذا القدَر المحتوم الذي تتحدث عنه المرأة، لم تتحمل أن تقف مُتفرجة بحيلة مُقيَّدة دون أن تملك مساعدتها أو التخفيف عنها؟

هل تُساعدها بالمال كما أرادتْ أن تفعل مع «بشير»؟ هل ستقبل الخالة؟ وهل سينفع المال؟ ماذا سيُعيد المال للخالة؟

ولدها؟ عينيها؟ لا شيء، لن ينفع المال بشيء هذه المرة.

في كل المرات التي تُقابل فيها شحَّاذًا في الطرقات كان يكفي أن تمد يدها في حقيبتها وتُخرج مبلغًا كبيرًا، تدسه في يده سِرًّا، فلا تدري يسارها كم أنفقَت يمينها. لكن للمرة الأولى يُعجزها المال ويفشل في حل المشكلة، وماذا تملك أن تُقدِّم للمرأة غير المال؟

لا شيء، وهذا اللاشيء وخز قلبها بأشواك القهر والحسرة. مالت الخالة «نوَّارة»، ووضعت

كفها الرطبة فوق كف «شفق» وقالت بطيبة:

- آسفة أنني أحزنتكِ.

أيهما يجب عليه أن يتأسف للآخر؟ وكأن يد المرأة نار تحرق جسدها؛ انتفضت «شفق» تقول بعجالة وهي تحمل حقيبتها وتهم بالانصراف:

- أعتذر منكِ يا خالة؛ يجب أن أرحل الآن.

لم يفتها ملاحظة حزن المرأة لانصرافها المفاجئ، لكنها لن تتحمل البقاء في حضرتها لحظة أخرى وهي تتستر على هويتها الحقيقية. ابتعدت عن بيت المرأة بخطوات بطيئة أثقلها الهم.

عادت من الطريق ذاته، حجبت غمامة الكآبة عن عينيها رؤية أمارات الطريق، لكنها انتبهت عندما اقتربت من بيت «بشير» حيث أوقفت سيارتها. رأت «غرابًا» يترجَّل من سيارته ومعه أطفال «بشير» يحمل كل منهما لعبة في يده، يتبادلون المزاج والضحكات.

اندلعتْ نيران غضبها في الحال، حثَّت الخُطى لتقترب منهم؛ بَهُتتْ ضحكاتهم، وتوقفتْ مزحاتهم في منتصفها. انسحب الأولاد إلى داخل البيت، وقف «غراب» بزاوية يوليها كتفه كعادته، انفجرتْ بغتة:

- لو عندك ذرة ضمير ستعترف!

أغمض عينيه لوهلة وكأنه يستمد من داخله صبرًا كافيًا لتحملها، فيما هي ما تزال تهتف به:

- «بشير» وغيره من العمال الذين يحتاجون إلى المساعدة، العمال المتوفون وأهلهم الذين هم بحاجة إلى عائل يتكفَّل بهم، نحن على استعداد لمساعدتهم لكن القضية تمنعنا، إن صرفنا لهم تعويضات فسيكون ذلك كاعتراف بالخطأ والمسؤولية عما حدث، لن يرحمنا الإعلام، سيشوهون نيتنا الطيبة ويرموننا بجُرم ليس لنا ذنب فيه، لكن لو اعترفتَ بجريمتك ستنتهي القضية وستُقدم بذلك معروفا لكل الناس الذين أذيتهم؛ سيرتاح الجميع.

سكت سكتة قصيرة بعد انتهاء كلامها ثم قال:

- يعني تريدين مني أن أعترف بجريمة لم أرتكبها، وأمضي حياتي القادمة في السجن بحُكم مُؤبَّد، هذا في حالة إن رأف القاضي بحالي ولم يحكم عليَّ بالإعدام، وكل ذلك لأجل أن تُريحي ضميركِ، ولأجل أن يُنظِّف والدكِ سمعة شركته، أليس كذلك؟

- بل لأجل أن تُريح ضميرك أنتَ، أنتَ المذنب في هذه القصة لا أنا ولا والدي، ضميرنا مرتاح جدًّا.

سكت سكتة طويلة هذه المرة ثم قال بازدراء:

- أنتِ لا تبحثين عن الحقيقة، بل عن شماعة تُعلقين عليها أخطاء الآخرين، وأنا لن أكون شماعة أحد.

اندلعت ثورتها أكثر:

- عن أي حقيقة تتحدث؟! الحقيقة هي أن أطفال «بشير» لا يحتاجون إلى ألعاب تُسلِّيهم، بل

يحتاجون إلى اب متزن نفسيّا يرعاهم.

وقبل أن تُكمل كلامها اندفعت صوب سيارتها، سحبت ملفًّا كبيرًا من المقعد الخلفي، لوَّحتْ به أمام وجهه وتقول بانفعال صارخ:

- الحقيقة هي أن هذه الأوراق تحمل دليل إدانتكَ، المستندات التي وقَّعتْ عليها باستلام مواد البناء المطابقة للمواصفات، ثم سماحك لخروجها من المخزن إلى الموقع، الحقيقة في شريط كاميرا المراقبة الذي يثبت أن أحدًا لم يدخل أو يخرج من المخزن إلا في وجودك، وأن أحدًا لم يُخرِج هذه المستلزمات من المخزن سواكَ، هذا الشريط هو دليل إدانتك.

رماها بكلمات تفلتت في لحظة اندفاع:

- ما تقولين عنه دليل إدانتي هو دليل براءتي!

عقدت جبينها بدهشة، عن أي شيء يتحدث؟ شعر أنه تسرَّع بكشف الدليل الزائف الذي تحمله، والذي أخبره محاميه أنه سيُحوِّله لصالحه في الجلسة القادمة.

وكي يُبعد فِكرها عن الشريط وسيرته، صرف ذهنها إلى مشكلة أخرى لا تدري أنها ألمَّت برأسها:

- برأيي عليكِ الاهتمام أولًا بالمصيبة التي تسبب بها خطيبكِ، ويكفي هذا، لا تتحدثي معي في هذا الأمر مرة أخرى، بل لا تتحدثي معي في أي أمر على الإطلاق.

- «أكمل»؟! أي مصيبة؟ ماذا تقول؟

في تلك اللحظة رنَّ هاتفها، توترت حين سمعت صوت الريس «مستور» المضطرب يقول:

- مصيبة وحلَّتْ على رأسنا يا أستاذة.

استخدامه للفظ «مصيبة» الذي استخدمه «غراب» حفَّز عقلها، تساءلت بقلبٍ يرتجف نبضهُ، ومجال تنفس يضيق ويضيق، بينما ترمق «غرابًا» بتوجس:

- ماذا حدث يا ريس «مستور»؟

صدمها الرجل بقوله:

- العمال أعلنوا الإضراب عن العمل يا أستاذة، والملعون «غراب» أقنعهم برفع قضية تعويضات كبيرة على الشركة، وكَّلوا المحامي نفسه الذي يترافع في قضيته.

لم يسبق لها أن شعرت بهذا الازدراء من شخص كما تشعر الآن تجاه الرجل الواقف قبالتها.

إنه كاسمه؛ غراب، نذير شؤم حلَّ على حياتها.

يقولون إن الحب مثل الحرب
كل شيء فيه مُباح
يحتاج إلى عُدة وخطة وسلاح!
إن الحب معركة
والفوز بالقلب مَنقَبَة
وإن ساحة الحرب هي المسافة الفاصلة بين رجل وامرأة!
كلما ازدادتْ قُربًا
تأجج سعيرهما
وتعالَى أنينهما
وفي نهاية كل معركة
يتناثر ماء القلب المهزوم
بين يدي الفارس المنصور
الذي يبلُغ غايته
وينجح في نصب رايته!
هذا في رأيي ليس حُبًّا، بل هَلاكًا!
ساديَّة وشهوة امتلاك!

الحب ليس حربًا فيها فائز ومهزوم
الحب فوزان.. أو هزيمتان!
سعادتان.. أو تعاستان!
الحب هو الرحم الوحيد الذي يلد قلبين
في الشعورِ مُتطابقين!

دون فِتنة.. او قيد.. او إغراء
وما دُون ذلك هو الـهُراء!

إذا كانت مرآة الحب عمياء..
فلماذا لا نكسرها،
ونسمح لضمائرنا أن تسمع وتشعر وترَى؟

(١)

رمقتْ «غراب» بكل ما يعتمل بداخلها من شعور مقيت. قالت:

- كم أنكَ رجل مؤذٍ! بل في الواقع كلمة مؤذٍ لا تكفي للتوصيف، أنت رجل خسيس.

تعلم أنها تمادَتْ، ولم يسبق لها التمادي في الحديث مع رجل حتى في أشد حالاتها انفعالًا. قبل أن تستكمل هجومها، قال بغلظة:

- إذا كنتُ أتحمل الطريقة التي تتحدثين بها إليَّ، فهذا لأجل خاطر «دهب» فحسب، لكنني لن أسمح لكِ بالتجاوز أكثر.

وكأنها لم تسمعه، أردفت:

- كيف تُهيِّج العمال وتقنعهم برفعِ قضية تعويضات على الشركة في هذا الوقت الحرج؟ ما شأنكَ وعمال شركتنا؟ اذهب في طريقك واتركنا في حالنا.

- أعلم أنكِ لن تُصدقيني، ولا يهمني أن تُصدقيني، لكنني لم أدفع أحدًا إلى شيء، العمال ثاروا بسبب المعاملة المُهينة ورفض خطيبكِ منحهم زيادة الأجور التي وعدهم بها أبوكِ، ليس هذا فحسب، بل أهان عاملين أمام زملائهما، ربما هذا الأمر يمر مرور الكرام عندكم، لكن نحن هنا دماؤنا حارة، لا نقبل المُعاملة بكِبر وغرور، ولا نعرف الذل والخنوع، وبخاصة إن كان من أجل مال أو عمل.

فلمَّا رآها صامتة يأكلها الغيظ، استطرد وكأنه يستمتع بتعنيفها:

- لم يعرف خطيبكِ ولا هذا المدعو الريس «مستور» كيف يُعامِل الرجال الذين يعملون تحت إمرته، وهذا ليس ذنبي أبدًا، قلتُ لكِ منذ قليل، أنا لن أكون شماعة لأخطاء غيري.

كانت تعرف أن «أكمل» ليس عنده طاقة للتعامل مع عدد كبير من العمال بصبر، ولا يملك فضيلة احتواء مشكلات العمل، وهذا أغاظها أكثر؛ هتفت به:

- وأنتَ بالطبع ذلك الذكي الخبير الذي استطاع أن يتعامل مع هؤلاء العمال ويضمهم تحت جناحه عندما كنتَ ريِّسًا عليهم، لكن انظر كيف انتهى عملك معهم؛ مات خمسة منهم.

- هذا أيضًا ليس خطئي، إذا أردتِ إصلاح كل شيء حقًّا ابحثي عن المذنب الحقيقي، لكنكِ لا تريدين الحقيقة، أنتِ كأي محام؛ تريدين كسب القضية فحسب! لكن أقول لكِ من الآن، حتى لو كسبتِ القضية ستخسرين، أدعُو على من ظلمني كل ليلة، وتعرفين أو لا تعرفين أن دعوة المظلوم مُستجابة، ليس بينها وبين الله حجاب.

ثم صار صوته أكثر حزمًا وهو يُحذِّرها:

- لا تدخلي في دائرة من ظلمني، كي لا تمسَّكِ دعوتي بسوء.

ألجمتها كلماته، لا لقسوتها، فقد كان يتحدث بأسلوب هادئ وكأنه يحاور صديقًا في موضوع عادي، بل لثقته في الحديث، والزاوية التي ينظر بها إلى الأمر. دعوة المظلوم، هل هذا هو سلاحه الوحيد؟! هذا السلاح يحتاج إلى ثقة كبيرة وإيمان قوي، هذا السلاح لا يُلوِّح به سارق حقير تسبب في قتل خمسة أرواح بدماء باردة!

قاتِل هؤلاء الأنفس من أجل مال أو سُلطة أو شهوة عليه أن يكون غليظ القلب، دنيء النفس،

مهدور الإنسانيه، لا يؤمن بقوة دعاء المظلوم ولا يخشى الله فيهم.

لم يسمح للحوار بينهما أن يطول أكثر، انصرف من أمامها دون استئذان، تضاعفتْ حيرتها وهي تتوجه صوب سيارتها وتنطلق بها إلى الموقع.

في الموقع كان التوتر مُهيمنًا على الجميع، «أكمل» و«مستور» والمهندس «منعم» الذي قَدِمَ من الشركة ما إن سمع بالخبر، حتى الرمال نفسها أخذت تتقافز وكأنها لا تحتمل حرارة الأرض.

عندما وصلتْ، تنامى إلى مسامعها صياح المهندس «منعم»، الجميع في حالة ارتباك، لو لم يعد العمال ويصرفوا النظر عن القضية سيزداد موقفهم القانوني والإعلامي سوءًا.

اقترح «أكمل» أن يأتوا بُعمَّال غيرهم، فما زاد ذلك المهندس «منعم» إلا ضيقًا، لن يقبل غيرهم العمل في المشروع، الناس هنا على علاقة وثيقة ببعضهم بعضًا، ومن بعد الحادثة التي مات فيها أبناء بلدهم باتوا يضمرون الكُره لتلك الشركة التي لا تُبالي بأرواح العاملين فيها.

ليس هناك سوى حل وحيد، أن يعود العمال لممارسة عملهم، ويتنازلوا عن فكرة قضية التعويضات.

وهنا برز السؤال الأهم ليظلل رؤوسهم بسحابة سوداء، كيف سيفعلون ذلك؟ أتى الاقتراح غير المنطقي من المهندس «منعم» ليصدمهم:

- الوحيد الذي نجح في كسب ثقة هؤلاء العمال هو الريِّس السابق

هتف «أكمل» مستنكرًا:

- تقصد هذا المدعو «غراب»؟

- نعم «غراب»؛ يؤمنون ببراءته، ولن يسمعوا لغيره.

عقدت «شفق» جبينها، مسحت عنه حبَّات عرق نابتة إثر الشمس التي ما تزال حامية وسط السماء:

- وكيف سنقنعه بمساعدتنا؟ نحن خصومه في القضية يا باشمهندس «منعم»!

قال بنفاد صبر، لا يُدرك هؤلاء الشباب سريعًا المغزى وراء كلماته:

- الأمر بسيط يا أستاذة، سنخبره أننا سنتنازل عن القضية في مقابل أن يساعدنا في السيطرة على ثورة العمال، سنتنازل عنها حتى ينهوا العمل على المشروع، وعندئذ سنرفع القضية مرة أخرى، قارَب العمل في الموقع على الانتهاء على أي حال وسيتسلَّم الناس شُققهم، تقبض الشركة باقي المال، وينتهي علمنا في العريش.

هتف «أكمل» مستنكرًا مرة أخرى:

- ولكن العمال عندئذ سيتجمعون ويرفعون قضية التعويضات.

قال «منعم» بنفاد صبر من يُحاور طفلًا، وبلا مبالاته المعتادة وكأن كل ما يحدث لا يعنيه في شيء:

- عندها سنكون على الاقل قد انتهينا من تسليم الشقق لاصحابها وغادرنا العريش، وستكون مجرد قضية في المحكمة من بين آلاف القضايا الأخرى، لن نتسلم الإنذارات ولا طلبات حضور الجلسات، وستتأجل القضية شهرًا بعد شهر حتى نحصل على حُكم نهائي في قضيتنا ضد «غراب» ويدخل السجن.. وعندها ستخلي الشركة كامل مسؤوليتها عن الحادثة وستسقط قضية العمال من تلقاء نفسها. إذن فالمشكلة الكبرى التي تواجهنا حاليًّا أننا مُلزمون بمواعيد نهائية لتسليم الشُقق وهذا الميعاد اقترب كثيرًا، وإن لم نوفِ ببنود العقد ونُسلِّم الشُقق في موعدها ستزداد علينا غرامات التأخير، وبالمناسبة، هذا الاقتراح لا أقوله من عندي؛ تحدثتُ إلى الأستاذ «منصور» والأستاذ «سميع» في مكالمة جماعية وأنا قادِم في الطريق إلى هنا، وتلك هي أوامرهما.

غصَّتْ «شفق» باقتراح أبيها المقيت، هكذا وصفته في نفسها وهي تنتفض لتقول:

- أنا لن أفعل شيئًا كهذا.

استمر المهندس «منعم» في أسلوب محاورته الرصين وهو يقول:

- يا أستاذة، هذا ليس مطروحًا للنقاش أصلًا، هذا أمر طلب مني والدكِ أن أبلغكِ إياه، ستتنازلين عن القضية، ثم سنرفعها بعد انتهاء المشروع، وستتفاوضين أنتِ مع «غراب» بحكم كونكِ محامية الشركة.

بإصرار وحزم ونبرة مُحتدَّة كي يعي جدية ما تقول:

- وأنا أقول لن أفعل شيئًا كهذا.

«أكمل» الذي راقت له الفكرة بعدما قلَّبها في رأسه لبعض الوقت، سألها:

- لماذا يا «شفق»؟ أراه اقتراحًا جيدًا.

نزلتْ كلماته على نفسها لتترك أثرًا بغيضًا أكثر من اقتراح «منعم» نفسه؛ لامته:

- كيف تقول ذلك يا «أكمل»؟ هل أكذب على الرجل وأخدعه؟!

- هو رجل دنيء أساسًا، لولاه لما وقعنا في هذا المأزق، اللعب مع الدنيء بدناءة حق مشروع.

لم تفهم من أي قاموس حياتي أتى بهذه الكلمات، لكنها اشمأزَّتْ منها في الحال، وبخاصة أنها جاءتْ بعد تحذير «غراب»:

«لا تدخلي في دائرة من ظلمني، كي لا تمسَّكِ دعوتي بسوء».

هل يحق للمظلوم أن يتحول إلى ظالم من أجل استرداد حقه المسلوب؟ إذا كان «غراب» قد نافق وغشَّ وتسبب في قتل العمال، فهل تفعل هي الشيء نفسه من أجل إعادة الأمور إلى نصابها؟

إن أتتْ بالفعل الدنيء نفسه، ما الفرق بينهما إذن؟ إلى أي حد تكون عبارة «الغاية تُبرر الوسيلة» صائبة ومشروعة؟ وما الذي يحكم بمشروعيتها؟

دارت كل هذه الأسئلة في رأسها، وعلى الرغم من أنها لم تجد إجابات قاطعة، فإن تمسُّكها بالرفض ازداد حزمًا، فألقى المهندس «منعم» آخر ما عنده:

- والدكِ توقع ذلك، لذلك يقول لكِ إن لم تستطيعي حل هذه المشكلة خلال أربع وعشرين ساعة سيُبعدكِ عن القضية ويلغي التوكيل الذي بينكما، ثم يُوكِّل محاميًا آخر يتصرَّف كما يأمره.

ساعود إلى الشركة الان.

بهذه البساطة سيُنحيها والدها عن القضية إن عارضتْ أوامره، لا فائدة من الحديث معه إذن، إذا أصدر «منصور النمر» قرارًا فلا سبيل لمراجعته فيه.

اغتمَّتْ، لاحظ «أكمل» ما ألمَّ بها، حاول التخفيف عنها وهو يرفع ذراعيه ليحجب أشعة الشمس العابثة بوجهه:

- ربما من الأفضل فعلًا أن تبتعدي عن القضية.

أكلها الغيظ وهي تقول:

- لماذا؟ حتى يُريح الجميع رأسه مني، أليس كذلك؟

قال بلطفٍ مُخففًا من غضبتها:

- بل لتُريحي رأسكِ أنتِ، اتركي والدكِ يفعل ما يشاء.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة في نفسها. استطرد «أكمل» وهو يُوجهها للسير صوب سيارتيهما:

- العالم ليس ورديًّا كما تظنين يا «شفق»، دنيا الأعمال مختلفة، كلما ازداد نجاح المرء فيها تطلَّب أن يكون أكثر شراسة وإلا ابتلعته بغير رحمة.

توقَّفتْ لتسأله سؤالًا مهمًّا، سيُحدد الكثير في نفسها:

- وهل تؤمن يا «أكمل» أنه يجب على المرء أن يتنازل عن مبادئه واحدًا تلو الآخر كي يظل ناجحًا في دنيا الأعمال؟

أدركَ أنه سؤال مُفخخ، عنه هو، لا عن دنيا الأعمال. سارع بالجواب:

- لا بالطبع لا أؤمن بذلك، لكن أحيانًا تضطرين إلى السير مع التيار خوفًا من موجة تقلبكِ رأسًا على عقب، ليس من الحكمة دائمًا مُناطحة رأسكِ في الصخر.

لم يرُقها الجواب، كذلك لم يُزعجها، جواب واقعي، لكنه مطَّاط، يحتاج إلى أمثلة واقعية للوقوف على ثغراته.

ولم تكن في مزاج رائق لذلك.

احتاجتْ إلى حمام دافئ طويل، فترة للاسترخاء بعيدًا عن كل بواعث التوتر والاضطراب، تُفكِّر فقط في أشياء جميلة، مُبهجة، مثل المُعلمة «آمال» ورحلاتها المدرسية برفقتها، مثل حديثهما بعد انتهاء اليوم الدراسي، وزيارتها في بيتها كلما سنحت لها الفرصة، لكن عقلها خانها، وسحبها صوب ذكرى بائسة.

حين كانت في المستشفى يوم أن ازدادت عليها آلام صدرها، في تلك الليلة كانت في حالتها الأضعف، لم تستطع الممرضة أن تُهدِّئ من بُكائها الذي يُزيد وضعها الصحي سوءًا. كانت بحاجة إلى أمها، تهمس في أذنها أن كل شيء سيكون بخير، أنها لن تموت.

ما أصعب أن تطرق فكرة الموت عقل طفلة في الثانية عشرة! لكن أمها لم تستطع المجيء إلى

المستشفى، علي الرغم من رجاء الممرضة، ونصيحة الطبيب؛ كان لديها مؤتمر في «شرم الشيخ» لا تستطيع التخلف عنه.

كانت الليلة الأكثر رعبًا، اضطر الطبيب إلى حقنها بمهدئ، كي تتوقف عن البكاء. انسابتْ عبراتها تسوقها المياه إلى مجراها تحت الأرض، مثل سِر مدفون في باطنها.

سمعتْ طرقات على باب غرفتها، فارتدتْ المئزر ثم خرجت من الحمام. ما إن سمعت صوت «دهب» حتى فتحت لها بشعر مُبتل لم يسعها الوقت لتجفيفه، فبادرتها:

- عيناكِ حمراوان يا «شفق»! هل كنتِ تبكين؟

بررتْ «شفق» بصوت مختنق:

- المياه ساخنة

ثم قالت بدهشة حقيقية وهي ترمق أختها بنظرات غير مُصدقة:

- متى ارتديتِ الحجاب؟!

ضحكت «دهب» ضحكتها الصاخبة وقالت:

- ما رأيكِ؟ الآن صرنا متشابهتين تمامًا، إن خلعتِ الأسود لن يتمكن أحد من التفريق بيننا.

ثم أضافتْ بمرح:

- إلا «غراب» بالطبع، يستطيع أن يعرفني وسط ألف امرأة تُشبهني، لكن «أكمل» ضعيف الملاحظة، حتمًا سيُخطئ بيننا.

ثم صفَّقت بكفَّيها لتقول بجزل طفولي:

- ما رأيك أن نُجرب ذلك؟ ترتدين أنتِ الألوان أو أرتدي أنا الأسود ولنر إن استطاع الناس التفريق بيننا.

- خداع الناس ليس لعبة يا «دهب».

- أوووه، أنتِ كئيبة جدًّا يا «شفق»، كنا سنتسلى كثيرًا.

أجلستها «شفق» بجوارها فوق الأريكة الصغيرة ثم سألتها باهتمام كبير:

- الآن اتركي لعب الأطفال هذا وأخبريني؛ كيف ولماذا ارتديتِ الحجاب؟ كنتِ تقولين إن من المستحيل أن تضعي هذا الـ«شيء» فوق رأسكِ مثل بائعات الفِجل والكُرَّات، ما الذي غيَّر رأيكِ فجأة؟

ببساطة شديدة، وكأنها تتحدث عن حالة الطقس، أجابتها:

- «غراب» أقنعني به.

استبدَّتْ بها الدهشة، «غراب»! هذا الرجل الذي ترتدي خاتمه في إصبعها منذ أسبوعين فحسب نجح فيما فشلت فيه هي على مدار سنوات!

كيف تمكن من إقناعها بهذه السرعة؟ كيف أقنعها أصلًا وهي التي تعرف تمرُّد «دهب» على القيود؟ هل حقًّا له هذا التأثير القوي في نفسها؟

ما زالت تذكر نظرة «دهب» إليه في حفل عيد الميلاد، كانت كنظرة اسير!

كانت تظن وقتها أنه يأسرها بشيء يملكه ضدها، لكن الآن وهي ترى تأثيره الطيب فيها، هل من الممكن أن تكون القوة التي أسرها بها هي.. الحب؟!

ما إن وصلت إلى هذا الاستنتاج حتى انقلبت أفكارها رأسًا على عقب، شعرت بالشتات أكثر، وبعدم الفهم.

وكأن «دهب» أرادت أن تزيد الطين بلة، قالت بتحدّ صارخ:

- سأتزوج هذا الرجل حتى وإن وقف العالم كله ضدِّي.

لم تتمكن «شفق» من إجابتها بشيء، كان رأسها يعج بزوبعة من الأفكار المتضاربة. استرعى انتباه «دهب» هدية ملفوفة وموضوعة فوق الطاولة، نهضت، أمسكت بها، تفحَّصتها ثم قالت:

- ما هذا؟ قدح؟!

- نعم، اشتريته لـ«نرجس» لأصالحها؛ كنت سخيفة معها بالأمس، وكسرَتْ هي القدح الذي تُحب شُرب الشاي فيه فأتيتها بآخر.

اندفعتْ «دهب» تقول وما تزال تحمل القدح الملفوف في يدها:

- هذه الفتاة خبيثة جدًّا يا «شفق»، لا أصدق أنكِ لا تنتبهين لنظرات الغيرة التي ترمقكِ بها!

- غيرة؟! «نرجس»! مستحيل.

نظرت «دهب» في عيني أختها بحسرة كبيرة وهي تقول:

- أنتِ طيبة جدًّا لذلك لا تستطيعين رؤية الناس على حقيقتهم، هذه الفتاة تغار منكِ وتحقد عليكِ بشدة.

تساءلت «شفق» مستنكرة:

- لا بالطبع، ولماذا ستغار مني؟

- لأنكِ تملكين كل ما لا تملكه هي؛ أنتِ أجمل منها، وتعليمكِ أفضل منها، وأغنى منها، وعائلتكِ أرقى منها، أنتِ مخطوبة وهي عزباء، أنتِ تعملين من أجل إضاعة الوقت في حين أنها تعمل لتُسدد أقساط جهازها الذي تشتريه لها أمها منذ سنوات.

نزلت كلماتها عليها كالصاعقة، لم تحتمل ما سمعته فاحتدَّتْ ووقفتْ قبالتها تقول:

- «نرجس» هي أفضل صديقة حظيتُ بها، بل هي صديقتي الوحيدة، وهي ليست بحاجة لأن تغار مني لأن لديها ما لن أملكه أبدًا، لديها بيت دافئ، وأسرة مُحبة، يجتمعون حول طاولة طعام واحدة، ويمضون مع بعض إجازات الأعياد وإجازة نهاية الأسبوع، في حين أنني لا أذكر متى كانت آخر مرة تجمعنا فيها نحن الأربعة كأسرة واحدة!

ثم قالت بانفعال وهي تضحك ساخرة:

- آه تذكَّرت، كان ذلك في عزاء جدنا حين تشاجر أبي مع أخواته على الميراث، ثم عدنا إلى البيت ليتشاجر مع أمي التي ترغب في إقامة حفل لعيد ميلادها في اليوم التالي!

أنهَت كلامها وانهارت فوق الأريكة، يتصاعد صدرها ويهبط بسرعة كبيرة، ضغطت عليها

بشدة، تحشرج نفسها فسارعت «دهب» بإخراج دوائها من حقيبتها، ادنته من فمها وهي تقول بلهفة وعبراتها تتسابق فوق وجهها:

- أنا آسفة يا «شفق»، لم أقصد إزعاجكِ، خذي دواءكِ وستكونين بخير.

احتاج اضطرابها إلى عدة دقائق كي تهدأ وتُبعد الأفكار المزعجة عن رأسها، لم يكد تنفسها يهدأ قليلًا حتى ألقتْ «دهب» بنفسها بين ذراعيها، وتوسَّدتْ صدرها برأسها وهي تقول بندمٍ:

- أنا آسفة جدًّا، قلتُ ذلك لأنني أحبكِ وأخاف عليكِ.

ثم رفعتْ رأسها، ومسَّدتْ شعر أختها بحنان تردف:

- أنا أكثر شخص يعرف كم عانيتِ كي تخرجي من أزمة خطبتكِ الأولى، لا أريد لأحد أن يكسركِ مرة أخرى.

تفهَّمتْ «شفق» خوف أختها، تحاملتْ لتقول بصوت متهدج:

- «نرجس» لن تكسرني.

- أتمنى ذلك.

قالتها «دهب» ثم عادت لتضع رأسها فوق صدر أختها. ظلَّتا هكذا لبعض الوقت، متلاصقتين مثلما كانتا في رحم واحد لتسعة أشهر، وحدهما في الظلام لا تسمع إحداهما سوى دقَّات قلب أختها. استأذنتها «شفق» لترتدي ملابسها في حمام الغرفة.

دَنَتْ «دهب» من القدح الملفوف، تُديره في يدها، تنظر إليه وكأنها ترى كُتلة من العفن مثيرة للاشمئزاز، تهمس لنفسها:

- لن أسمح لكِ أن تؤذيها، سأحميها منكِ، ومن كل الناس.

ثم وبعزم قوتها ألقته أرضًا!

خرجت «شفق» مسرعة على إثر الصوت تسأل عما حدث، نظرت إليها «دهب» بأسفٍ وهي تشير إلى الأرض وتقول بدهشة بدتْ حقيقية للغاية:

- سقط مني.

ركعت على ركبتيها تُلملم الشظايا المتناثرة فجرحت نفسها وصاحت تقول بألمٍ:

- كم أنا غبية!

أمسكت «شفق» إصبعها الدامي تُعاتبها:

- احذري يا «دهب» جرحتِ نفسكِ، اتركيه وسأطلب خدمة الغرف لتنظيفه

- أنا آسفة يا «شفق».

ابتسمتْ تقول وهي تُطهِّر إصبع أختها وتمسح عنه آثار الدماء:

- لا داعي للأسف يا سخيفة، فداكِ ألف قدح.

رمقتها «دهب» بحبٍّ كبير، حب ضخم، يبتلع كل شيء حوله!

---

(٢)

جلس «جبار» مع زوجتيه «بخيتة» و«زبيدة»، تحكِّمانه في مشكلة وقعت بينهما، تتراشقان بالتُهَم، وتسوقان الأدلة والحجج.

فما كان منه إلا أن ضاق ذرعًا، وانتفض صارخًا في وجهيهما.

ملك تفكيره لقاء اليوم عند «المُبشِّع»، إما أن تتمكن ابنة «طحنون» من الاحتيال على النار، أو ينتصر «بحر»!

بمجرد أن خطرت هذه الفكرة على عقله؛ ثارت الدماء في جسده. دخلت عليه «زبيدة» غرفتهما بكوب قهوة، صاح بها:

- إن كنتِ ستتحدثين رُبع كلمة عن «بخيتة» ومشكلتكِ معها فاخرجي في الحال.

قالت «زبيدة» بحنكة:

- ما لي و«بخيتة» السمينة؟! أنا هنا لأهون عليكَ يا سيد الرجال، أعرف أنكَ ستذهب بعد قليل إلى «المُبشِّع» مع الشيخ و«طحنون»، فقلت أحضر لكَ قهوة تعدل مزاجكَ.

أخذ منها الفنجان بوجه يعلوه القلق، فجلست بين يديه تقول:

- والله أنا على يقين أنك ستخرج من عند «المُبشِّع» منصورًا منصورًا.

سألها بشكٍّ:

- صدقًا يا «زبيدة»؟

- طبعًا، وليس هذا فحسب، ستنجب «عِيدة» الصبي وسيتحقق مُرادكَ!

عند ذِكر «عِيدة» ترك من يده فنجان القهوة وكأنه زهدها فجأة، دنا من نافذة صغيرة في ركن الغرفة، تطلع إلى الرمال المتبدِّية من خلفها، ثم قال بغلظة وهو يسرح بأنظاره بعيدًا:

- سيتحقق ذلك رغمًا عن «السوارفة»، صغيرهم وكبيرهم، ستنجب «عِيدة» صبيًّا «للسوارفة».

أخذ نفسًا عميقًا وأضاف بجشع طاغٍ:

- ثم أستردها منهم.

التفت لينظر إلى «زبيدة» بوجه غضوب وهو يضرب قبضته في الجدار ويقول بصرامة:

- لن أترك أختي لـ«السوارفة» حتى لو اضطررتُ إلى قتلها!

على الرغم من أن كلماته ألقتْ بالفزع في نفس «زبيدة»، فإنها دنَتْ منه تُهدِّئ من غضبته:

- ستنجب الصبي، لا تقلق، أختك ستُنجب الصبي يا «جبار»، رأيتها في حلمي ليلة أمس تحمل في حضنها صبيًّا مثل البدر.

توحَّشتْ قسماته وهو يقول بهدوء قاتل:

- إن لم يكن ما في بطنها صبيًّا، سأقتلها يا «زبيدة».

ارتعدت فرائصها، وقد شعرتْ بصدق ما يُهدد به، هذا المجنون سيقتل أخته بدماء باردة إن لم

تتجِب الصبي.

أقبلَ الشيخ على غرفة «بحر» يضرب بابها ويهتف به:

- هل ما سمعته صحيح يا «بحر»؟ هل تعدَّيتَ على عمك في الكلام وقللتَ من احترامك له أمام أبنائه؟

انتفض «بحر» واقفًا وهو يقول بأدبٍ شديد:

- الأمر ليس كذلك يا شيخ، بل..

رفع أبوه كفَّه؛ سكت في الحال، ضاق صدره بعمه الذي يحاول أن يلبسه رداء العيب قسرًا، وبالمأزق الذي لا يجد منه خلاصًا.

اتكأ الشيخ بكلتا يديه فوق عصاه، قال بنبرة نافذة يحفظها «بحر» عن ظهر قلب:

- ستذهب إلى عمك وتعتذر منه.

أطرق «بحر» برأسه، حبس غيظه بصدره وتمتم:

- أمرك يا شيخ.

ثم قال بالنبرة ذاتها:

- ولن تسترد الجمال، فليأخذ عمك ما شاء له أن يأخذ.

دافع «بحر» قائلًا:

- هذا ما قلته أساسًا يا شيخ و...

رفع كفه مغاضبًا:

- إياكَ أن تُقاطعني.

«بحر» الذي تربَّى على احترام الكبير أطرق برأسه دون كلمة، فأكمل الشيخ بصوته الجَهْوَرِي:

- وستدعوه لتناول الطعام في الديوان، وتذبح له أكبر ما في الزرائب من عجول، وستُقبل رأسه وقدميه إن لزم الأمر كي يُسامحك.

- أمركَ يا شيخ.

هنا تبدَّى القلق فوق أمارات وجه «بحر»، خشي أن ينطق أبوه بُحكم آخر لا قِبل له على تنفيذه.

لكن الشيخ استدار وغادر الغرفة، ثم صفع الباب خلفه. تنفَّس «بحر» الصعداء؛ لم يذكر أبوه شيئًا عن الزواج بـ«عين»، فهل أقنعته «أم ذيل» أخيرًا أنه لا يريدها؟ وبخاصة بعدما صرَّح بها للمرة الأولى أمام عمه في مجلسه، أم أنه ينتظر حتى تنتهي جلسة اليوم مع «المُبشِّع»، ثم يفتح الموضوع ويصدر أمرًا نافذًا بالزواج بها؟

لا يعرف أيًّا منهما تجول في عقل أبيه الآن، فازداد قلقًا على قلق.

حاول أن يؤخر تلك المواجهة الحتمية مع أبيه، حاول أن يُفهِم الجميع على مدار سنوات بطرق

غير مَباشرة انه لا يريد «عينا»، على الرغم من انهم علموا..

على الرغم من أنهم فهموا، فإن الجميع تظاهر بالجهل وعدم الفهم، يتحدونه كي يعارض كلام الكبراء صراحة، فتقوم القيامة في القبيلة. ولم يجرؤ أن يفعل، حتى صدح بها أخيرًا في مجلس عمه.

بعدما تنتهي جلسته مع «المُبشِّع» إما أن يرحمه الشيخ من هذا العذاب، أو يحكم عليه بالزواج بها. وعندئذ سيكون أمامه طريقان لا ثالث لهما؛ إما الزواج بـ«عين» تنفيذًا لأوامر الكُبراء، أو يُعاقَب بالنفي خارج القبيلة التي أعطاها من عمره وقلبه الكثير.

خياران.. كلاهما مُر كالعَلقم!

---

(٣)

شعرت «شفق» أن بداخلها خواء عظيمًا، باتساع الصحراء، حارقًا كحرارة رمالها، قاسيًا كصلد جبالها، فوقفتْ أمام البحر تبحث عن شربة ماء! ماء عذب رقراق، يروي ظمأ سنوات وسنوات.

لم تعد تعرف نفسها، تتسرب خصالها من مسام روحها واحدة تلو الأخرى، فقدتْ فراستها في الحكم على الأشخاص والأشياء، وكأنها عابر سبيل مرَّ بصحراء خالية من الزرع والماء، ثم أصابته حرارة الشمس بالظنون والوساوس، يرى السراب في كل مكان، كلما دنا منه وظنه بابًا للنجاة؛ وقع في فخ سراب جديد. وهي بحاجة لأن تعثر على طريقة تُميِّز بها الحقيقة من السراب.

قادتْ سيارتها حيث البيت الذي فارقته باكية، عادتْ إليه تحمل عُلبة من الحلوى الشهية، لماذا هذه المرأة بالذات؟ ربما لأنها تُذكِّرها بحكمة مُعلمتها «آمال» وطيبة قلبها.

طرقت الباب بهدوء مخافة إزعاج المرأة إن كانت نائمة، وما إن فتحت الخالة «نوَّارة» باب بيتها ورأتها ماثلة أمامها حتى هتفت بفرحة حقيقة:

- كنتُ أعرف أنني سأراكِ مرة أخرى.

اتسعت ابتسامة «شفق» وهي تسألها:

- من أخبركِ؟

أشارت المرأة إلى موضع قلبها وقالت:

- هذا أخبرني.

رفعتْ «شفق» العُلبة وقالت:

- أحضرتُ الحلوى لنأكلها مع الشاي.

أفسحت لها الخالة الطريق، وكما المرة الأولى دخلت «شفق» المطبخ وأعدَّت الشاي، فيما الخالة تنتظرها فوق مقعدها الأثير.

هذه المرة انتبهتْ «شفق» إلى أن الجدار الذي يُجاور المرأة وتنظر إليه باستمرار قد أكلت الرطوبة طلاءه الأخضر، ولم يبقَ من رسومات طفولية كانت تُزينه إلا خطوط باهتة هنا وهناك.

بفراسة المرأة انتبهت إلى سؤال نبتَ في عيني «شفق»، فقالت:

- هذا الجدار رسمه ابني، كنا نسميه جدار الأحلام، يرسم فوقه ما يشتهي، بشرط ألا يقرب باقي جدران البيت.

أعجبتْ «شفق» ببراحٍ كانت المرأة تتركه لطفلها، تسمح له بكسر الحدود ما دام يجول في منطقة آمنة، لا تؤثر فينا الأشياءُ التي نفعلها ضمن قوانين صارمة، نحن نعشق الخروج عن المألوف.

فكَّرتْ أنها ما كانت لتجرؤ على أن تمسك بقلمها وترسم فوق جدار غرفتها، أو جدار غرفة المعيشة، لو فعلت لعاقبتها الدكتورة «ثريا» عقابًا لا تنساه طيلة حياتها.

التقطتْ عين الخالة العليلة مشاعر متضاربة في وجهها، سألتها:

- لماذا أنتِ تائهة يا بنتي؟

تائهة، يا له من وصف!

كانت بالفعل كمن فقد بوصلة حياته، ولا يستطيع ان يتقدم خطوة او يتاخر. تركت فنجان الشاي، أخذت نفسًا عميقًا، ثم حاولت أن تتكلم وهي التي لا تُحسن صوغ نفسها في كلمات:

- هناك غمامة على عيني يا خالة، لا أرى شيئًا مما حولي بشكل صحيح، لم أكن هكذا في السابق، لكن....

قاطعتها الخالة بحِكمة العارف:

- لكن الإنسان يتغير يا بنتي، من مَنَّا بقي على حاله؟ نحن ننضج بأشد الطرق قسوة، نحن ننضج بالصفعات!

لامست كلماتها قلب «شفق»، فتركتها تسترسل في حديثها دون مقاطعة:

- لكن نُضج الصفعات ثمنه غالٍ يا بنتي، ننضج نعم، لكننا نُصبح أكثر هشاشة مثل هذا الطلاء الأخضر الذي يبهتٍ ويتساقط من فوق الجدار كلما مرَّ عليه زمن أطول. عليكِ أن تُطلي جداركِ من جديد، وألا تملّي من فعل ذلك، وإلا تحوَّلتْ نفسكِ إلى هذا المنظر القبيح، لا أنتِ تطيقين النظر إليه ولا الآخرون.

- لا أجد لدي القوة لأبني من جديد، فقدتُ شغفي بكل شيء يا خالة، لم أعد أنا أنا. لو تعرفين ما مررتُ به لعذرتني.

ترقرقت من عينها عبرة سمحت لها بالسقوط وهي تبوح بسرها دون خجل:

- كنتُ على وشك الزواج برجل أحبه، كان كل شيء يسير على أكمل وجه، هل تعرفين شعور أن تستيقظي كل يوم وتُعدين الأيام من أجل دخول بيتكِ الجديد والبدء بحياة جديدة تنسي بها كل ما فات؟ هذا كان شعوري طوال خمسة أشهر هي عُمر الخطبة، حتى استيقظتُ ذات يوم على كابوس.

مسحت عبرتها بظهر كفها ثم قالت:

- قبل يومين فحسب من الزفاف، في الوقت الذي كنتُ فيه في قمة سعادتي، قال لي إنه تسرَّع وأننا لا نصلح لبعضنا بعضًا، هكذا بكل بساطة، قال إنه لا يريدني! وأن اختياره لي كان خطأً اكتشفه مع مرور الوقت، ولا يريد أن يعيش حياته القادمة يدفع ثمن هذا الخطأ، قال إنني لستُ امرأة أحلامه، وأنه ظنَّ أنه بإمكانه أن يُغيِّرني لأصير مثلما تخيَّل، لكنه لم يجد نفعًا مني.

تجعَّد وجهها ألمًا وهي تستطرد:

- كانت أقسى صفعة تلقيتها في حياتي، لا تعرفين معنى أن تُرفَض امرأة من قِبَل رجل أحبَّته! هذا الشعور قاتل يا خالة، إنه كالموت ذاته، مواجهتكِ لنفسكِ بأنك شخص مرفوض، ليس جيدًا بما يكفي كي يحظى بالحب، مواجهتكِ للناس وترديد أشياء جوفاء عن القسمة والنصيب فقط كي تحفظي ما تبقَّى من ماء وجهك، رفض الرجل لامرأة تحبه يُشعرها أنها مجرد خرقة بالية لا خير فيها!

قالت المرأة لائمة وقد رقَّ قلبها لحالها:

- شباب اليوم يسعون وراء المتاعب سعيًا! كيف تُسلِّمين قلبكِ لرجل ما تزالين تتعرفين إليه ويتعرف إليكِ؟

فترة الخطبة للتعارف يا بنتي وليست للموت عشقا.

أطرقتْ «شفق» برأسها تقول بخجل:

- لم يكن بيدي يا خالة، كنت مشتاقة كثيرًا لعيش هذا الشعور، كنتُ جائعة للحب.

- الحب مراحل يا بنتي، ولا يتكون إلا بعد معرفة حقيقية بين رجلٍ وامرأة، هل رأيتِ امرأة تلد جنينها في شهر أو شهرين؟ إن ولدته قبل تمام تكوينه لا يُسمَّى طفلًا، بل سَقْطًا، «سَقْط الحب»!

بدا للجملة وقع عجيب حفَّز عقلها. سألتْ الخالة بحماس:

- كيف أُفرِّق بين الحُب وسَقطه يا خالة؟

- كل علاقة لا تجعلكِ إنسانة أفضل هي سَقْط يا بنتي، كل علاقة بين اثنين لا يكون الله ثالثهما هي سَقْط يا بنتي.

سكتتْ «شفق» سكتة طويلة، تطوف بداخلها كلمات المرأة من عقلها إلى قلبها، ثم تعود إلى عقلها مرة أخرى، تستوي فيه وتصنع فَرقًا.

قطعتْ المرأة الصمت بغتة وهي تميل صوبها وتقول:

- نحن أضعف من ورقة هشة في مهب الريح، نحن مثل نبات اللبلاب الذي أزرعه في شُرفتي، كلما مرَّ عليه الوقت احتاج إلى دُعامة يتكئ عليها، بدون هذه الدعامة سيمضي حياته زحفًا على الأرض.

- دعامة؟!

- نعم دعامة، شخص حكيم يُرشدكِ ببصيرته النافذة، وينصحكِ بقلب مُخلِص صادق. من عادة الشباب أن يُفكروا في نهاية الطريق قبل الطريق نفسه، في الكنز قبل خريطة الوصول! تقولين إنكِ فقدتِ بوصلتكِ، هذا لأنكِ لا تنظرين إلى الطريق أصلًا، عليكِ أن تهتمي بعلامات الطريق، وبالإشارات، عليكِ أن تسيري وفق القوانين التي ارتضاها لنا الله، عندها لن يُشغلكِ ما ستجدينه ينتظركِ في النهاية، لأن الطريق إن كان صحيحًا فستجدين حتمًا في نهايته الشيء الصحيح، سواء كان حلوًا أو مرًّا.

لم تدرِ الخالة «نوَّارة» وقت أن نطقت بهذه الكلمات، أنها استطاعتْ أن تمسك بتلابيب المشكلة، ارتفع حاجبا «شفق» وهي تكاد تجزم أن للمرأة كرامات وأسرارًا لا يعلمها إلا الله؛ الآن باتت ترى مشكلتها الحقيقية بوضوح، وترى الحل أيضًا، وكأن الغمامة انزاحت من فوق عينيها فجأة.

كيف نجحت امرأة بسيطة في أن تفعل ذلك؟

تُرى ماذا بينها وبين الله ليجعلها نورًا يُهتدى به؟

قالت المرأة ببشاشتها المعهودة:

- هيا اتركي كوب الشاي الذي بردَ، واصنعي لنا شايًا طازجًا، هذه الحلوى التي أحضرتِها شهية للغاية، لا أستطيع أن أتوقف عن أكلها، لو ازداد وزني فسأعطي طبيبي رقمكِ لتتلقي كل التعنيف بدلًا مني.

ضحكتْ «شفق» ضحكة رائقة، أسعدتْ قلب المرأة وأطربَتْ وجدانها، لكن «شفق» التي دخلت المطبخ تُعد الشاي اغتمَّتْ بغتة، إذ تذكَّرتْ أنها ما تزال تُخفي عن المرأة هويتها.

ترى مادا سيكون رد فِعلها إن عرفت من تكون؟

ما إن فتحت «نرجس» باب بيتها ورأت «شفق» حتى بادرتها هذه الأخيرة ببسمة كبيرة:

- اشتقتُ إلى صديقتي، فجئتُ لأعتذر منها.

عانقتها «نرجس» في الحال، ثم أدخلتها وقالت:

- وصديقتكِ أيضًا اشتاقت إليكِ، ولا تنتظر منكِ أي اعتذار.

كانت كل منهما تراهن على طيبة قلب صديقتها التي تنسى الإساءة سريعًا، وكسبت كلتاهما الرهان.

حيَّتْ أم «نرجس» التي قالت ببشاشة:

- كنتُ أعرف أنكِ ستأتين قبل انتهاء اليوم، وأن «نرجس» لن تهون عليكِ.

ثم قالت بحماس وهي تتوجه إلى المطبخ:

- هذه المرة ستتناولين العشاء الذي سأعده وإلا غضبتُ عليكِ كثيرًا.

اتخذت الصديقتان مجلسيهما في الشرفة، تطرَّق الحديث بهما عن مشكلة العمال، حتى قالت «شفق» وهي تُخرج ملف القضية من حقيبتها:

- وهكذا ترين أن أبي العزيز قد وضعني في مأزِق كبير، إما أن أخدع «غرابًا» بالتظاهر بالتنازل عن القضية حتى ينتهي المشروع، وإما يُكلف محاميًا غيري بتولي القضية.

أيقنتْ «نرجس» أن صديقتها واقعة في مشكلة حقيقية، قطَّبتْ جبينها متسائلة:

- وماذا ستفعلين؟

- كما ترين؛ أُدقق في ملف القضية.

- لكن لماذا؟ ماذا سيُفيد ذلك؟

أخرجت «شفق» ذاكرة خارجية من حقيبتها وقالت:

- أحضري «اللابتوب» الخاص بكِ وستعرفين.

أحضرته «نرجس» وثبتتْ الذاكرة الخارجية في موضعها، فشرحتْ «شفق» وهي تفتح عِدة ملفات فيديو بالترتيب:

- كما ترين، هذا هو الفيديو الذي يُثبت إدانة «غراب».

استبدَّتْ الحيرة بـ «نرجس» التي سألتها:

- ولماذا نُشاهده مرة أخرى؟

تنهدتْ «شفق» بقوة وهي تقول:

- لأنه يقول إن دليل إدانته هذا هو في الوقت نفسه دليل براءته!

رفعت «نرجس» كفَّيها تقول:

- لم افهم شيئا، هل تحاولين إثبات إدانة «غراب»، ام إثبات براءته؟

توقفتْ عند السؤال للحظات، ثم قالت بصدق وعزم وإصرار:

- أحاول الوصول إلى الحقيقة.

أنهتْ كلماتها النقاش، وطفقتْ الفتاتان تفحصان المشاهد واحدة تلو الأخرى، بينما «شفق» تصف لها المعروض على الشاشة، بينما إضاءتها تنعكس على وجهيهما:

- كما ترين؛ لم يدخل أحد المخزن سوى «غراب»، منذ أن استلم مواد البناء بنفسه.

ثم فتحت فيديو آخر وأوقفته عند نقطة معينة، وقالت وهي تشير إلى الشاشة:

- ها هو يوقع على أوراق الاستلام، وهو أساسًا لم يُنكر توقيعه على الأوراق، ثم في هذا الفيديو ها هو يُوقِّع على خروج المواد بنفسه، أي أنه الوحيد الذي كان مسؤولًا عن المخزن ولم يدخل إليه غيره.

تساءلتْ «نرجس» كي تكتمل الصورة في رأسها:

- وكيف إذن استبدل بالمواد أخرى؟

- تم هذا أثناء نقلها إلى الموقع.

ثم أشارت إلى السيارة النقل الظاهر جزء منها:

- كما ترين؛ بعدما وقَّع الأوراق حمَّل السيارة ثم انطلقت به مع سائقها، شعر السائق بإعياء وتوقف في الطريق وفقد وعيه، ثم استيقظ بعد ذلك في المستشفى الذي أخذه «غراب» إليه، أفاق السائق وتوجه مع «غراب» إلى الموقع ثم أفرغوا حمولة السيارة.

أكملتْ «نرجس»:

- أي أنه تسبب في إعياء السائق وأفقده وعيه بشكل ما، عن طريق دَس شيء في طعامه أو شرابه، وخلال وجود السائق في المستشفى حصلت عملية تبديل حمولة السيارة.

أشارت «شفق» بسبَّابتها قائلة بحماس:

- بالضبط.

ثم فتحت فيديو آخر وأشارت صوب الشاشة تشرح لها:

- وهنا عندما وصلت السيارة إلى الموقع، كما ترين، لا أحد في السيارة سوى سائقها و«غراب»، وها هم العمال يفرغون السيارة من حمولتها، الحمولة التي استبدلها «غراب» قبل الوصول إلى الموقع؛ لا أحد غيره كان قادرًا على فِعل ذلك.

ثم عادت لتنظر إلى الشاشة وهي تتساءل بحيرة كبيرة:

- والآن أخبريني؛ لماذا قال لي إن هذه المشاهد دليل براءته؟

- ربما كان يخدعكِ.

استعادت «شفق» تلك اللحظة، كلا، لم يكن يخدعها، كان مؤمنًا بما يقول، حتى إنه أمسك لسانه بعدها وكأنه باح بسرٍّ خطير، شيء ما يختبئ في هذه المشاهِد، شيء فاتها أن تراه.

ستعمل بنصيحة الخالة «نوّارة»، لن تهتم بالنظر إلى نهاية الطريق، فالنظر بعيدا يعمينا عن رؤية ما تطؤه أقدامنا في سبيل الوصول، النظر بعيدًا يجعلنا أحيانًا لا نهتم بالوسيلة في سبيل الغاية.

المهم أن تتأكد من سيرها على الطريق الصحيح باتباع القوانين والإشارات والعلامات.

أما ما ستجده في النهاية، فهو رزق من الله.

دخلت أم «نرجس» بصينية تفوح منها أطايب الطعام، وهذه المرة كان لديها البال الرائق والشهية المفتوحة للتلذذ بالأكل.

---

(٤)

زهدتْ «عين» الطعام والشراب، هربت من العالم كله بالنوم طوال اليوم، لم يفلح رجاء أمها ولا بكاؤها في أن يُخرجاها من عزلة ألزمَتْ نفسها بها داخل غرفتها.

لذلك عندما طلبت من أمها بصوت ضعيف ذبح جَدي سمين، سارعت بتلبية مطلبها، علَّها تُفارق فراشها وتأكل ما تسد به رمقها.

لكن حين طلبت من أمها همسًا أن تُحضر لها أقدام الجَدي، تعجَّبتْ في الحال، ثم خطر على بالها خاطر دفعها لتهتف بها مُستنكرة:

- يبدو أن «عِيدة» بنت «السخاوية» لعبت برأسكِ يا «عين»، والله لو علم الشيخ بذلك لعاقبكما معًا.

رجتها «عين» كي لا تُخبر أباها ولا الشيخ، ثم قالت:

- ما سنفعله إن لم ينفع لن يضر.

لكن هذا الشك لم يكن في نفس «عِيدة» على الإطلاق، فـ«السخاوية» كانوا وما يزالون يؤمنون بالعادات القديمة لأجدادهم، ولم تتطور أفكارهم كـ«السوارفة» الذين أدركوا الآن أن أحوال الخلق بين يدي الخالِق وحده، إن شاء أعطى وإن أراد منع.

هذا الشك لم يمنع «عينًا» من حمل أقدام الجَدي في وشاح أسود ومُلاقاة «عِيدة» عند سفح الجبل الكبير، ثم ينطلقان معًا في اتجاه البحر، بينما «عِيدة» تُسرع الخُطى وتقول:

- يجب أن نعود قبل أن يقلق «حَمَد»، أخبرته أننا سنشترى بعض الأغراض.

«حَمَد» القلوق يخشى اللحظات التي تفارق فيها «عِيدة» بيته، مخافة ألا تعود، على الرغم من أنه يعلم جيدًا أنها مضطرة إلى العودة، مؤقتًا، حتى تنجب الصبي فتتحرر من أسر زواجها منه إلى الأبد.

لعنَتْ «عِيدة» حُكمًا جائرًا دفعها للزواج بـ«حَمَد» دون رغبة منها، لكنها كانت مُضطرَّة، كي تُنقذ أخاها «جبارًا» من الموت!

من نافذة بيتها وقفت «أم ذيل» تتأمل السماء وتبتهل إلى الله بحِفظ عائلتها. سمعتْ صوت «حَمَد»؛ اشرأبَّتْ بعنقها، رأته يلعب بالكرة مع الصبيان أمام بيتها، أوقفوه أثناء مروره وطالوه باللعب. اتسعت ابتسامة حنون فوق شفتيها وهي تهمس: آه يا «حَمَد»، ما زال بداخلك طفل لا يكبر أبدًا.

رأت فرحَ الأطفال بلعبه معهم، وسمعتْ صوت ضحكاته الرائقة تحملها نسمات الهواء كُلما فاز عليهم.

انقلبت بسمتها إلى حسرة تقول في نفسها: أعلم أن قلبكَ سيتمزَّق حين تلد «عِيدة» الصبي وتُفارقكَ، لم أرغب قط في أن يخفق قلبكَ لامرأة قتل أخوها أخاكَ يا «حَمَد»! لكن قلبكَ لم يتعلم الحقد والبُغض يومًا، نقي خفَّاق مثل أفئدة الطير.

مرّت بخاطرها صورة ابنها «مَسْفِر»، اصغر ابنائها، حين راته لاخر مرة يعود إلى القبيلة جثة هامدة غارقة في الدماء. أول ما صرخَتْ به هو القصاص، وأقسمَتْ ألا تأخذ العزاء في «مُسْفِر» إلا بعد موت قاتِله.

كان «بحر» هو من أعاد جثة أخيه إلى القبيلة، تركها وخرج يشق الطريق إلى «السخاوية» حاملًا سلاح الشيخ، يبحث عن القاتل اللعين.

سيقتله، وإن لم يعثر عليه سيجد أحدًا من دمه حتى الدرجة الخامسة ويقتله أخذًا بالثأر.

لكن كل شيء تغير في لحظة عندما لجأ «السخاوية» لعُقلاء قبيلة أخرى، وعندما يحتمي القاتل إلى كبراء قبيلة بدوية أخرى يضطر أهل الثأر أن يقبلوا بالصُلح. فحكم العُقلاء على «السخاوية» بدفع الديَّة، وكي يضمنوا أن الثأر سيتوقف بين القبيلتين حكموا أيضًا على «السخاوية» بدفع «الغرة»!

أي بنت بكر من دم القاتل تتزوج رجلًا من دم المقتول، حتى تلد ولدًا، وعندئذ تُصبِح مُخيَّرة بين أن ترجع إلى أهلها أو أن تُجدد زواجها. وكانت «عِيدة» هي «الغرة»، الأخت الوحيدة للقاتل، أرادوا من «بحر» أن يتزوجها كي يطفئوا ثورة غضبه، وعندما رفض زوَّجوها لأخيه الأكبر «حَمَد».

أحسَّتْ «أم ذيل» بحركة أخذتها من شرودها، دنا منها الشيخ ينظر معها إلى ابنه الذي يلعب بالكرة مع الأطفال، يُخرج من جيب جلبابه حفنة من الحلوى ويوزعها على الأطفال الفرحين بنفحته الحلوة، فقال بانزعاج:

- ألن يتعقل أبدًا؟

غيَّرتْ «أم ذيل» الموضوع لآخر أكثر أهمية:

- هل أخبرتَ «بحر»؟

شبَّك الشيخ كفَّيه خلف ظهره قائلًا بحزم:

- ليس بعد، سأخبره بعدما تنتهي الجلسة مع «المُبشِّع».

ثم أضاف بعزمٍ لا ينثني:

- «عين» شرفي وعِرضي، لن أسمح بكلمة سوء تمسَّها وأنا على قيد الحياة.

ربتتْ «أم ذيل» فوق كتفه وقالت:

- هذا الحل الذي توصلتَ إليه واتفقتَ عليه مع «برهوم» هو أفضل الحلول، هكذا سنرضي «عينًا» و«بحرًا» في الوقت ذاته.

ثم ابتسمت تُبشِّره:

- كل شيء سيسير بخير يا شيخ.

أومأ الشيخ برأسه مصدِّقًا على كلامها، ما اتفق عليه مع أخيه، هو أفضل الحلول للخروج من هذه الورطة.

على شاطئ البحر وقفت «عين» الباكية تنظر إلى امواجه العاتية، تتساءل بحسرة، لماذا لا يكون البحر أليفًا، ساكنًا قابلًا للاحتواء؟ لماذا عليه أن يكون هائجًا، عنيدًا، ثائرًا؟

- هيا يا «عين»، أسرعي.

انحنت «عين» لتُمسك بإحدى أقدام الجَدي، تفعل كما فعل أجدادها البدو الذين آمنوا بقدرة البحر على تزكية الدعاء. يستحمون فيه طلبًا لشفاء الرجال من الأسقام، ولشفاء النساء من العُقم طلبًا للحمل، يُطعمون البحر ويتبرَّكون به كي يهبهم الله ما يشتهون!

ترفع ذراعها عاليًا، ثم وبعزم قوتها تُلقي القدم اتجاه البحر وهي تهتف بهتاف أجدادها:

- هذا عشاكَ يا بحر.

ثم تُمسك بالقدم الثانية فالثالثة وتصيح بالجملة نفسها، أبقَتْ على القدم الرابعة لـ«عِيدة» التي أمسكت بها، ثم دعَتْ الله سِرًّا أن يبرد ماء قلبها بالعودة إلى قبيلتها، كما هو قادر على أن يُبرِّد مياه البحر، ثم ألقت بالقدم إلى أبعد نقطة ممكنه وهي تصيح:

- هذا عشاكَ يا بحر.

انهارت «عين» فوق الرمال تبكي بحُرقة مزَّقتْ قلب «عِيدة» ألمًا، تبكي قهرًا ويأسًا وقلة حيلة، تبكي حياة انتهتْ قبل أن تبدأ، ومستقبلًا مظلمًا ينتظرها إن لم يمنحها البحر عطيَّته.

افترشتْ «عِيدة» الرمال بجوارها وضمَّتْ رأسها إلى صدرها، كل منهما تبكي همها وألمها. قالت «عِيدة» وهي تمسح عبراتها بأطراف ردائها:

- والآن إلى الخطوة الثانية.

نظرت إليها «عين» مُستفهمة، فقالت «عِيدة»:

- ما سأطلبه منكِ لن يكون سهلًا عليكِ يا «عين»، لكنه سيضمن لكِ الزواج بـ«بحر» في نفس اليوم.

رددتْ «عين» مبهورة:

- في نفس اليوم؟

صدَّقتْ «عِيدة» بهزة من رأسها، فامتلأ قلب «عين» بالقلق، ماذا تُريد منها أن تفعل؟

---

(٥)

على الرغم من الحرقة التي أصابت مُقلتيها من كثرة النظر إلى الشاشة، فإنها لم تتوقف عن مشاهدة الفيديوهات مرة بعد أخرى. نسيت الزمن، والطعام، وكل شيء إلى أن تعثر على ما يدَّعي «غراب» أنه دليل براءته. كاد اليأس أن يتملك من قلبها وهي تهمس: هل خدعني؟

ولأنها لا تملك أن تمنح نفسها جوابًا قاطعًا، استمرتْ في تتبُّع علامات الطريق، تسير خطوة صغيرة صحيحة أفضل من أن تقطع أميالًا في الطريق الخطأ.

استعادت حاستها بغتة وهي تهمس لنفسها: فلأجرب طريقًا آخر.

فتحتْ الفيديوهات الخاصة بالأيام التي مرَّت بين يوم استلام المواد ويوم إخراجها من المخزن.

تلك الأيام التي لا ترصد شيئًا سوى دخول «غراب» المخزن عدة مرات على مدار أيام، يُلقي نظرة مُتفحِّصة على كل شيء ثم يُغادر.

كانت تستخدم سُرعة كبيرة لمسار الفيديو كي تُمرر مشاهد ساكنة طويلة لمخزن مُغلق، وعند أحد المشاهد التي رصدتْ فيها الكاميرا دخول «غراب» المخزن أبطأت من سُرعة عرض الفيديو.

في ذلك المشهد وبينما كان يتأكد من محتويات المخزن تسللت قطة من الباب وقفزت هنا وهناك، رأته يُخرج لها من عُلبة طعامه شيئًا ويضعه لها فوق الأرض. الفيديو صامت، لكن بإمكانها أن ترى حركة شفتيه، وكأنه يُنادي القطة ويدعوها للطعام. بعد عدة محاولات منه للعثور عليها، خرجتْ أخيرًا ودَنَت من الطعام بحذر، فلما آمنَتْ جواره طفقتْ تأكل ما وضعه لها بنهم، حتى إذا ما أنهته وضع لها المزيد.

القطة التي شعرت بشبع بعد جوع، واطمئنان بعد روع سمحت له أن يمسَّ ظهرها، ويمسح فوقه برقَّة. تتبعتْ «شفق» حركة شفتيه، كان ما يزال يتحدث إلى القطة. أنهتْ طعامها ومسحتْ جسدها في قدميه طلبًا للدفء، حتى استكانتْ نائمة.

دون أن يزعج القطة أمسك بعُلبة طعامه وشرع في الأكل ببطء. من الزاوية التي كانت تنظر منها رأت الجُرح يشق وجنته بوضوح، الجُرح الذي جعلها تظنه قاطع طريق حين التقطته في ليل الصحراء الموحِش.

لم يبدُ لها الجُرح بشعًا كما رأته في المرة الأولى، ولم يبدُ صاحبها بدمامة النظرة الأولى. لا تعرف إن كان هذا لأن الجُرح ليس بشعًا بالفعل، أم لأنها رأتْ منه ما خفف من وقع هذا الأثر في نفسها.

طفقت تتساءل، كيف ومتى أصيب به؟

نهض بعدما أنهى طعامه، حاول حمل القطة التي استيقظت مُنزعجة، لكنها أبَتْ. انسلَّتْ من بين يديه تقفز هنا وهناك، حتى أوقعت عُلبة من الدهان الأحمر فوق شكائر الأسمنت.

ظنت «شفق» أنه سيصب جام غضبه على القطة المسكينة، لكنه حملها بحنان وأخرجها دون أن يمسها بسوء؛ تساءَلتْ بجبين معقود: هل هذه تصرفات مجرم عتيد؟

لكن المحكمة لا تأخذ بتلك القرائن، وتحتاج إلى دليل مادي حقيقي.

أتعبها النظر إلى الشاشة، فأراحتْ جسدها فوق الفراش وأغلقت عينيها، بعد قليل فتحتهما ومالت

براسها لتنظر إلى النجمات المَعلقات في السماء، ينظرن إليها بالفضول نفسه، يذكرنها بـ«الصوت»!

خفق قلبها كعادتها حين تلوح ذكراه بخاطرها، هذه الذكرى الجميلة يُمكنها الاحتفاظ بها واجترارها مرات ومرات مثلما يفعل الجمل مع الماء أثناء سيره الطويل تحت رحمة ظروف قاسية.

يُمكنها أن تجتر ذكرى الصوت فتشعر بالبهجة التي أحستْ بها حين سمعته قبل سفرها الصين بأسبوع.

صوت، مجرد صوت، لا تعرف عنه أي شيء. لا اسم.. ولا وجه.. ولا هيئة.. ولا وصف.. ولا صفة!

اخترق قلعة مُحصَّنة عالية الأسوار أحاطتْ بها نفسها منذ زمن طويل،
زرع بصحراء قلبها الأمل في لحظة كادت أن تفقد فيها عقلها أو حياتها.

فسَكَنَتْ إليه، وتمنَّتْ أن تتخذه بيتًا لها، تودِع فيه مكنونات نفسها. هل يُمكن للأصوات أن تكون بيوتًا صالحة للسُكنَى؟

تذكرتْ حين سألته ليلتها: كيف أردُّ جميلكَ؟

فأتاها الصوت يخترق طبقات الظلام من حولها: «كلما تذكَّرتِني، قومي بعمل خير».

انتفضتْ جالسة بغتة، تُعيد وضع «اللابتوب» فوق قدميها، تصل إلى المشهد الذي سَكَبَتْ فيه القطة الطلاء الأحمر فوق شكائر الأسمنت.

ثم تُقدِّم المشاهِد حتى تصل إلى مشهد الموقع حين أنزل العُمال حمولة السيارة.

أوقفتْ اللقطة عند لحظة مُعينة، يبدو فيها واضحًا للعيان عاملان يحملان إحدى الشكائر المُلطَّخة بالطلاء الأحمر!

لا يُمكن أن يكون «غراب» قد استبدل حمولة السيارة أثناء وجود السائق في المستشفى، لأن الشكائر كانت هي نفسها التي في المخزن.

والدليل، الطلاء الأحمر.

صدق إذن، دليل إدانته هو نفسه دليل براءته!

أمسكتْ هاتفها بحماس؛ ترُد الجَميل إلى الصوت، بالقيام بعمل خير.

انطلقت سيارته بسرعة هادئة، لا يلوي على شيء. بيت فارغ ينتظره حين عودته، لذلك لم يجد داعيًا للتلهف على العودة إليه.

رفع «غراب» رأسه قليلًا صوب سماء مُتشحة بالسواد، تُزينها ماسات باهرة، وقمر لا يتبدَّى منه إلا طرفه.

قالت له أمه ذات زمن بعيد إن في قلب كل نجمة أمنية لم تتحقق، تحتفظ بها من أجل أولئك الذين لم يفقدوا الأمل بعد.

فسالها كيف يعرف النجمة التي تحمل في بطنها امنيته؟ فاجابته، اول نجمة تخطف بصرك هي نجمتك الحاملة للأمنيات.

ثبَّتْ أنظاره صوب أول نجمة التقتْ بعينيه، وابتسم لتلك الذكرى القريبة من القلب، البعيدة بُعد السماء عن الأرض.

رنَّ هاتفه، فاتسعت ابتسامته، وانتفض قلبه يخفق بلحن مختلف، أخفى ابتسامته سريعًا وحاول حبس اللهفة عن صوته وهو يستهل المكالمة بإلقاء السلام.

فعاجلته «دهب» بحماس:

- أريد أن نلتقي الآن.

لأشَد ما رغب وتمنَّى واشتهى، ليس ما أرادته من لقاء قصير عمره دقائق أو حتى سويعات، بل لقاء أبدي لا ينتهي.

وعلى الرغم من هذا الاشتهاء، روَّض قلبه ليقول:

- لا أستطيع، تعرفين، اتفقنا سابقًا ألا لقاء.

أتاه صوتها متوسِّلًا:

- أرجوكَ يا «غراب»، إن كنتَ تُحبني ستفعل.

ودَّ لو كان بإمكانه أن يهمس «لأنني أحبكِ لن أفعل».

ما أسهل الفِعل، وما أصعب المنع! يخشى عليها كلمة سوء أو نظرة اتهام يرميها بها الناس من حولهما. يخشى عليها حتى من نفسٍ تُجاهد وتُثابِر لكنها قد تضعف مرة وتَزَل.

ينأى بها كي لا تكون خطيئته. أي حب يكون هذا إن جعلها ذنبًا يستوجب التوبة منه، والإعراض عنه؟

رجاؤها يُفتت صخرة عزمه، فقطع عنه وعنها باب مفسدة، حيَّاها وتمنَّى لها ليلة طيبة. استشعر ضيقها، فعزَّ عليه حُزنها؛ ألهمه عقله كي يقول مُلطِّفًا:

- انتبهي جيدًا للنجمتين.

- أي نجمتين؟

نبتَت فوق ثغره بسمة رائقة لا تراها، قال وهو يُنهي المكالمة:

- حسنًا فهمتُ، أنتِ منزعجة، لكنني لا أملكِ أن أصالحكِ الآن، يومًا ما سأفعل، تصبحين على خير.

أنهى المكالمة لكن بسمته لم تنته، طرحت في عينيه زهر الفرح، وفي قلبه ألقتْ ببذور الشوق.

من كان يتخيل أنه وبعد سبعة وعشرين عامًا سيعثر أخيرًا على انعكاسه كمَن ينظر في مرآة؟ نصفه الآخر، وضلعه المفقود.

ألهذا السبب يتقافز قلبه كلما لاحتْ بخاطره، لشوقه إلى ضلع يحضنه؟

أخرجه من التفكير صوت الهاتف، لما رأى اسم المتصل تنهد هامسًا لنفسه «تُصعبين الأمر كثيرًا».

اجابها مَتحليًا ببعض الحزم، لكن ما إن سمع صوتها تستغيث به حتى سقط قلبه ارضا:

-أنقذني يا «غراب»، تهتُ عن الطريق، لا أعرف أين أنا، أنا خائفة جدًّا.

استنفرت حواسه كلها، اعتدل في مقعده وتأهَّب مثل فهد يستعد للدفاع عن أنثاه. هدَّأ من روعها وطلب منها أن توقف السيارة وتصف له ما حولها، فصدمته بقولها:

- أنا على الطريق الصحراوي.

كاد أن يُعنِّفها لابتعادها عن المدينة، لكنه آثر أن يؤجل ذلك، وعندما طلب منها أن تسير حسب اتجاهات الـGPS حتى يعثر عليها صدمته ثانية:

- السيارة تعطَّلتْ فجأة.

بلغ به الخوف مبلغًا كبيرًا، لاح بخاطره مُقدمات لسيناريوهات بشعة أخذ يصرفها عن عقله بالاستغفار، ماذا إن عثر عليها قاطع طريق أو أحد المجرمين المتخفين للإيقاع بضحاياهم على الطريق؟

عصر الهاتف بيده المُصابة، أنَّ من الألم، تذكر حين تركته «شفق» يُصارع الكلاب، وخافت أن تفتح له أبواب سيارتها. وبينما «دهب» واقعة في نفس المأزق حذَّرها من أن تفتح أبواب السيارة لأي مخلوق.

ثم قال يُطمئنها وهو يُحيد بسيارته عن الطريق ليقطع طريقًا آخر يسير فيه بشكل مخالف كي يوفر خمس دقائق على الأقل:

- اطمئني، أنا قادم إليكِ.

أجهشتْ في البكاء:

- أنا خائفة جدًّا.

لم يُبالِ بالسباب الذي هطل فوق رأسه لسيره في اتجاه عكسي، حاول قدر استطاعته أن يأخذ جانب الطريق كي يبتعد عن أي سيارة قادمة، كيلا تحدث كارثة على الطريق.

لم يُنزل الهاتف عن أذنه لحظة، وصارت أصابعه تعصره بشدة لا إراديًّا وكأنه فقد القدرة على التحكم فيها. يدعو الله سِرًّا كي يحفظها إلى أن يعثر عليها.

بكاؤها على الطرف الآخر كان يُصيبه بالجنون أكثر، فألقى عليها المحاذير أن تتأكد من إغلاق الأبواب جيدًا.

عشر دقائق مرَّتْ عليه كعشر ساعات. ما إن لمحَ سيارتها حتى بشَّرها قائلًا:

- اطمئني، وجدتكِ، أنا هنا.

أصدرتْ عجلات سيارته صوتًا مُزعجًا شق سكون الليل، نزل من السيارة بلهفة، وفعلت هي الشيء نفسه.

وقف بغتة، اختلط عليه الأمر للحظة، هل ينظر إلى «دهب» أم إلى «شفق»؟!

استقبلته بابتسامة واسعة وهي تُشير إلى غطاء رأسها وتقول مُبتهجة:

- ما رأيكَ في هذه المفاجأة؟

احتاج إلى خمس توانٍ كاملة كي يعي انها «دهب»، وخمس مثلهم كي يفهم جملتها، وعشر مثلهما كي يدرك أنها خدعته!

أضافت بالابتهاج نفسه وهي تُحرّك يديها بطريقة مسرحية:

- أردتُ مفاجأتكَ على الرغم من إصراركَ على عدم اللقاء.

ظنَّ لوهلة أنها ستنحني لتُحيي جمهورًا من الرمال والصخور يُصفق لروعة أدائها حين احتالتْ عليه لتجبره على اللقاء.

نظر حوله، إلى الصحراء الخالية، والظلام المُمتد إلى ما وراء الأفُق، دنا منها خطوة. قال بنبرة حملتْ كل استنكار العالم:

- خدعتِني!

ضحكت تقول وهي تضم كفَّيها معًا:

- ليست خدعة، بل مفاجأة.

دنا خطوة أخرى، وقال مُستنكرًا وهو يُشير إلى صدره:

- كيف تفعلين بي هذا؟

مِن نظراته التي أطلقها لتُحدق إليها، دون أن يهتم هذه المرة بلملمتها كعادته، أدركتْ أنه غاضب، غاضب بشدة، غاضب كالنار حين تتراقص في الهواء حنقًا.

قالت بنبرة خافتة في محاولة لامتصاص هذا الغضب:

- ظننتكَ ستفرح بهذه المفاجأة.

لكن كلماتها زادته غضبًا على غضب، استدار حول نفسه، نظر إلى الطريق الطويل الذي شقَّه بسيارته بسرعة التقطها الرادار حتمًا، سيره على طريق مخالِف، خوفه، هلعه، خيالات سوداء طافت برأسه.

صوتها، بكاؤها، هلعها.. كل ذلك كان مجرد خدعة!

أدركتْ أنها تمادتْ كثيرًا؛ ما إن استدار إليها حتى رفعت يدها، بإصبعها الملتف حوله ضمادة تُخفي جُرحها الصغير وتقول:

- كنتُ في حالة سيئة جدًّا، لم أحسن التفكير، أنا آسفة.

استرعى انتباهه ضمادة إصبعها، سألها متوجسًا:

- ماذا حدث؟

انتحبتْ بشدة، بكاء حقيقي لا مراء فيه. تقول:

- أصِبتُ حين كنتُ أحاول حماية «شفق»، أنا خائفة عليها جدًّا وهي لا تأبه لذلك على الإطلاق.

هدأت غضبته قليلًا، مشكلاتها مع أختها لا تهدأ، حتمًا أتلفَ ذلك أعصابها.

نظر حوله في قلق ملحوظ، ثم أشار صوب سيارتها وقال بصوت أهدأ:

- حسنًا، اركبي سيارتكِ الآن؛ من الخطر الوقوف على الطريق هكذا.

تعلقت عيناها بوجهه تسترضيه:

- أرجوكَ لا تغضب مني، كنتُ في حالة سيئة جدًّا وأردتُ أن أراكَ وأريكَ كيف حققتُ الشرط الذي كان يحول بيننا لكنكَ رفضتَ، فخطرت لي هذه الفكرة الحمقاء، أنا آسفة جدًّا، أعلم أنني أغضبتكَ كثيرًا.

أخذ شهيقًا عميقًا، ثم زفره ببطء قائلًا:

- لا عليكِ، لستُ غاضبًا، أنا فقط...

صمت لا يدري ما يقول، بل لا يدري ما يشعر. أردفَ:

- هيا لنذهب.

- لستَ غاضبًا مني؟

هزَّ رأسه نفيًا وقال بصدق:

- لستُ كذلك، أدرك حماسكِ، و.. مبارك.. سعدتُ كثيرًا.

قبلتها منه كمُجاملة فاترة. ركبت سيارتها وانطلقتْ بها، حين نظرت في المرآة الأمامية ورأته يقتفي أثرها بسيارته هدأت أنفاسها، لن يتركها، ما تزال تملك قلبه بين يديها.

نظرت إلى المرآة الجانبية وعقدت جبينها بغضب وهي تقول:

- أرأيتِ يا «شفق» ما فعله عنادكِ بي؟ قلتُ لكِ إن «نرجس» مؤذية فلم تُصدقيني، انظري ماذا فعلت بنا نحن الاثنتان!

---

(٦)

تَمَوضَع رجال القبيلتين في المكان نفسه، تمامًا كما كانت جلستهم الأولى.

تأخَّر «المُبشِّع» في الحضور، فانتظروا مُستظلين بغيمة سوداء حُبلَى بالقلق.

وكي يصرف «جبار» القلق الذي ينبعث في قلب ابنة «طحنون» الجالسة داخل خيمة بجوار مجلسهم، ارتفعتْ عقيرته بالضحكات المُفتعلة، يُمازح «طحنون» مرة وغيره مرات.

جاراه أحد الرجال من قبيلة «المُبشِّع»، ودار حديث ماسِخ عن كيف يُخبر رجل امرأة بدوية أنها تعجبه، نفرَ «بحر» من الحديث، وبخاصة أن فتاة ما تسمعهم من وراء حجاب خيمتها. تمادى رجل وقال له:

- في إحدى المرات اقتربتُ من امرأة وقلتُ لها بصراحة أرغب في الزواج بكِ فرمتني بالحجارة، ومن يومها لم أكررها.

قال أحد الرجال:

- تزوجتَ مرتين يا «جبار»، أخبرنا كيف أخبرت كل واحدة منهما أنكَ تريدها.

تضاحك «جبار» بصخب وهو يتخذ جلسة الحكيم الناصح ويقول:

- والله ما فعلته في المرة الأولى كررته في الثانية وسأكرره في الثالثة والرابعة.

- وماذا فعلتَ؟

سأله الرجل، فأجابه «جبار»:

- كلما أعجبتني امرأة قلتُ لها جملة واحدة، ثم أتبعها حيث كانت وأطلبها من أهلها للزواج، وأعقد عليها في الليلة نفسها.

- وماذا تقول لها؟

دخل «المُبشِّع» وألقى السلام، فاعتدل الجميع في جلسته، وعادت سحابة القلق تُظلل رؤوسهم، فيما «جبار» يُكمل حديثه وفي عينيه نظرة عبث:

- أقول لها: «سأعثر عليكِ يا حافية القدمين»!

يقولون إن العمَى فقد البصر
وإن الصَمم غياب السمع
وإن الخرَس نسيان الكلام
وإن الشلل عجز اليد عن السلام!
وينسون أن البصيرة هي الحاسة الأصيلة
مَن حازها مَلَك ومن فقدها هلَك!
عينه ترى ولا يرى
أذنه تسمع ولا يفطن
يفتح فمه للبوحِ
فيتساقط هزيل الحرفِ
يمنح يده للسلام
فتَحيد به عن المَرامِ
غياب البصيرة للإنسانِ داء
له بإذن المَلِك البرَء والدواء
تطهير القلب من الأسقامِ
ومن شوائِب الذنوب والآثامِ
فمن أراد أن يَسمع ويَرى
فليوارِ خطيئتهُ الثَرَىَ!
خطيئة السرِّ مَهلَكة
للقلبِ والبَدَنِ مَفسَدة!

صوت الشجر حَفيف،
وصوت الحيَّة فحيح
صوت الخيل صَهيل،
وصوت الحمام هَديل
صوت الشاة ثغاء،
وصوت الذئب عواء
صوت البُكاء نَحيب،
وصوت الرصاص أزيز
فماذا يُسمَّى صوت الحَبيب؟

(١)

بدَتْ النجمات في وجه السماء كلطخة في ثياب؛ قليلة، هزيلة، باهِتة.

ألقتْ إحداهن على الأرض نظرة مُتذمِّرة.

أوقفْ «غراب» سيارته على بُعد خطوات من سيارة «دهب»، ترجَّلتْ منها وشرعت تعتذر منه مرة أخرى على مُفاجأتها المُزعجة.

حاول الكلام، والتخفيف عنها لمَّا رآها مُنزعجة. لكن بدا وكأن الكلمات هربت من لسانه بغتة. ولأنه أراد المُصارحة من بداية الطريق إلى مُنتهاه، استجمع عقلًا تشتتْ ثم قال بحزم:

- أنا أكره الكذِب.

رمقته «دهب» بحُزن، فاستطرد يقول:

- لا أتحمله.

اغتمَّتْ قسماتها، بينما يقول بنفور لمسته:

- لا أطيق الكذَّابين، ولا أثق بهم.

سألته بنبرة مُتوسِّلة «لا» في الإجابة:

- هل فقدتَ ثقتكَ بي؟

أطرق «غراب» للحظات، يبحث بداخله عن أصدَق جواب. مرَّتْ هذه اللحظات عليها كثوانٍ أخيرة لمحكومٍ بالإعدام، ثم بغتة أصدر حُكمه بالإفراج، مُبتسمًا ابتسامة صغيرة تُرى بالكاد:

- لا تُكرريها ثانية.

لم تتقبل هذا الجواب، فتساءَلتْ ثانية بقلق يتضخم حتى لم تعد ترى في الكون غيره:

- هل فقدتَ ثقتكَ بي يا «غراب»؟

- أنا أثقُ بكِ يا «دهب».

اطمأن قلبها، وهدأ روعها. أشار بانزعاج صوب الفندق وهو يتأمل واجهته:

- أأنتِ مُضطرة إلى البقاء هنا؟ هل هذا المكان آمن؟

استعاد صوتها مرحه وقالت بنبرة ذات مغزى:

- وضع مؤقت، إلى أن نسكن بيتًا واحدًا.

رأتْ اضطرابًا بسيطًا تسطَّر فوق صفحة وجهه، فابتسمت بجزل لأن كلماتها حققتْ هدفها، وتركت في قلبه أثرها. أشاح عنها بوجهه، ظنَّته يتمالك تلابيب قلبه كعادته، فاتسعت ابتسامتها أكثر.

لكن اضطرابه كان الضيق مَبعثه، لم يستسغ أن ألقَتْ بكلمات عارية من الحياء. ولأنه لم يعتَد إخفاء مشاعره، أو مواراتها بصنوف الزينة والمُجاملة، ارتدَّ خطوة إلى الخلفِ، وقال بانزعاج يُذكِّرها بالحقيقة الساطعة سطوع الشمس:

- هذا الخاتم الذي ترتدينه في إصبعكِ ليس خاتمي يا «دهب»!

رفعت خاتمها تنظر إليه بانزعاج مماثل وهي تقول:

- اضطررتُ إلى ذلك.

زفر بضيق وهو يتذكر كيف ذهب إلى القاهرة بآمالٍ تُناطح السحاب، تهدَّمَتْ في لحظة عندما أصر أبوها على التحقير من شأنه دون أن يستمع إليه، فقط من نظرة واحدة مُتعجرفة رمقه بها.

وقتها عرف بأمر القضية التي رفعها «منصور النمر» ضده. هناك في مكتبه الفسيح شعر بأنه صغير جدًّا، اتهمه بالإهمال الذي أتى إلى الموت، وأخبره أنه لا يليق باسمه ومكانته ليتزوج بابنته، وأمره أن يكف عن إغوائها. لحظتها امتلأ غضبًا، وقهرًا، وحسرة.

لا أمل في الحديث مع الرجل عقلًا بعقل، وإفهامه أنه من هذه التهم براء. قرر أن يُنظف اسمه أولًا بإثبات براءته، ثم يُعيد الكَرَّة بطلب الزواج بـ«دهب». لكن «دهب» ما إن رأته يُغادر مكتب أبيها حتى أتت بما فاجأهما معًا؛ أخرجت من حقيبتها خاتمًا طوَّقَتْ به خنصرها وأعلنَتْ بعناد: هذا الرجل أصبح خطيبي.

شلَّته الصدمة، لم يستطع إنكار ادعائها، إذ ارتعش «منصور النمر» غضبًا، صاح في ابنته وسبَّها، ثم طلب الأمن ليلقوا به خارج شركته.

وتكرر الأمر في حفلة عيد الميلاد حينما أعلنتْ أمر خطبتهما، يومها انزعج منها بشدة، ونظر إليها طيلة الحفل نظرة غضوب، وأسمعها من التعنيف ما ملأ صدرها همًّا.

وما بدد غضبته وقتها أنه يعرف مثلما تعرف هي، أن كلًّا علَّق حياته بحياة الآخر، وأن الصدام مع الناس من حولهما هو أمر حتمي، هل تلتقي الشمس بالقمر دون اختلال موازين السماء؟

عندما تذكر كل ذلك الآن امتلأ صدره ضيقًا، قالت «دهب» مُلطِّفة:

- وضعتُهم أمام الأمر الواقع وانتهى الأمر، ما كان بإمكانكَ إقناع أبي مهما حاولتَ، أعرفه أكثر منك.

حرَّك قبضته في عصبية وهو يقول بحزم:

- أنا لستُ رجلًا خسيسًا لأتزوج بفتاة دون موافقة أهلها، ولستُ قليل شرفٍ لأمنح ألسِنة الناس الفرصة لينهشوا خُلُق امرأتي ويقولوا «عصَتْ أهلها وتنكَّرتْ منهم لأجله».. قُلتها لكِ وسأقولها ثانية يا «دهب»، لن يتم زواجنا إلا بموافقة أبيكِ وأمكِ.

قالت مُتحدية:

- وماذا إن لم يوافقوا أبدًا؟ هل ستتركني؟

- مستحيل.

قالها دون لحظة تفكير، فِكرة تركها مستحيلة، هكذا الأمر ببساطة، لا يستطيع مهما حاول، الفراق ليس فكرة مطروحة على طاولة النقاش، ولأن افتراضها يحمل من التعقيد الكثير شعر بإرهاقٍ فجأة.

حكَّ جبينه، ثم قال لها ليُنهي حديثهما الذي طال:

- الوقت تأخر، هيا اصعدي إلى غرفتكِ ثم اتصلي بي لأطمئن أنكِ بالداخل.

فشلت في كبح جماح ضيقها وهي تقول:

- الا تثق بي إلى هذا الحد؟ لا افهم لمادا تصر على تتبع خطواتي؟

- تتبع خطواتكِ؟! لم أقصد ذلك قط، وبالطبع أثق بكِ، الأمر ليس له علاقة بالثقة.

فقدتْ فجأة قدرتها على الاستمرار في النقاش، مثل جهاز كهربائي فُصِل عن الكهرباء. قالت مُعلِنة:

- أنا متعبة، أحتاج إلى النوم.

سارتْ أمامه بخطواتٍ مُتمهلة، وعندما وصلتْ إلى باب الفندق دارت على أعقابها كي تَقبض على عينيه مُتلبِّستين بشغف مُلاحقتها، لكن خيبتها ظهرت مَليَّة على وجهها عندما رأته ينحني ليركب سيارته ويُعدَّها للانطلاق.

ما إن دخلت الفندق حتى حلَّت عُقدة حجابها، وسارت صوب المصعد بشعر مكشوف.

لم تكن مَهمتها هينة، حينما أمسكت بهاتفها واتصلت بأبيها تُحاول إقناعه بأنها قادرة على الإمساك بزمام الأمر خلال الساعات القادمة.

لم يهتم سوى بالحصول على إجابة سؤال واحد:

- هل ستستطيعين خداع هذا الرجل واللعب عليه لضمان ولاء العُمال أم أرسل مُحاميًا غيرك يستطيع العمل كما يجب؟

ازدردت ريقها، ثم قالت بهدوء وثقة:

- سأفعل ما يلزم، لا تقلق أبدًا.

- أرجو ذلك، أي بوادر مشكلة أخرى لن أتردد في الاستعانة بمحامٍ غيركِ، ليكن هذا في علمكِ يا «شفق».

ولم تكن بحاجة إلى هذا التهديد، تعلم بالفعل أنها أمام فرصتها الأخيرة للمشاركة من كَثَب في تلك القضية. هي الآن أمام مفترق طُرُق عظيم، في مَطلع أيسر الطرق وأكثرها فتنة يقف الشيطان مُلوِّحًا وموسوسًا، ولا يراه إلا عفيف النفس قوي الإيمان، أما الطريق الشاق الطويل ففيه علامات وأمارات كما أوصتها الخالة «نوَّارة» أن تتبع.

عندما أخرجتْ المصحف الصغير من حقيبتها لتقرأ وِردها اليومي وفتحته عشوائيًّا، وقعت عيناها على آية }وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ{[3]؛ امتلأ قلبها رهبة، وكأن القرآن يُكلمها، يُرشدها، يبُصِّرها، وكأنه أُنزِل خصيصًا من أجلها.

توقفت للحظة تُفكر، أنه بالفِعل أُنزِل من أجلها، لا لتقرأه فحسب، بل لتتنفَّسه، وتعيش به.

ما كاد محرك السيارة يعمل حتى أطفأهُ بغتة، نهش القلق قلبه، وتفنن في زرع صنوف الخوف بين أضلعه.

ترجَّل من السيارة وتوجَّه صوب الفندق، يبحث عنها بعينين مُتلهفتين، فلمَّا لم يجدها انتظر، بضع

دقائق وسيتصل بها، يتاكد من وصولها سالمة إلى غرفتها.

تأمل روَّاد الفندق شَزْرًا، أغلبهم من الرجال، مصريون وسُيَّاح، لا يعرف لهم حدًا ولا خُلُقًا، فاستعر وحش الغضب بصدره، كيف يترك أبوها مُهجة قلبه بين هؤلاء الأغراب؟ كيف تهنأ أمها بغمضة جفن أو شربة ماء؟ مسكينة «دهب».

اجتذبه التفكير إلى ما لاقاه منها منذ قليل، كذبة وخدعة مُحكمة التفاصيل. لم يستطع أن يمنع دبيب الضيق من التوغل أكثر في نفسه، ليس لأنها كذبت فحسب، بل لأنها أحكَمَتْ الخدعة ولم يكتشف زيفها للحظة، وهو الذي كان يظن أنه يملك من الفراسة الكثير.

وبينما يقف في منتصف ردهة الفندق غارقًا في بحور التفكير، رآها أمامه. اتسعت عيناه دهشة للحظة، ثم أدرك في اللحظة التالية تفاصيل بسيطة مثل اللون الأسود.

في البداية كان يحتاج إلى لحظة واحدة ليُفرِّق بينهما، أما الآن باتَ بحاجة إلى أكثر من اللحظة كي ينتبه إلى تفاصيل أدق.

بادرته:

- ماذا تفعل هنا؟

أمسكتْ «شفق» بزمام لسانها بعد فوات الأوان، وعلا الخجل مُحيَّاها، تمنَّتْ ألا يُعيد على مسامعها كلماته الساخرة عن شرطي المرور.

لم يفعل هذه المرة، أجاب ببساطة:

- كنتُ أوصِّل «دهب».

على الرغم من أن جوابه لم يُفصح عن سبب وقوفه شاردًا في منتصف الردهة بعدما أتمَّ مهمة التوصيل، فإنها هزَّتْ رأسها بتفهمٍ، أعجبها أنه أراد التأكُّد من سلامة أختها، حكَّتْ جبينها بخجلٍ ثم قالت:

- كنتُ سأتصل بكَ لكنني لم أعثر على رقم هاتفكَ في ملف القضية.

- لم أكن أملك هاتفًا محمولًا.

- لم أفهم!

ندم على تسرعه في الكلام، والذي سيدفعه إلى المزيد من البوح. يكره البوح، وبخاصة للغرباء:

- لا أحب الهواتف المحمولة ولم أملك واحدًا من قبل، لكنني اشتريتُ واحدًا عندما.. يعني بعدما..

كاد أن يقول «خطبتُ «دهب»»، لكن كلمة «خطبتُ» لم تكن سوى كذبة، كذبة حلوة حاكتها «دهب» في غفلة منه، وعلى الرغم من حلاوتها وطلاوتها تعفَّفَ لسانه أن يتذوَّق عسلها.

هزَّتْ رأسها بتفهمٍ للمرة الثانية، بينما تنبتْ بداخلها علامة دهشة كبيرة؛ رجل في هذا العصر لا يملك هاتفًا محمولًا، ولم يشترِ واحدًا إلا عندما ارتبطَ بأختها، كم هذا غريب! كل شيء فيه غريب!

سألت بدهشة حقيقة أطلقتْ لسانها:

- أليس لديكَ إيميل أو حساب على الفيسبوك؟

- أنا أعيش هنا.

إجابته المَقتضبة حوَت معاني متضاربة؛ قد تعني «هنا» العريش نفسها، لكن العريش مثل مدينة أخرى بها شبكة إنترنت واتصالات واسعة، وقد تعني «هنا» أنه يعيش في منطقة صغيرة لا يحتاج فيها إلى التواصل عن بُعد، يبقى احتمال أخير طرق رأسها، أن «هنا» تعني أرض الواقع!

عقد جبينه وهو يسألها بينما يتلفَّت حوله:

- فيمَ أردتني؟

نظرت إلى ساعة هاتفها، واسترقتْ النظر إلى عامل أو اثنين يُتابعان وقفتهما، فسارعتْ بقول:

- الوقت تأخر؛ غدًا أخبركَ.

ثم أضافت بعد لحظة تردد:

- كي لا ينشغل عقلكَ الأمر مُتعلق بالقضية، أنا.. عثرتُ في دليل إدانتكَ على دليل براءتكَ، تمامًا كما أخبرتني.

حازتْ كل تركيزه، اضطربتْ قسماته، أتتلاعب به كما اعتادت أن تفعل في قضاياها، تنصر مُوكِّلها ظالمًا كان أو مظلومًا؟ تمامًا كما أخبرته «دهب» عنها.

- لن تستطيعي التلاعب بهذا الدليل.

قالها بصلف وجفاء، فرددتْ باستنكار:

- التلاعب بالدليل؟!

- أعرف جيدًا كيف تُفكِّرين، ألاعيب الحرب الباردة التي اعتدتِها لن تنطلي عليَّ.

أمالت رأسها قليلًا، ثم قالت بنبرة مُتعالية:

- أتعلم شيئًا؟ أنتَ لا تستحق ما أفعله.

- وماذا تفعلين؟!

قالها مُستنكرًا نبرتها المتعالية، لا يتحمل أن تتطاول عليه امرأة بكلماتها ولا بحدة صوتها.

قالت بحزم وهي تدور على أعقابها:

- لا أفعل شيئًا، ولن أفعل، حظًّا موفقًا مع المحامي الجديد.

- آسف!

فاجأها أسفه، حتى إنها ظنَّته يصدر عن شخص غيره، فلمَّا نظرت حولها ولم تجد سواه؛ استدارتْ صوبه ثانية.

لم يُفاجئها وحدها، بل فاجأ نفسه كذلك، حتى إنه لا يعرف عن أي شيء يتأسَّف؛ ازداد تغضُّن جبينه حدة.

هدأتْ ثائرتها في الحال، وقالت بعد لحظة تململ:

- الوقت تأخر فعلًا.

هزَّ رأسه مُتفهمًا، وكما يُغادر دون تحيَّة فعلتْ بالمثل. تساءل في نفسه: عن أي محامٍ جديد تتحدث؟ تمنَّى لو تحدَّثتْ أكثر كي تُفكِّك له طلاسم تلك العبارة.

التفتت «شفق» بينما تستدعي المصعد الذي تأخر، فوجدته ما يزال واقفا مكانه، على الشرود نفسه، دنَتْ منه ثانية، قالت بحيرة:

- هل تحتاج إلى شيء؟

التفتَ لها وقد بوغِت بعودتها، لم يدرِ أنه أطال الوقوف بشكل أثار ريبة الحارس الليلي للفندق، والذي طفق يرمقه متوجسًا. قال يستجمعَ شتات أفكاره:

- كنتُ على وشك الاتصال بـ«دهب»، ترددتُ.

لم تبدُ كلماته مفهومة، أو تحمل معنى واضحًا لما أراد قوله، لكنه رآها تُخرج هاتفها وتتصل بأختها في الحال، ولمَّا أتاها صوتها قالت لها:

- أنتِ في غرفتكِ إذن، جيد، كنتُ أتعشَّى في مطعم الفندق، سأصعد إليكِ الآن.

أنهتْ المكالمة، هزَّ رأسه شاكرًا وهو يقول:

- لا تخبريها، المرة الأخيرة التي فعلتُ فيها ذلك انزعجَت كثيرًا، تظن أنني أتتبعها لأنني لا أثق بها، لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، أنا فقط...

هزَّ كتفيه ولم يدرِ كيف يشرح لها ما يُحَسُّ ولا يُشرَح، كيف يصف أن قلبه يقود ثورة على جوارحه في كل مرةَ تغيب فيها عن ناظريه دون أن يدري مكانها، وأن دبيب القلق لا يتوقف داخل عروقه حارة الدماء حتى يطمئن عليها كل يوم وليلة، وأن الإنسان عندما يكون بغير أهل يحمونه ويسهرون على رعايته يكون وحيدًا جدًّا، وضعيًفا جدًّا.

- فهمتُ.

قالتها ولم تزد. وفيما كان مُنطلقًا بسيارته أتاه هاتفٌ من داخله، يثير إعصارًا من الأحرف غير المُرتَّبة، عاثتْ برأسه فسادًا، دون أن يتمكن من تكوين كلمة واحدة.

أوقف السيارة على جانب الطريق، وهبط منها صوب البحر الثائر في هذا الوقت من الليل، ينظر إلى الأفق البعيد، حيث الظلام ولا شيء سواه.

سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٢)

- أقول لها : «سأعثر عليكِ يا حافية القدمين».

ألقى «جبار» مقولته ليتجمَّد «بحر» في جلسته، كأنه تمثال حُفِرَ في الصخر قبل ألف سنة، وسيظل حتى ألف أخرى.

ارتسمتْ في عيني «جبار» نظرات الخُبث والدهاء، وعلى وجهه اختالَتْ أمارات الفرح والهناء، إذ تمكن من إرباك «بحر» قبل بدء الجلسة، وسدَّد لثباته الانفعالي طعنة نافذة، ستجعله يتقلَّب فوق لهيب الجمر طيلة الدقائق القادمة.

سيجف لسانه، وحينما يضع «المُبشِّع» الملعقة الساخنة فوق لسان ابنة «طحنون» وتحتال على «البِشعة» لتثبت صدقها، سيُطالب «المُبشِّع» «بحر» بالشيء ذاته، كي يتأكد إن كان كاذبًا في نفيه لتُهمة سرقة الجمال أم صادقًا.

فإن ثبتَ كذبه وصِدق ابنة «طحنون»، سيُوصَم «بحر» ابن «السوارفة» بعار الكذب طيلة عُمره!

لن يُصافحه رجل، ولن ينظر شريف النسَب في وجهه.

تأمَّل «جبار» متشفيًّا وجه «بحر» الذي يتلمَّظ غيظًا، سيجف فمه، وستترك الملعقة الملتهبة أثرًا واضحًا فوق لسانه.

«ملعون»! هتف بها «بحر» في دواخله، لو نطق بها لقام رجال المجلس وكبراؤه يُحمِّلونه حق سب «جبار»، والذي هو نفسه سُبَّة يأنف لسان «بحر» مسَّها.

عرَفَ هذا الخبيث من أين تُؤكَل الكَتِف، وشقَّ بعبارته جُرحًا ما يزال نازفًا.

ذكَّرته العبارة بليلة ظَلماء غاب عنها قمرها، ولحظة شنعاء ما زال في قيد أسرها، ليلة ودَّ لو مسحها من حنايا ذاكرته، أو في أعمق نقطة من الأرض دفنها!

نفَضَ رأسه بقوة، علَّها تسقط من ذاكرته وتنمحي إلى الأبد. أفاق على كلمات «المُبشِّع» وهو يقول لابنة «طحنون» المُستترة داخل الخيمة، بصوت امتلأ رهبة:

- الحلفُ بالله كذبًا يمين غموس، سُمي كذلك لأن صاحبه يُغمَس في نار جهنم عقابًا له.

اضطرب «طحنون» في جلسته، فرمقه «جبار» شَزْرًا، ثبت الرجل في مكانه وهو يُطرق برأسه أرضًا في وَجَل، يسمع الوعيد الذي أعدَّه الله لمن يُقسم به كذبًا، يرق قلبه حينًا، ويمتلئ بالخوف أحايين أُخَر.

لو أنقذ ابنته من غَمسةٍ في نار جهنَّم، سيغمسه «جبار» في نار الدنيا مرة واثنتين وعشر. خاف «جبارًا»، ولم يخَف «الجبَّار»!

- هل أنتِ جاهزة؟

قالها «المُبشِّع»، فتنامَى إلى مسامع الرجال صوت ابنة «طحنون» الأنثوي يسري مع ريح خفيفة من خيمتها إلى مجلسهم، تقول بثباتٍ عجيب:

- جاهزة.

كاد «بحر» أن يبصق أرضًا بين يدي «طحنون» الذي نجح في ترويض ابنته كما يُروِّض بدو الصحراء الكلاب الضالة. قام «المبشع» من مجلسه، وضع الملعقة فوق الجمر المتوهِّج حتى حَمَت، ثم استأذن للدخول على ابنة «طحنون» في وجود عدد من نساء قبيلته.

غاب داخل الخيمة، ورفع صوته كي يسمعه الرجال وقال:

- أقسمي بهذا العود وبربه المعبود أنكِ رأيتِ «بحر» يأخذ جمال أبيكِ إلى جماله، ثم أخرجي لسانكِ.

تحمَّس الجميع في جلستهم، سرَى إليهم صوتها يقول:

- لا أقسمُ إلا بمن خلقني، ولا أشركُ في قسمي به شيئًا.

ندَّ عن بعض الرجال نظرات مُستنكرة، من ابنة «طحنون» العجيبة التي تعد قسم أجدادهم بالعود شركًا بالله.

- اقسمي بالله إذن، ثم أخرجي لسانكِ.

قالها «المُبشع». مرَّتْ ثانية، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس. ثم سُمِعَ صوت شهيقها وزفيرها وهي تقول:

- ولن أُخرِجَ لساني.

تبلبل الرجال في مجلسهم، نظر «بحر» إلى «طحنون» مُحاولًا قراءة صفحة وجهه، ثم تبادل «جبار» نظرات حيرَى مع «طحنون»، بينما «المُبشِّع» يحتدُّ بغلظة:

- أقول لكِ أقسمي ثم أخرجي لسانكِ وإلا أعلنتكِ كاذبة.

رمق «جبار» شزرًا «طحنون» الذي انكمش على نفسه.

أصاخَ «بحر» السمع، فالتقطَ صوت الفتاة تقول بإباء:

- أنا أبدًا لا أكذب.

ارتفع حاجبا «بحر» لُجرأة الفتاة في الادعاء، ألم تأتِ إلى هنا للتصديق على اتهام أبيها زورًا وبُهتانًا؟

خرجَتْ كلماتها التالية لتُلجم ألسنة الجميع للحظات طويلة بعدها:

- في اليوم الذي فقَدتُ فيه الجمال في المرعى المفتوح كنتُ مُتعبة، فاستندتُ إلى سفح الجبل وسقطتُ نائمة، وعندما استيقظتُ كانت الجمال قد تبخَّرتْ من المكان، بحثتُ عنهم طويلًا حتى تألَّمتْ قدماي، ويبدو أنني سرتُ في عكس الاتجاه الذي شَرَدَتْ فيه الجمال، وحين عُدتُّ إلى المكان الذي فقدتهم فيه كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، فعدتُ إلى القبيلة.

ثم أضافت بالنبرة الواثقة ذاتها:

- أنا لم أرَ من تدعونه بـ«بحر» يسرق جمال أبي، ولا أعرفُ مَن سرقها، أما زلتَ تُريد مني أن أخرِجَ لساني لتختبر صدق شهادتي؟

كان يعرف، أحسَّ أن تلك العنيدة لن تكذب، حتى حين ضربها بالأمس كي يُزلزل ثباتها، ويُزعزع عزمها، وبينما هي تتكوَّر أرضًا تضم جسدها ألمًا، أدركَ من عينيها العنيدتين عناد

الماعِز انها لن تكدب.

تأمَّل أن تُخيِّب ظنه، ولم تفعل، الآن أضحَى بين مطرقة «جبار»، وسندان «بحر».

أي مُصيبة تلك التي حلَّتْ فوق رأسكَ يا «طحنون؟!

كانت «دهب» بمرحها المعتاد، ومزاجها الرائق.

جلستا تتسامران فوق الأريكة الصغيرة بجوار فراشها.

تتناول «دهب» عشاءها بينما تقول:

- قلتِ لي إن لديكِ مفاجأة لي، ما هي؟

اعتدلتْ «شفق» في جلستها، ثم نظرت إليها وقالت ببشاشة لتُلقي الفرح على قلب أختها:

- تأكدتُ من براءته.

توقفتْ عن استكمال طعامها وهي تسأل بريبة:

- من؟

- خطيبكِ.

مسحتْ فمها بقوة بمنديل المائدة وهي تسألها ببرودة مفاجئة:

-كيف؟ ومتى؟ هل تتحدثان معًا؟

بدا وقع سؤالها غريبًا على «شفق»، فرفعت حاجبيها تقول:

- تحدثنا مرتين أو ثلاثًا.

انتفضتْ من فوق الأريكة تقول بانفعال:

- أين؟ ومتى؟ وعن أي شيء تحدثتما؟ ولماذا لم تخبريني؟ ولماذا لم يخبرني هو؟ ماذا تحيكان من وراء ظهري؟

وقفت «شفق» قبالتها تقول بدهشة:

- وما الذي سنحيكه من خلف ظهركِ يا «دهب»؟ هل أنتِ مُدركة لما تقولين؟

تحرَّكتْ «دهب» في غرفتها بعصبية، تلوِّح بذراعيها وتقول:

- مدركة جدًّا، هو يمنعني من الذهاب إلى الموقع، وأنتِ تتحججين كل يوم لملاقاته. لو اهتممتِ بـ«أكمل» عُشر اهتمامكِ بـ«غراب» لما تجوَّل الرجل في المكان وهو يحمل وجهًا بائسًا.

- ماذا تقولين؟

واجهتها «دهب» وهي تُمسك بكتفيها تقول:

- أقول هذا لصالحكِ، أنتِ تخسرين «أكمل» دون أن تدركي ذلك، أنتِ كئيبة جدًّا، عنيدة جدًّا، جادة جدًّا، كل شيء فيكِ أسود وكأنكِ خُلقتِ من ظلام.

ارتعشت شفتاها وقالت بعينين رقراقتين:

- لماذا تقولين ذلك؟

- لأنني أحبكِ، ولا أرغب في أن أراكِ حزينة، إذا لم تُغيِّري من طباعكِ هذه سيرحل الجميع عنكِ وتبقين وحيدة، لا أحد سيكون حولكِ، لا أحد سيكون معكِ، هل تتذكرين لياليكِ الوحيدة في

المستشفى؟ هل تتذكرين خوفكِ من الظلام في غرفة العقاب؟ هذه ستكون حياتكِ دومًا؛ وِحدة وظلام.

تجعد وجهها ألمًا وهي تقول:

- كلماتكِ تؤلمني.

- أنا أحاول إفاقتكِ فحسب، أنا أحبكِ جدًّا يا «شفق».

عانقتها عناق سحق، كادت أن تمتزج فيه أضلعهما وكأنهما توأم مُلتصِق، كلما حاولتْ «شفق» التحرر من عناقها شدَّتها «دهب» إليها أكثر.

- «دهب»، سأختنق.

حررتها ببطء، ثم أمسكت بوجهها بين كفيها وقالت برقَّة:

- لا أحتمل حزنكِ.

تشتت عقل «شفق»، حاولت استجماعه وهي تقول باضطراب:

- لستُ حزينة، بالعكس، أنا أردتُ أن أبلغكِ بهذه البُشرى، لقد دققتُ في الأدلة بنفسي و...

قاطعتها «دهب» دون أن تتم كلامها:

- «شفق»، اتركي هذه القضية.

هزَّتْ رأسها بقوة:

- لا أستطيع، أنتِ لا تفهمين ، أبي يُريد من محامٍ آخر تولي القضية.

- اتركيه يفعل ما يريد.

- لو سمحتُ لمحامٍ آخر بتولي القضية واكتشفَ ما وصلتُ إليه سيمحو الأدلة، تعرفين أن أبي يستطيع مسح الدليلَ من الملفات بطرفة عين وكأنه لم يكن.

- أنا أثق بذكاء «غراب»، سيستطيع الخروج من هذا المأزق.

نظرت إليها «شفق» بانفعال تُحاول إفهامها خطورة الموقف:

- الأمر لا يتعلق بخطيبكِ فحسب، ألم تفهمي بعدُ؟ هناك ضحايا غيره، فوق الأرض وتحتها، أنتِ لم تُقابلي أحدًا من أسر العُمال الذين ماتوا، أنا قابلتُ، وببساطة لا أستطيع أن أقف مُتفرِّجة بينما محامٍ آخر يحوك حيلًا قذرة لإلقاء التُهمة على أول كبش فداء يجده في طريقه.

طال الصمت طويلًا، لا يُسمع خلاله إلا صوت أنفاسهما، قطعته «دهب» وقد تبدَّل موقفها فجأة:

- معكِ حق.

ثم دنتْ منها وأمسكت بوجهها تُضيف:

- لكن عليكِ أن تحذري، لا أريد أن يُصيبكِ أي سوء، أنتِ أهم عندي من كل شيء.

مسحت «شفق» عبرة فرَّتْ من عينها، واتسعت ابتسامة تقول بينما تُمسك بوجهها هي الأخرى:

- لا تقلقي أبدًا.

جلست «شفق» فوق الأريكة شاعرة بإرهاق كبير، فاستلقت «دهب» بجوارها، ووضعت رأسها

فوق ساقيها، تنظران معًا إلى قطعة من السماء المَطلة عليهما بزينتها. ترجّتها «دهب»:

- احكي لي حكاية.

سألتها بينما تُخلل أصابعها شعر أختها:

- أي حكاية؟

- حكاية نجمتين توأم.

ابتسمتْ «شفق»:

- لا أعرف هذه الحكاية.

- إذن نجمان حبيبان.

اتسعت ابتسامتها:

- ولا هذه الحكاية، هل أقصُّ عليكِ حكاية «بينوكيو»؟

ضحكت «دهب» تقول:

- الطفل الذي تحول إلى لعبة خشبية يستطيل أنفها كلما كذبت؟

- تخيلي لو حدث ذلك في الحقيقة ورأينا علامة الكذب واضحة في أنوف الكذابين.

- أختي العزيزة، حتى لو حدث ذلك سيحتال الناس كي يكذبوا دون أن تظهر هذه العلامة.

سألتها «شفق» بنبرة مُتحدية:

- وكيف ذلك؟

أجابتها «دهب» ببساطة وهي تهز كتفيها:

- إن صدَّقوا خيالهم، سيختفي الحد الفاصل بين الكذب والحقيقة، ولن تستطيل أنوفهم أبدًا.

---

(٤)

أمسكتْ الدهشة بتلابيب عقله، ليس هذا ما انتظَر سماعه، وما أعدَّ العُدَّة لملاقاته في ساحة المعركة.

لمْ تكذب! ابنة «طحنون» قالت الحقيقة دون زيادة أو نُقصان ولم تكذب!

لم يستطع «طحنون» أن يتهجَّم عليها أمام الرجال مُنزلًا بها عقاب فضْحِها إياه، لكنه سيمنح تلك البائسة العقاب الذي تستحقه عند عودتهما إلى القبيلة. وهي تعرف ذلك، يكاد يسمع صوت دقَّات قلبها المُرتعبة، ويكاد عقلها أن يجن وهي تُحاول تخمين نوع العقاب الذي سينزله بها أبوها.

أوقف «المُبشِّع» سيل أفكار «طحنون» بعودته إلى مجلسه قائلًا وهو ينظر صوبه بغضب:

- أنتَ رجل كاذب عديم المروءة، الآن صار بإمكاني الحكم في هذا النزاع.

نكَّس «طحنون» رأسه وقد أُنزِل به العار، وهرب «جبار» بعينيه الحانقتين من عيني شيخ «السخاوية». تنحنح «المُبشِّع» ثم نظر إلى الطرفين قائلًا:

- أحكمُ على «جبار» برد الجمال العشرة التي أخذها من «بحر» ابن «السوارفة»، وأحكم على «طحنون» بدفع جمل حق ادعاء السرقة، والذي كاد أن يُحدِث فِرقة بين القبيلتين، وجمل آخر حق الكذب في حضرة «البِشعة»، أي اثنا عشر جملًا من «السخاوية» إلى «السوارفة» لا ينقصون جملًا واحدًا.

نزل الحُكم على «طحنون» منزلة الصاعقة على الأرض، كبَّر رجال «السوارفة» وهم يشيدون بحِكمة «المُبشِّع» في فصل النزاع. نظر «المُبشِّع» صوب كفيل «طحنون» قائلًا:

- هل تضمن سداده للدين؟

- أضمنه.

ثم نظر إلى شيخ «السخاوية» الذي احمر وجهه من الغضب والخجل في آن واحد، وقال:

- وأنتَ يا شيخ، هل تضمن سداد «جبار» للدين؟

ردَّ الشيخ باقتضاب افتضح ضيق صدره:

- أضمنه.

التفتَ «المُبشِّع» إلى «بحر» يُربِّت كتفه بقوة ويقول:

- والله كنتُ أعلم من البداية أن الأصيل ابن الأصائل لا يكذب ولا يسرق. هنيئًا لكَ براءتكَ يا «بحر»، وها هي الثلاثة الحقوق قد رُدَّتْ إليكَ.

استقبل «بحر» كلمات «المُبشِّع» بضحكة رائقة، سدد نظراتٍ ساخرة إلى «جبار»، وقال بينما صدره ينتفش زهوًا:

- لا كلمة تعلو كلامكَ يا شيخ.

انفضَّ المجلس بخزي قد لحق بـ«السخاوية»، وبعزة كسَتْ وجوه «السوارفة». وبينما الجميع مُلتَف حول «بحر» يُهنئونه بحقوقه التي رُدَّتْ إليه، وباسم قبيلته الذي تنزَّه عن جريمتي الكذب والسرقة، أبصَر «طحنون» يسحب من الخيمة فتاة لا يتبدَّى طرفُها، يجُرها من ذراعها جرًّا مُهينًا.

انطفات بسمته، وانقبض صدره، همّ باللحاق بهما، حتى إنه تحرّك خطوتين، ثم توقف فجاة، لا يحق له التدخل بين «طحنون» وابنته. ضاقت عيناه، وطفق يُراقبهما بإمعان حتى اختفيا عن الأنظار.

---

(٥)

وصل «غراب» إلى بيته قُبَيل الفجر، أمضى الليلة يتجوَّل على قدميه هنا وهناك، يُعبِّئ رئتيه بهواء الصحراء. شقة صغيرة مُستأجرة في بيت من طابقين، غرفة نوم وصالة ومطبخ وحمام، وعلى الرغم من أن المكان صغير، فإنه نظيف ومُرتَّب بعناية، وكأن ساكِنه امرأة لا رجل.

كل شيء في موضعه، بألوان مُتناسقة بسيطة، بغير بهرجة، إلا زجاج مرآة غرفة النوم، المُعلَّقة أمام فراش صغير يسع شخصًا واحدًا، كانت الشيء الوحيد الذي يبدو وجوده شاذًا وكأنها تنتمي لمكانٍ آخر.

وقف «غراب» أمام المرآة المُهشمة، يتأمل الشروخ الطويلة التي تخرج وتمتد حتى نهاية الإطار، مثل شمس تُفرِّق على الكون أشعتها، وفي المنتصف ثُقب دائري كشَفَ أن سرطان الزجاج مِن هذه الجريمة براء، وأن المُدان قبضة يد اقتحمت الزجاج في لحظة غضب، وأن القبضة تركت آثارًا من الدماء تجلَّطتْ وتركت مكانها لونًا أسود اتخذ من الشروخ مسكنًا.

شوَّهتْ شروخ المرآة وجه «غراب» المُنعكس فوقها، وقف طويلًا يتأمل الشخص الذي تدَّعي المرآة أنه هو.

لم يُكذِّبها، وصدَّق كل ادعاءاتها!

عندما أحسَّ بالاختناق فتح باب الشرفة الصغيرة ووقف مُستندًا إلى سورها القصير، يرفع وجهه قِبَل السماء؛ يبحث فيها عن نجمتين مُتقاربتين، مثل عينين في وجه إنسان! لكن الغيوم ابتلعت نجمات الليلة في بطنها، وأبَتْ أن تلِد له ما اشتهَى من فلذات أكبادها.

تمدد آسفًا فوق فراشه، غفلتْ عيناه لدقائق معدودات. تقَّلب وجهه خلالها يُمنة ويُسرة مُتجعدة قسماته، وكأنه يُصارع كائنًا خُرافيًّا اقتحم حُلمه وروَّعه، أو يدافع عن مملكة مات كل سُكانها وأضحى هو ناجيها الوحيد.

انتفض فزعًا وقد انتزعه صوت أذان الفجر من براثن كابوس مُريع، استعاذ بالله من وساوس الشيطان الرجيم وتفَلَ عن يساره ثلاثًا. لم يتذكر أي شيء مما رأى في حلمه، لكن قلبه الذي أخذ يطرق باب صدره بجنون أنبأه أن الأمر جَلل، وأن عقله بالباطن يُرسل له تحذيرًا خطيرًا!

قام وتوضَّأ، وأقبل على المسجد يُصلي الفجر في جماعة لم يُتِم عدد أفرادها صفها الأول.

وعندما سجدَ ودَّ لو التصق جبينه بأرض المسجد فلا يرفعه أبدًا، شعر برأسه ثقيلًا جدًّا، وقلبه يشده إلى الأرض شدًّا، كأنما يحن إلى التراب الذي منه خُلِق.

ولأول مرة يجد نفسه عاجزًا عن الدعاء؛ تلجلج لسانه، يدري أن أمرًا ما أصابه لكن لا يستطيع صوغه في كلمات.

فتمتم:

- يا رب، أنا لا أعرف، لكنكَ علَّام الغيوب، قرِّبني من الخير خطوة، وأبعدني عن الشر خطوتين.

غادر المسجد وسار سارحًا في ملكوت ربه، ينتظر اللحظة التي يتجلَّى عندها بديع الخالق، وانتظر وانتظر، ثم أخذ نور الشروق يحل على صفحة السماء رويدًا رويدًا، ويحيل ثوبها الأسود

إلى الابيض. اخد نفسًا عميقا من النقاء عبًا به صدره، وعندئد صدق الجمال الدي يشعر به بداخله، وكذَّب المرآة.

استيقظتْ «شفق» مُرهقَة بشدة، وكأن أحدهم أتى بمطارق في الليل وتسلَّى بتحطيم جسدها. كانت ليلة خالية من الأحلام. انتزعتْ نفسها من فراشها بصعوبة، وكأن جاثوم النوم يجثم على صدرها ويسحقه.

تهيَّأتْ للخروج من الفندق، وبدلًا من التوجه إلى الشركة قادَتْ سيارتها إلى منزل الخالة «نوَّارة»، التي أخبرتها أنها تستيقظ قُبيل الفجر ولا تنام إلا ساعة القيلولة.

استقبلتها المرأة ببشاشتها المعهودة، وبدا وكأنها كانت في انتظارها، إذ داعبتْ حواسها رائحة طيبة لمُعجَّنات شهية تفنَّنتْ الخالة في إعدادها.

- لم تفطري بعدُ، أليس كذلك؟ سنفطر معًا.

- لن أرفض الدعوة أبدًا.

يا الله! كم أضحتْ رائحة هذا البيت مألوفة، وكأنها تزوره منذ الأزل. ما إن اتخذتا مكانيهما أمام الجدار الذي تساقط طلاؤه حتى قالت الخالة وهي تُدني وجهها منها وتُدقق النظر:

- تبدين مُتعبة، وكأنكِ لم تنامي منذ أيام.

هزَّتْ «شفق» كتفيها تقول بحيرة:

- كنت جيدة جدًّا بالأمس، لا أعرف ما حدث فجأة.

ثم قالت ضاحكة:

- أشعر وكأن «دراكيولا» زارني بالأمس، لكن بدلًا من أن يمتص دمائي امتصَّ طاقتي.

- أعرفُ هذا الوحش، كان أميرًا ساديًّا يُعذِّب أهل مدينته، قتل الآلاف منهم رجالًا ونساءً وأطفالًا، أليس كذلك؟

هزَّت «شفق» رأسها إيجابًا وهي تحتسي رشفة من قدحها، فقالت الخالة وهي تحذو حذوها:

- «دراكيولا» لم يمت؛ غيَّر شكله ثم عاد للعيش بيننا.

ضحكتْ «شفق» ظنًّا أن الخالة تمزح، لكن أمارات الجدية فوق وجه الخالة بددتْ ابتسامتها سريعًا، بينما الخالة تردف:

- لكنه لم يعد يتغذَّى على الدماء، بل على الطاقات.

هل أُخبركِ كيف تعرفين «دراكيولا»حين ترين واحدًا؟

سايرتها «شفق» مُتسائلة عن الكيفية، فأجابتها الخالة بذات الجدية:

- تشعرين بجوارهم بخواء عظيم، تنظرين في المرآة فلا ترين إلا القُبح، تصطف أمام عينيكِ ذنوبكِ وآثامكِ وكأنكِ لم تفعلي خيرًا قط، تنطفئ شمعة الأمل داخلكِ، تموتين ببطء.

بدا وصف الخالة مفزعًا، وفيما كانت غارقة في التفكير أمرتها الخالة بالاقتراب، دَنَتْ منها وهي

تشعر ان هذه المراة مَدهشة، مَتجددة، وكانها في كل مرة تلقى خالة «نوّارة» جديدة.

أراحتْ الخالة كفها فوق قلب «شفق» مُباشرة. سألتها بغتة:

- هل لكِ خطيئة سر؟

تلجلج لسانها، واضطربتْ دواخلها، حيرَى كيف تُجيب عن سؤالها، بددتْ الخالة حيرتها من فورها، إذ قالت وهي ترفع سبابتها مُحذّرة:

- لا تُخبريني به، السر الذي ستره الله برحمته لا تنزعيه بيديكِ فتلقي عقابه.

ثم أضافت:

- فقط استحضريه في نفسكِ.

ما تزال تُريح كفها مباشرة فوق قلب «شفق» النابض.

غاصت «شفق» في ظُلمات نفسها، تعلم أن لها خطيئة سِر واحدة، لا تقوى على تركها، لم تتعمد الزلل بين وحلِها.

حدث ذلك قدرًا، حينما كانت تعمل أمام جهازها اللوحي في إحدى ليالي الشتاء الباردة، ظهر أمام عينيها مقطع إباحي، تلك المرة لم تُغلقه كعادتها.

وكأن يديها انفصلتْ عن جسدها وأضحى لها إرادة حُرَّة، وكأن عينيها تمرَّدتْ على بواعِث الفطرة في قلبها. ولأن الطريق يبدأ بفضول صغير، لم تكتفِ بزلة واحدة، تكرر الزلل مرة بعد مرة، وحينما يتكرر الزلل يتحوَّل إلى عادة.

مُحقِّرات الذنوب هي أسرع طريق للهاوية، وذنوب الخلوات هي الضربة القاضية!

ذنوبٌ صغيرة مُتتابعات، لا يلقي لها الإنسان بالًا، تكبر مثل كُرة ثلج، وتضرب مثل زلزال، وتسقط مثل صاعقة.

قطَفَتْ الثمرة المُحرَّمة، ولم تستطع العودة من الطريق الذي سلكَته طواعية. لم ترَ في «أكمل» طوق نجاتها، بل سوطًا تُنزله على نفسها.

كانت لـ«أكمل» امرأة كاملة يُكافئ بها نفسه، وكان لها رجلًا منقوصًا تُعاقب به نفسها، مثله لا يستحق إلا مثلها، لا تستحق رجلًا أفضل، لا تستحق قلبًا طاهرًا.

بكت بين يدي الخالة كما لم تبكِ من قبل، لم تُطالبها الخالة بالكف عن البكاء، شجَّعتها بحنان ورأفة وهي تضم جسدها المرتجف إلى صدرها:

- ماء العين طهارة للقلب، ابكي يا بُنيتي، ابكي حتى تُفرغي كل السموم التي تسري بداخلكِ.

مع عبرات عينيها تساقَطَ الخزي، جنبًا إلى جنب مع الندم، علا صوت نشيجها، لدقائق طويلة فاضت الكأس بالماء، لم تتوقف لحظة عن البكاء. تمتمتْ الخالة «نوَّارة»:

- لا بد من التَخليَة قبل التَحليَة، ابكي حتى تُفرغي آخر قطرة سم.

استنفدت كل قطرة سم كما طالبتها الخالة، وعندما فرغَت الكأس كانت أكثر نشاطًا. أنبأتها نفسها أنها عثرتْ في قفار صحرائها على واحة واسعة من السكينة والراحة. أمرتها الخالة بحنو أن تغسل وجهها.

رات انعكاس عينها في مراة الحمام دابلا، كئيبًا، تغشاه هالات الإرهاق والارَق، فكدبت المراة وصدَّقتْ نفسها!

عندما عادتْ جلست بين يدي الخالة؛ أراحتْ الخالة كفها فوق قلب «شفق» النابض مرة أخرى وقالت:

- في داخلكِ ثلاثة أنفس لا نفس واحدة.

رفعتْ «شفق» حاجبيها دهشة، وتركت الخالة تتحدث دون مُقاطعة:

- نفس مطمئنة مؤمنة تحثكِ على فعل الخيرات، ونفس أمارة بالسوء تدفعكِ صوب المُنكرات، أما الثالثة فما أجملها! نفس لوَّامة، توقظ ضميرك ِمن الغفلة، وتضربكِ بعصا الندم، تُبكيكِ ذنبكِ، لذلك قلتُ لكِ إن البكاء طهارة للقلب، وهي علامة أن هذا القلب ما يزال حيًّا، القلب الميِّت أقسَى من أن يعرف البُكاء ندمًا.

قلب «شفق» النابض تحت كف الخالة تأثر بحديثها، فأخذ يتقافز فرحًا، لكن الشيطان الرجيم وسوس لها، فطأطأتْ رأسها وهي تُردد وساوسه على أسماع الخالة:

- أشعرُ أن الله لا يحبني، غاضب مني، لأنني عصيته كثيرًا، كلما تُبتُ كررتُ الذنب فأتوب، ثم أعود، أتوب، ثم أعود، أخافُ ألا يغفر لي ولا يتقبَّل توبتي.

وكأن الخالة ببصيرة نافذة تُبصر الشيطان الذي حطَّ فوق كتفها، يبُخ السُم في أذنها؛ أمرتها أن تستعيذ بالله من الخبيث الرجيم، ثم قالت:

- كان الله بقادر على أن يخلقنا بشرًا لا تُخطئ مثل ملائكة السماء الذين لا يعصون له أمرًا، لكنه خلقنا نُخطئ ونتوب، نزَل ونقوم، نَبعد ونقترب، فالله يفرح بتوبة العبد الصادق في توبته.

سألتها بأمل كبير:

- مهما تكرر الذنب يا خالة؟

- مهما تكرر الذنب يا بنتي، لا يرُدَّ الكريم عبدًا ضعيفًا تائبًا، يقف بين يديه في الصلاة خاشعًا، ويخر على قدميه صوب الأرض ساجدًا، نائبًا، باكيًا، يتذلل إلى ربه ويطلب منه العون والمدد، لينتصر على شهوات تُقيِّده وشيطان يترصَّده.

لكِ ربٌ كريم، غفور رحيم يا بنتي، أتعلمين أنكِ إذا قلتِ «سبحان الله وبحمده» في اليوم مائة مرة غفر الله خطاياكِ وإن كانت مثل زَبَد البحر في كثرتها؟

أبكتها كلمات الخالة ثانية، فضمتها إلى صدرها كما فعلتْ في المرة الأولى، تمسح فوق جسدها بكفها الأيمن، وتقرأ عليها فاتحة الكتاب والمعوذتين وآية الكُرسي.

تمسح فوق عينيها المغلقتين وكأنها تزيح عنهما غمامة غير مرئية، وتدعو لها بسلامة النظر. تمسح فوق أذنيها، لتزيل عنها الحُجُب، وتدعو لها بسلامة السمع. تمسح فوق رأسها، وتدعو لها بسلامة الفهم.

قِلَّة الفهم وغياب الفطنة من الآثار الجانبية لشؤم المعصية، ولكل معصية شؤم!

سكنتْ أنفاس «شفق»، وتوقَّف بُكاؤها، استبدَّتْ بها دهشة عظيمة،
هذه المرة لم يضيق نفسها، لم تحتَج إلى دوائها!

كان الاكتشاف عظيمًا، مَدهلا، تلك هي الكرّة التانية!

الأولى كانت في تلك الليلة، والصوت يُحدثها بحديث حرَّك شجونها، وأبكاها كما فعل حديث الخالة «نوَّارة». انتبهتْ إلى كونها تذكَّرتْ الصوت، ترددتْ وصيَّته «كلما تذكرتِني قومي بعمل خير».

أمسكتْ بكف الخالة وقالت بحماسة:

- هيا، سنذهب إلى الطبيب.

- أي طبيب؟

- طبيب العيون، سأبحث عن طبيب جيد في العريش، وإن لم نجد سنسافر القاهرة، سيكشف على عينيكِ يا خالة.

ابتسمتْ الخالة، ولم يفُتْ «شفق» ملاحظة أن بسمتها تحمل من الحزن الكثير، قالت:

- أتظنين أنني لم أفعل ذلك؟ فعلتُ كل شيء يا بنتي، فات الأوان، ربما قبل ستة أشهر كان هناك أمل، أما الآن فالأمر بين يدي الله، إن شاء أخذ نور عيني وإن شاء حفظهما، بل وقَبض روحي كذلك، فما أنا إلا مخلوقة من مخلوقاته، وكل ما يكتبه ربي جميل، الهناء جميل، والبلاء جميل.

لم تَقبل «شفق» بالاستسلام خيارًا، عليها أن تحاول، لا يفِر من قدر الله أحد، لكنها مأمورة بالأخذ بالأسباب.

فلمَّا رأتْ الخالة منها إصرارًا لا يتزعزع قالت مُستسلمة:

- حسنًا يا بنتي، لكِ ما تشائين، لكن ليس اليوم.

انحنتْ «شفق» صوبها وعانقتها طويلًا، بغير بكاء هذه المرة.

وعندما تجهَّزتْ للمُغادرة نادتها الخالة وقالت بحنو:

- صدقة السِر تُطفئ غضب الرب يا بنتي.

فهِمَ العُمال المُتجمعون في بيت «بشير» لماذا اختار «غراب» هذا المكان لتجمعهم؛ أحضر كلٌّ منهم موادًّا غذائية تُغطِّي احتياجات البيت لشهر على الأقل.

التفُّوا حول «بشير» الذي طأطأ برأسه خجلًا، وقد أدركَ أنهم أمسكوه من يد العيب، إذ إنه لا يحق له رفض زيارة رجال دخلوا بيته، وكذلك كان لزامًا على الرجال أن يقبلوا دعوته على الغداء، والتي تنبعث رائحته من المطبخ وهو ما يزال في طور الإعداد، ويقولون عن هذا «لا يردُّ الكريم إلا اللئيم».

ما إن أتى ذِكر «غراب» في مجلسهم حتى أثنوا عليه في غيبته، على الرغم من أنه يصغر الكثير منهم سِنًّا، فإنهم يرفعون قدره، ويُبجِّلون أفعاله. لم يصدق أي منهم أن «غرابًا» كان سببًا في الحادثة الأليمة التي أذهبت بأرواح زملائهم، أيقنوا من اللحظة الأولى أنه كبش فداء بدلًا عن المُذنب الحقيقي الذي يجهلون هويته.

قال أحدهم وهو يرفع كوب الشاي أمام وجهه:

- لو اقسموا لي بكل ايمان المسلمين لن اصدق ابدا ان «غراب السيناوي» فعلها.

قال آخر بالحماس ذاته:

- هذا جنون يا رجل، «غراب» شهم أصيل، يساعد صغيرنا قبل كبيرنا، عملنا معه لأشهر طويلة فما رأينا منه شرًّا قط.

- أتذكرون حين سدد دين أحد زملائنا الغارمين؟

- والله رأيته ذات يوم يُنظِّف المسجد بعد صلاة الفجر.

- وأنا رأيته يطوف على بيت مريض تجاوز السبعين في شارعِي، وعندما سألته ماذا يفعل «غراب» عندها أجابني أنه يأتيه كل فترة يغسل له ملابسه ويُنظف بيته ويطبخ طعامًا يكفيه لأيام.

هتف أحدهم مؤكدًا:

- والله أثق ببراءته مثلما كان الذئب بريئًا من دم ابن يعقوب -عليهما السلام-.

توقفوا عن الحديث عندما سمعوا طرقات على الباب، يعلمون أنه ينزعج كثيرًا حينما يُكثِر الناس من مدح أفعاله. فتح له «بشير» الباب واستقبله بترحاب شديد، نهض الرجال يُحيّونه كأنهم يستقبلون زعيمًا مهمًّا.

هو في الحقيقة يحتل من نفوسهم موضع القائد، إذ يتحلَّى بطبيعته بصفات القيادة. لم يسأله أحدهم قط عن سببِ الجرح الذي أصاب وجهه، عندما كانوا يذكرونه عرضًا، يرون اضطراب قسماته، وتشنُّجًا خفيفًا يُصيب رقبته، ففهموا أنه حديث لا يود الخوض فيه.

عندما احتلَّ مكانه بينهم ابتدره أحدهم:

- ماذا سنفعل يا «غراب»؟ أشِر علينا، هل نرفع قضية التعويضات الآن كما نصحنا المحامي؟

طافت عيناه في وجوههم للحظات، وعلى وجهه أمارات التفكير، مال بجسده قليلًا، ثم شبَّك أصابعه قائلًا:

- لا تفعلوا.

تبادلوا نظرات حيرَى، فاستكمل بعد برهة بصوتٍ رخيم:

- ويجب عليكم إنهاء هذا الإضراب والعودة إلى العمل في الموقع.

بلغتْ دهشتهم عنان السماء، تمكَّن أحدهم من كسر الصمت بقوله مُتعجِّبًا:

- أأنتَ من تقول لنا ذلك يا «غراب»؟

- نعم أنا.

- وأرواح زملائنا؟ وبراءتكَ؟!

أجابه بعدما مال إلى الأمام أكثر، محاولًا الدنو منهم على المستوى النفسي:

- غيابكم عن الموقع سيضر بكل ذلك، ماذا ستفعل الشركة برأيكم؟ ستأتي بمائة رجل غيركم لإنهاء المشروع، بل ألف لو أرادوا، وعندئذ قد يندس في القضية شهود لم يعاينوا الحادثة، يشهدون شهادة زور كي ينالوا عَظْمة من فضلات أسيادهم، وجودكم في موقع العمل شوكة في

ظهر اصحاب الشركة، وضمانة ان احدا لن يندسّ بينكم.

ثم قال بمنطقية يمتاز بها:

- ثم إن لكل منكم بيتًا والتزامات، وحال البلد هذه الفترة لا يخفى على أحد، من يجد عملًا يتمسَّك به بيديه وأسنانه، وقضايا التعويضات حبالها طويلة، ستستنزفون الوقت والمال، وستكون احتمالية الخسارة كبيرة وبخاصة إن كان الطرف الآخر في يده السُلطة والمال.

هتف أحدهم مُستنكرًا:

- وكرامتنا المُهدَرة؟ وأجورنا المُخفَّضة يا «غراب»؟

اعتدل «غراب» في جلسته وهو يرفع كفه مؤكدًا بحزم:

- كرامتكم من كرامتي ولا أقبل المساس بها، وجَّهتم صفعة قاسية لأصحاب الشركة بإضرابكم عن العمل وباحتمالية رفعكم لقضية التعويضات، وهذا أربكهم بشدة، أنا على ثقة من ذلك، وهذا يكفي برأيي لتتغير معاملتهم لكم، هم بحاجة إليكم لإتمام المشروع أولًا، ولوضعكم تحت السيطرة ثانيًا، لا تنسوا كيف اضطربوا لمجرد أن أحد العمال تحدَّث إلى الإعلام.

ثم قال مؤكدًا، وكأنه يرى المستقبل بعين بصيرته:

- حتى أجوركم ستزداد، أنا على ثقة من ذلك.

هزُّوا رؤوسهم عن قناعة بعدما قلَّبوا فيها كلماته جيدًا، وكان من بين الحاضرين أحد الرجال سريع الكلام بغير تفكير، فاندفع يقول:

- هل عرفتَ ذلك من خطيبتكَ يا «غراب»؟

تجمَّد «غراب» في جلسته، تشنَّجت عضلات رقبته، رأى الرجال فيها عرقًا نابضًا بالغضب. لم يطِق أن يشير أحد الرجال إلى «دهب»، فيستحضرون صورتها في أذهانهم، وكأنها حاضرة بينهم، يرونها بعين الخيال.

هاجَت دماؤه، وثارتْ ثائرته، جمع قبضتيه بقوة ثم التفت إلى الرجل الذي اضطرب فجأة وقد أدركَ زلة لسانه، يقول بغلظة:

- ومنذ متى تتردد سيرة نسائنا في مجالسنا؟!

اعتذر الرجل بسرعة، ونهض ليُقبِّل رأسه، يعرفون أن «غرابًا» لا يتساهل إذا ما مسَّتْ أطراف أحاديثهم فتاة أو امرأة، فما بال الأمر إن كانت الفتاة المذكورة خطيبته؟

أبَتْ نفسه أن يعتذر، كيف يعتذر عن صواب تمسَّك به وسط أحكام قبيلته البالية؟ كيف لرجل في هذا الزمان أن يُجبَر على الزواج بفتاة لا يرغب بها؟

هاجَت لواعجه، وأخذ يذرع غرفته مشيًا بعصبية، يردد هامسًا «لن أعتذر!».

توجَّه إلى مجلس عمه، حيَّاه وصافحه كما لو أن شيئًا لم يكن، ولم يُبالِ بعلامات استياء ظهرت على وجه عمه الذي كان يتوقَّع أن يُحاول ابن أخيه استرضاءه بعد مقولته الشائنة في مجلسه.

انضم أبوه إلى المجلس، ثم أمره باللحاق به في الديوان، وعندئذ وقع قلبه أرضًا. الآن سيعرف قرار الشيخ، وسيكون عليه الاختيار. توجَّه إلى الديوان بنفس مضطربة، وروح مُتوجِّسة، فلما جلس الشيخ في مكانه رفع رأسه وقال بحزم:

- الآن سأخبركَ بما اتفقتُ عليه مع عمِّكَ، لكن أولًا أريد أن أقول بعض الكلمات، تعرفها لكن الإنسان سريع النسيان ويحتاج دومًا من يُذكِّره.

أصاخ «بحر» السمع، بينما الشيخ يقول:

- على الرغم من أنكَ أوسط أبنائي، فإنني طيلة عمري رأيتكَ أكثرهم قوة ورجولة من كل أبنائي يا «بحر»، قد تظن أنني عارضتُ ذهابكَ إلى العريش للدراسة لأنني أب أناني يُريد السيطرة على أبنائه حتى الرمق الأخير، لكن الأمر لم يكن كذلك، أنتَ ساعدي الأيمن يا «بحر»، لا حرمني الله من أنفاس أبنائي جميعًا، أنا.. أنا فقدتُ نفسًا من قبل يا «بحر»، فقدتُ «مُسْفِرًا».

اختفَتْ الحدة من قسمات «بحر» ليحل محلها الشَجَن، أغمض عينيه وطفق يدعو لأخيه بالرحمة، أطرق الشيخ برأسه يفعل المِثل، ثم أردف:

- فقدُ الابن يا «بحر» كخسارة الإنسان لعضو من جسده، فقد الابن كالبَتر.

ثم رفع رأسه إلى «بحر»، ينظر إليه برجاء صامت، يقول:

- بَتران للإنسان.. يعني شللًا يا «بحر».

تقلَّب وجهه بين صنوف الألم وهو يستمع إلى مقالة أبيه، وهو خير من يعرف كيف تأثر الشيخ بموت «مُسْفِر». ما أصعب موت الفجأة!

تذكر كيف اعتادا تسلق النخيل في صغرهما لقطف البلح، ثم الجلوس في ظل الجبل يتناولانه بعد يوم شاق من اللعب، يُفضي كل منهما في قلب أخيه أحلامه.

حتى في ظل طغيان اللون الأصفر حولهما كانت لكل منهما أحلام مُتعددة الألوان، مثل قوس قزح في بهجته. أراد «مُسْفر» السفر حول العالم، يتعرف إلى لغات وثقافات، أن يعيش عمره في كوخ وسط الغابات.

وأراد «بحر» الطيران، مثل طائر «الحباري» الذي ينتشر في جنوب العريش، يظن البدو أن بطنه تحمل أوزانًا من الذهب والمجوهرات الثمينة، عثر عليها أثناء رحلاته الطويلة، ثم ابتلعها في بطنه.

فيضحك «مُسْفِر» من حلم أخيه ويقول:

«لا يُمكن للبحار أن تعيش في السماء».

ما يزال ابوه يستطرد:

- أنتَ رجل حقيقي يا «بحر»، أفخَر أن لي ابنًا مثلكَ، وأقول في نفسي عندي ابن من صُلبي سيتولّى شؤون القبيلة من بعدي، لو متُّ الآن سأموت مطمئنًا، لذلك أنا أثق في حِكمة ورجولة ولدي كثيرًا، أعلم أنه لا يتحمل أن تطال ألسنة الناس ابنة عمه وعِرضها، أعلم أن دماءه حارة، لا يتحمَّل أن تلوك سُمعتها ألسنتهم، فيقولون تلك فتاة رفضها ابن عمها.، لكنني أيضًا لن أجور عليكَ في حُكمي، أنتَ رجل كبير وحُر الاختيار، وما خلقه الله حُرًّا لن أقيِّده بالأغلال.

تحرَّك الشيخ ونظر في عيني «بحر» يُخبره بالقرار:

- ستتزوج «عينًا» هذا الأسبوع.

انقبض قلب «بحر» في صدره، فأتبع أبوه:

- شهر كامل لِيس في عصمتكَ سواها، ثم أنتَ من بعد الشهر حُر، تتزوج ما شئتْ من فتيات القبيلة، مَثنى وثُلاث ورُباع.

أعجزته كلمات أبيه عن التفكير لحظات، وعندما فتح فمه ليتحدث قاطعه أبوه بإشارة حازمة من يده وقال مُطمئنًا:

- اتفقتُ مع عمك، ووافق على ذلك.

شعر أن الكلمات تهرب منه، لا يقوَى على مُطاردتها. نهض الشيخ، حَذا «بحر» حذوه، رمقه لبرهة ثم قال بحزم لا ينثني، يُغالب بواعِث الأبوة في نفسه، وقد تحول من الأب إلى شيخ القبيلة:

- إن خالفتَ أمري، سأتبرأ منكَ.

الآن أدركَ «بحر» أنه وصل إلى نهاية الطريق، وصار عليه أن يختار.

أخذت «عين» ترقب عقارب الثواني والدقائق والساعات، يتسابقون فيما بينهم ليسوقوها إلى اللحظة الموعودة. ما زالتْ لا تعرف كيف وافقتْ على خطة «عِيدة»، كيف استطاعتْ أن تقبل أن تفعل شيئًا ما خطر على بالها يومًا؟

أخبرتها «أم ذيل» أن عليها أن تُحارب من أجل ما هو حقها، «بحر» حقها، وهي بدون هذا الحق مثل قشة لا نفع منها، تطؤها أقدام القبيلة، رجالها ونساؤها، وحتى أطفالها.

لن تتحمل ألسنتهم، نظراتهم، طعناتهم في كرامتها وأنوثتها.

يتندَّرون في مجالسهم عن الفتاة التي رفضها ابن عمها المكتوبة على اسمه، ويتحسَّر البعض على المصير الذي آل إليه حالها، فتكون مضربًا للأمثال بين فتيات القبيلة.

تدعو الأم لابنتها الصالحة «لا أراكِ الله مصير «عين»».

وتدعو الأم على ابنتها العاقَّة «ابتلاكِ الله ببلاء «عين»».

الفتيات يتزوجن ويُرزقن بالأطفال، يكبرن ويشخن في كنف زوج وعائلة، وتبقى هي وحيدة مثل شجرة البرتقال التي يبسَتْ في حديقة أبيها، ستُشاركها المصير ذاته، ستجف مثلها، وعندما تمسَّها ريح قوية ستتحول إلى فُتات.

فزعت، وحين يجن العقل فزعًا يقبل على كل ما قال عنه يومًا «مستحيل». العقارب ما تزال تتسابق، اقترب أذان المغرب، وحين يخرج «بحر» من المسجد ستكون في انتظاره.

ستُشير له كما أخبرتها «عِيدة»، سيتبعها إلى الديوان الذي يكون فارغًا في هذا الوقت من اليوم، ستتحدث معه عن أشياء تافهة، ستُجبر عقلها على أن يؤلفها في حينها.

حتى تحين اللحظة الموعودة التي تسمع فيها وقع أقدام تقترب من الديوان، «عِيدة» تسوق حماها إلى حيث يقفان، توهمه أنها بحاجة إلى الحديث معه. وعندئذ ستقترب «عين» خطوة من «بحر»، خطوة واحدة ستدفع دماء الشيخ إلى الغليان، ولن يحل الصباح إلا وقد زوَّجها إياه.

أكَّدَتْ لها «عِيدة» أن الحيلة مضمونة ومُجرَّبة، وأن ابن شيخ «السخاوية» كان شابًّا مليحًا نصَبَتْ له إحدى النساء الشرك نفسه، فزوَّجهما شيخ «السخاوية» في الليلة ذاتها، لم تمسسه، فقط وقفت على مقربة منه، وفي عُرف البدو أن الفِعل الشائن لا يكون بالمس فحسب، بل بالاقتراب من المُحرَّمات.

وللنساء في قبائل البدو حُرمات مُقدَّسة، لا يدنو منهن إلا محرم أو زوج. وعلى الرغم من أنها تعرف أنه الحل الأخير الذي تحمله في جُعبتها، فإن قدميها المرتجفتين أثناء سيرها كانتا تصطكَّان من الخوف، من الذنب، من الحياء.

رفعتْ رأسها للسماء ترجو الله أن يمنحها القوة لتحوك خدعته، ثم خفضت رأسها أرضًا وهي تُسائل نفسها ألمًا: ألا تخجلين من الله؟ كيف تطلبين منه عونًا على الإتيان بمعصية؟

---

(٧)

دخلت «شفق» مكتب «نرجس» تقول ببشاشة:

- عندي موعد مهم، أنتهي منه ثم أعود، أخبري أمكِ، سنتعشى معًا أنا وأنتِ و«دهب» في مطعم قريب، ثم نتمشَّى قليلًا على البحر ونأكل «أم الخلول».

قالت «نرجس» باستهجان وهي تُغادر مكتبها وتتوجه صوبها:

- ما بكِ؟ هل أنتِ مريضة؟ أين «شفق» صديقتي الكئيبة؟

نظرت لها بلوم قائلة:

- أنا كئيبة؟! سامحكِ الله يا «نرجس».

تعالت ضحكاتها وهي تقول:

- بصراحة نعم، هل أكذب عليكِ؟

ثم توقَّفَتْ عن الضحك فجأة وسألتها وهي ترمقها بفضول:

- إياكِ أن يكون سر هذا التغيير هو «أكمل»! لا تقولي إنكِ بدأتِ بالاقتناع به.

عقدتْ «شفق» ذراعيها أمام صدرها تستفزها:

- ومن قال أساسًا أنني لستُ مُقتنعة به؟

أجابتها «نرجس» بجدية:

- العصفورة.

- لعل عصفورتكِ مُخطئة.

- عصفورتي لا تُخطئ أبدًا.

أنهتْ «شفق» الحديث قائلة وهي تنظر إلى ساعتها:

- سنتحدث في هذا الأمر لاحقًا، المغرب سيؤذن بعد قليل، سأعود بعد العشاء.

- لم تخبريني ما هو هذا العمل المهم.

ترددت «شفق» للحظة ثم قالت:

- هيا سأتأخر، نتحدث لاحقًا.

استدارتْ «نرجس» صوب مكتبها، تُرتِّب الأوراق المبعثرة فوقه، إذ اعتادتْ العمل بعشوائية، لم تجد مكانًا لثقَّالة الورق الكريستالية فوق المكتب، فوضعتها على وِحدة أدراج صغيرة بالقرب من الباب، ثم عادت إلى المكتب تضيف له لمساتها الأخيرة، تبتعد خطوة وتنظر له بعين الرضا.

- ألن تكُفِّي أذاكِ عنها؟

انتفضت متفاجئة، ثم التفتتْ تنظر إلى «دهب»، بمعطفها الأحمر، فوق ملابس سوداء وحجاب أسود.

- أفزعتِني يا «دهب»! متى دخلتِ؟ لم أشعر بقدومكِ.

دنت منها خطوة، وعلى وجهها امارات حقد مَستعر، تقول:

- لماذا تُريدين منها الابتعاد عن «أكمل»؟ هل أكلَتْ الغيرة قلبكِ إلى هذا الحد؟ اتركيها وشأنها.

استعادتْ «نرجس» توازنها وقالت:

- «دهب»، لا تتحدثي معي بهذا الشكل، «شفق» تعرف جيدًا أنني أحبها وأتمنى لها الخير.

وكأنها لم تسمعها، قالت بازدراء وعيناها تنطقان بآيات الكُره:

- قلبكِ أسود، لن أسمح لكِ أن تؤذيها.

احتدَّتْ «نرجس» وهي تقف باعتدال:

- لن أتحدث معكِ في هذا الأمر، من فضلكِ غادري مكتبي.

ظنَّتْ أنها سترفض المغادرة، كعادتها في العناد والمشاكسة، لكنها استدارت ببطء وغادرت المكان في الحال. عادت «نرجس» تنظر إلى مكتبها، تولي الباب ظهرها، تتعجَّب من الكُره الذي بات ظاهرًا في عينيها.

تعلم أن «دهب» لا تحبها، وظنَّتْ أن السبب ربما يعود إلى طباعهما المختلفة، لكن يبدو أن الأمر أشد عمقًا من ذلك.

وفيما كانت مُستغرقة في التفكير، وتولي ظهرها للباب، سمعت وقع أقدام خلفها، لم يتسنَّ لها الاستدارة لرؤية القادم، إذ هبطت فوق مؤخرة رأسها الثقَّالة الكريستالية بقوة.

شعرتْ بألم رهيب وكأن سيفًا شقَّ رأسها نصفين، ثم سقطتْ فاقدة الوعي، وبقعة دماء كبيرة تتسع لتصبغ حجابها.

---

(٨)

لا صخَب في الصحراء، لذلك يسهل على الإنسان أن يستمع إلى حديث نفسه بانتباه، وقالت لها نفسها إنها تودُّ زيارة القبر، فلبَّتْ النداء.

جلستْ «أم ذيل» تفترش الأرض بجوار قبر «مُسفر»، تتحسس أناملها شاهد القبر، تزيل عنه غبار الوَحشة، ثم تمسح فوق صدرها، تزيل عنه غبار الشوق. لو أنجبتْ امرأة مائة ولد وفقدتْ واحدًا لبكَته حتى آخر أنفاسها، لكل فلذة كَبد قيمتها، لا يُعوِّض ولدٌ آخَر، و«مُسفر» كان فلذة لا تُعوَّض.

جلست تدعو له، وتتلو مما تحفظ من القرآن.

ثم تتحدث إليه وكأنه حاضر حولها يسمعها:

- أتعبتَ قلبي من بعدكَ يا «مُسفر»، ليت النسيان يُباع فأشتريه بمال وأملاك، لكنه لا يُباع ولا يُشترى.

مسحت فوق الشاهد برقة وحنان، وكأن أناملها تمس جسد ابنها لا اسمه:

- كلما أصادف فتاة مليحة في مجالس النساء لا أستطيع منع نفسي من أن أقول هذه ستكون عروسًا جيدة لـ«مُسفر»، ما زلتُ أنتظر حمل أولادك فوق قلبي وكأنكَ لم تغِب عن الحياة قط، ألاعبهم وأحكي لهم القصص والحكايات، كنتَ تحب حكاياتي كثيرًا يا «مُسفر»، أتذكر ذلك؟ تسمعها بشغف كبير، كأنكَ تطوف معي على الأمكنة والأزمان.

مسحت عبراتها وقالت باسمة:

- أتذكر حكاية البدوية التي تاهت عند جبل موسى؟ كنت تحبها كثيرًا، كنتَ ترى نفسكَ بطل الحكاية الذي أنقذها من قُطَّاع طُرق اعترضوا قافلتها، سرقوا متاعها، وقتلوا كل من فيها، تهرب الفتاة منهم وتركض بعيدًا حتى تصل إلى الجبل مُتعبة، تلتقي بطل الحكاية..

يعطيها حصانه كي تعود إلى قبيلتها، وعندما تسأله كيف أرد لكَ حصانكَ؟ يشير صوب السماء، يتخيَّر نجمتين متجاورتين مثل عيني إنسان، ويقول لها إن هاتين النجمتين تعرفان كل ساكني الصحراء، سيتبعهما، وستقودانه إليها، تهزَّ رأسها غير مُصدقة حديثه عن قدرة النجمات على تتبع أبناء الصحراء، فتتسع ابتسامته ويقول مؤكدًا:

«سأعثر عليكِ يا حافية القدمين».

كنتَ تحب هذه الحكاية كثيرًا يا «مُسفر»، وتخبرني أنكَ حينما تعثر على فتاة يختارها قلبكَ، ستقول لها ما قاله بطل الحكاية..

لم أعُد أحكي هذه الحكاية لأحدٍ من بعدكَ يا «مُسفر»، لم أعد أحكيها قط.

يتبع في الجزء الثاني